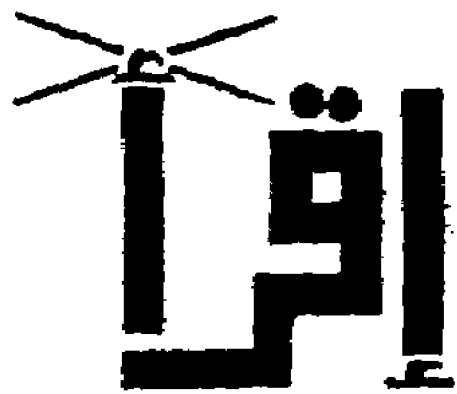
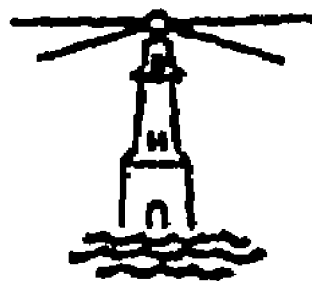




تصديق أول كل شهر
رئيس التحرير: السيد أبو النجاة



دار المعارف بمصر

هذا المعارف ٤٠ دار المعارف

[REDACTED]

أُمِّيَّة السَّعِيد

أَبْنَاؤُنَا الْمُنْحَرِفُونَ

قَصَصُ وَاقَعِيَّةٍ مِنَ الْحَيَاةِ
لِمَا سَمِيَ انْحِرَافَاتِ الْفَتَيَاتِ وَالشَّبَابِ

٣٩٢

اقْرَأْ

دارالمعارف بمطَر

مقدمة

كلمة لا بد منها

التحليل النفسى علم وفن فى آن واحد . . .
إنه العلم الذى يرشدنا إلى خفايا العقل الباطن . . . أو اللاوعى . . .
وهو الفن الذى يهديننا إلى العواطف الخبيسة بين طياته ، ويمكننا من أن
نطلق ذا الحرية ، فنخلص من الأوهام الخادعة التى تراكمت بمضى
الوقت حتى أصبحت مصدراً لتعاستنا وشقاءنا . .

وبفضل بدعة التحليل النفسى أمكن للعلم أن يحرر المرء من
انفعالاته الخفية التى تعذب حياته وتربك تفكيره ، فكأن التحليل
النفسى هو الوسيلة الصائبة إلى تسليح الإنسان بالقدرة على قهر أحقاد
ومخاوفه وشكوكه ، وتزويده بالأهلية على توجيه نشاطه وقواه إلى الأفعال
الطيبة . . .

فإدراك ما يخترى فى العقل الباطن والتمحكم فيه هو الطريق الأول إلى
الارتقاء بالمرء إلى أعلى مراتب السعادة ، فمن العقل الباطن ينبع الخيال
وتنفجر قوى الإبداع والابتكار . . فى حين أن الجهل بالعقل الباطن
يؤدى إلى شروده ، وهذا كفيل بالقضاء على صاحبه ، إما ببطء عن
طريق إصابته بالاكئاب وما قد يترتب عليه من إدمانه الخمر أو تعاطيه
للمخدرات أو ارتماؤه فى أحضان الانحرافات الخلقية على أنواعها . . .
إما أن يأتى الدمار سريعاً فى صورة جرائم وحشية وأعمال من العنف
لخفيف . .

ولقد أثبت التحليل النفسى — برغم حداثة عهده — قدرة فائقة على تغيير الطبيعة البشرية . وفتح أبواب الأمل أمام كثيرين ممن يتردّدون فى مهاوى اليأس والتقنوط . كما أثر فى حياة الملايين . بما هبّاه ذم من تفهم عميق فى محيط تربية النشء . وتوضيح الأسباب الدافعة للجريمة ، ونهضة عوامل الحماية من الانحرافات الحلقية المتعددة والتحليل النفسى ، بكشفه لنا عن خفايا العقل الباطن . قد أكد لنا أننا لسنا المتحكمين دائماً فى مصائرنا . بل هناك قوى مجهولة توجهنا فى معظم الوقت ونحن . بكشفنا الستار عن عناصر هذه القوى ، نزيل الضغط عن النفس ، ونعيد المرء إلى طريق السلامة

ونحن فى هذا الكتاب نقدم مجموعة من قصص المتاعب النفسية التى تصيب أبناءنا — البنين منهم والبنات — نتيجة لأخطاء تربوية يرتكبها الأهل فى تنشئتهم إياهم ، فتترسب آثارها فى قرارة عقولهم الباطن ، وتظل تكبر بمضى الوقت ، إلى أن تنفجر فى أشكال مدمرة !

ولقد أخذنا هذه القصص من كتابين : أحدهما اسمه « الأطفال الذين يمتثلون » وهو من تأليف اثنين من خيرة الإحصائيين النفسيين هما « لوسى فريمان » و « دكتور ويلفرد هلس » . والثانى اسمه « نساء متعذبات » اشتركت فى تقديم قصصه نخبة من أساتذة التحليل النفسى منهم « مارى بونابرت » و « ميلتون نلسون » و « تشارلز برج » و « هارولد جريوالد » و « أوتوفينيشل » إلخ . إلخ .

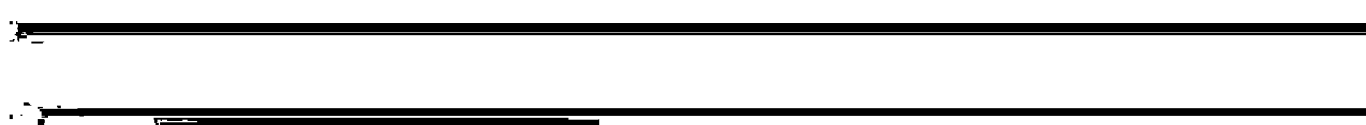
ولقد وضع هؤلاء العلماء قصصهم فى صورة بحوث علمية تعتمد على اصطلاحات فنية معقدة . من العسير على غير المتخصصين فهمها .

ورغبة في تعديم فائدتها وتقريب معناها وفلسفتها إلى الأذهان ، رأيت أن أبسطها بتحويلها إلى قصص اجتماعية تكشف بوضوح عن مدى «الدمار» العقلي ، والنفسي ، والخلقي الذي نسبته لأبنائنا ، نتيجة لأخطائنا في تربيتهم ، وحرماننا لطفولتهم من المناخ الصحي السليم ..

ولسوف نرى أن أبطال هذه القصص وبطلاته جاءوا من جميع مسارات الحياة ، فيهم الفقير والغني . . . المتعلم والجاهل . . . المتدين والملحد . . . فيهم ابنة القس ، وابن الطبيب ، والمومس ، والأستاذة الجامعية . . . فيهم القاتل ، والمنحرف ، والأبله ، والمجنونة . . . لكن قصصهم كلها تعتبر صرخات طفولة يائسة ، حرمت حقها من الحب والحنان ، فشردت بعيداً عن طريق الخير والفضيلة . . . لكن التحليل النفسي نجح - فيما عدا جرائم القتل - في إنقاذهم من انحرافهم ، فبمساعده إياهم على تفهم رغباتهم الخفية ، أمكن لهم أن يغفروا أخطاءهم لأنفسهم ، ويقضوا على الثورات الناشئة بين طيات عقولهم الباطن ، فيستعيدوا ثقتهم بأنفسهم ، ويعيشوا - ما تبقى لهم من عمر - حياة طبيعية متوازنة . . .

إن كتاب «أبنائنا المنحرفون» هو الهدية التي نتقدم بها إلى الآباء والأمهات ، راجين أن يجدوا بين صفحاته الطريق الصحيح إلى إسعاد أولادهم . . .

أمينة السعيد



جريمة أمّ

- أم تضرب بها الأمثال في العطف والحنان ، تقتل بالرصاص زوجة ابنها العروس الحامل في الشهر الرابع ، وعلى مشهد من ابنها العاشق لزوجته .
- كيف بدأت جذور المأساة في طفولة هذه الأم ؟
- وكيف كان موقف أمها وأبيها سبباً في هذه النهاية المحزنة لسيدتين جديرتين بحياة سعيدة ؟ !

قدم هذه القصة أحد أساطين الطب النفسى فى فرنسا ، وبطلتها سيدة من الطبقة الراقية مثقفة ذكية ثرية ذات أصل وجاه . . أم تضرب بها الأمثال فى العطف والحنان ، وزوجة مشهورة بوقارها وتقانيها فى حب زوجها ورعاية مصالحه .

ومع ذلك فقد استطاعت هذه المرأة الممتازة أن تروغ رأى العام الفرنسى بجريمة من أبشع ما يكون . إذ قتلت بالرصاص زوجة ابنها العروس الحامل فى الشهر الرابع . . واختارت أن تنفذ حكم الإعدام على الشابة الصغيرة البريئة فى حضرة ابنها وعلى مشهد منه ، برغم علمها بأنه يعبد زوجته الصغيرة الحميلة ويكاد يطير سعادة بالجنين الذى فى بطنها !

وأبشع ما فى هذه الجريمة أن الأم القاتلة لم تبد أدنى أسف ولا ألم لما ارتكبته ! . . وظلت قبل المحاكمة وفى أثنائها وبعدها رابطة الجأش باسمه الثغر ، تردد المرة بعد الأخرى : « لقد قمت بواجبي وفعلت ما لم يكن من فعله بد ! » . . ولما صدر الحكم بإعدامها ، تقبلته باسمه راضية ، كأنهم قرروا أن يبعثوا بها إلى نزهة مسلية !

أما لماذا فعلت ذلك ، فالجواب عن هذا السؤال يأتى من مجريات قصة حياة هذه المرأة ، « مدام مارى لوفافر » ، أبشع قاتلة فى عصرنا الحديث : ولدت « مارى » فى أسرة كبيرة تملك مزارع كثيرة وأموالا طائلة ، وكانت الطفلة الأولى لوالديها المتفاهمين المتحابين ، فقبولت بغاية التدليل والترحيب ، وظلت خلال السنوات الأولى من عمرها تترجع على

عرش قصرهم ومن فيه . . ترفل في التدليل والرخاء والمحبة والرعاية . . كل طلب لها - ولو خرج عن المعقول ! - مجاب . . وكل أمر ولو أحمق . مطاع !

ثم حملت أمها للمرة الثانية وأنجبت صبياً ، جاء مولده بمثابة الفتيلة ، باعتباره « ولى العهد » المنتظر . . الرجل . . الذكر الذى سوف يحمل اسم أسرته وينتقل منه إلى أولاده وأحفاده من بعده . . وانقلب تيار المحبة والرعاية والتفانى إلى « شارل » الصغير ، وانشغل الوالدان به عن « ماري » ، بل عن كل شىء سواه : إذا خرج مع مربيته للترهة يودع عبارات الوله والهيام ، وإذا رجع يقابل بالترحيب والإكرام . . عندما يضحك يعم الحبور أهل البيت كلهم ، وعندما يبكى يشيع الذعر وينقلب المزاج !

ووجدت « ماري » الصغيرة أنها قد نحت جانباً ولم يعد أحد يحس بوجودها ، فانطوت على نفسها وبدأت تكره صحبة الآخرين ، وتزداد التصاقاً بأمها دون ميرر معقول !

وضاق صدر الأم بإلحاح ابنتها في التمسح بها ، فكانت تزجرها وتؤنبها ، وإذا لم ترتدع تعاقبها ، مما أدى إلى جفوة شديدة بين الأم وابنتها ، فتحول قلب البنت إلى أييها اللطيف الطويل الوسيم القوى ، واعتبرته ملاذها الأخير ، فلجأت إليه بقلبها المتحرق إلى العطف والمحبة ، وراحت تسعى بكل حيل طفولتها إلى استرعاء اهتمامه بها . . ولكنها لم تجد منه سوى تجاوب سطحي : كان يربت يده على ظهرها ثم يوليها ظهره ويذهب إلى ابنه الصبي !

ونخابت حيل « ماري » في استرداد عرشها القديم . أو إثارة اهتمام أهلها بوجودها . فاستسلمت للهزيمة . وتضاعف انطوائها على نفسها ، وتغيرت أخلاقها فأصبحت شرسة المزاج . عنيدة : مكابرة . لا تخضع للأوامر ولا تحترم رغبات الكبار . . مما أقنع أهلها بضرورة مضاعفة الجهد في تقويمها . . وتصوروا أن إرسالها إلى مدرسة داخلية يروضها ويلين قناتها !

وأرسلت بالفعل إلى مدرسة داخلية بعيدة . ولم تكن تأتي البيت إلا في العطلات الكبيرة ، لتجد شارل يرفل في حائل العطف والمحبة . ويمضي الوقت . . وكبرت ماري ، وكبرت معها متاعبها النفسية الدفينة ، وساءت حالتها بشدة في مرحلة المراهقة ، وأخذت تظهر عليها أعراض التدين المفرط والرغبة الشديدة في إدارة الأعمال المخصصة للرجال . وقد تفوقت في هذا المجال بالفعل وأثبتت جدارتها ، حيث تزوجت بأحد كبار رجال الأعمال الفرنسيين ، وتولت عنه مهمة تصريف كثير من الصفقات الهامة ، وكان لكفاءتها هذه الفضل الأكبر في اتساع تجارته ومضاعفة ثروته .

وفي خلال السنوات الخمس الأولى من حياتها الزوجية أنجبت « ماري لوفافر » صبيين : أحدهما قوى ، جميل ، والآخر كسيح عليل لا يرجى له شفاء مهما طال به العمر .

والعجيب في أمر هذه السيدة أنها فرحت بالابن الكسيح أكثر مما فرحت بالسليم ، وأقبلت على رعاية الإثنين بكل ما تملك من جهد وعاطفة . أعطتهما كل وقتها وحنانها ورعايتها : وأحاطتهما بسياح منيع من الرعاية ،

كأنهما كثر تخشى أن يمترب منه أحد فينتزعه منها !
 وكبر الولدان ، وبلغا مبلغ الرجال ، وظل الكسيح كسيحاً على
 حاله . وازداد السليم سلامة وقوة وسامة . . ثم حان الوقت لهذا الابن
 الرائع أن يبنى أسرة لنفسه ، فتقدم بموافقة أهله لخطبة فتاة يحبها ، من
 أكبر العائلات الفرنسية . . وتحدد يوم الزفاف .

ومما يثير الاهتمام أن الأم لم تعارض في ذلك ، وإن كانت قد تقبلت
 الموضوع بهدوء غير عادى . . والأمر الوحيد الذى لوحظ عليها أن حالتها
 الصحية تدهورت بشدة دون مسوغ ، فأصبحت نهياً للأرق ، والصداع ،
 وآلام الظهر ، وأوجاع الكلى والكبد والأحشاء ، فضلاً عن الإمساك
 الذى كان يلازمها أسابيع متتالية ، ثم يعقبه فجأة إسهال شديد يعجز
 الأطباء عن وقفه . . وبعرضها على أساطين الطب في فرنسا أجمع رأى
 على أنها لا تعاني أى مرض عضوى يسوغ الحالة الصحية الرهيبة التى
 تعانيها ، والمسألة من بدايتها إلى نهايتها مجرد أعصاب ، ولا يعرف أحد
 لماذا اضطربت بهذه الصورة ؟

فضيحة مدوية

وحدث الانفجار الأول داخل الكنيسة في أثناء زفاف ابنها وعروسه . :
 إذ فوجئ كبار المدعوين « بمدام لوفافر » تصرخ في وجه العروس الواقفة
 أمام القسيس بالشتائم والسباب ، تهمها بأنها خربت ميزانية ابنها خلال
 فترة الخطبة ، بما فرضته عليه من نزوات وما تقبلته من هدايا . . وعيرتها
 بأنها تأكل أكثر مما يحب ، وهو إسراف غير مقبول ، وأعلنت أمام

المدعوين أنها قررت أن تحرم زوجة ابنها من الخدم ، وعليها أن تقوم من أول يوم بواجبات الكنس والمسح والطهو في بيتها الجديد !
وكانت فضيحة مدوية ظلت الأوساط الفرنسية الراقية تتحدث بها على مضى الشهور !

وتبين الابن خطورة الموقف ، فأبعد زوجته عن أمه بكل لباقة ، واكتفى هو بالمودة والتزاور . .

وعندما ظهرت أعراض الحمل على العروس أبقى الخبر في طي الكتمان ولم يحدث به أحداً ، خشية أن يصل الخبر إلى أمه فتزداد طغياناً على طغيان . . لكن « ماري اوفافر » - التي كانت من بعيد تتابع خفية أخبار العروسين - وجدت من يخبرها بقصة الحمل . ولما تأكدت من صحة هذا الخبر ، اشترت في السر مسدساً . وبلغ بها الشر أن رجت ابنها أن يتولى تمرينها على إصابة الهدف ، بحجة أن اللصوص انتشروا في حيهم ، وأنها تخشى على سلامتها وسلامة ابنها الكسيح في أثناء سفر عميد الأسرة لأداء مهامه الكثيرة . .

وذات يوم ، استدعت الأم ابنها وأبدت له غاية أسفها على ما بدر منها نحو زوجته ، ورجته أن يمنحها فرصة تصفية الجو وإعادة الوثام ، بحيث تكون هذه الفرصة بمثابة البداية الطيبة لعهد الوثام الجديد !

وفرح الابن بالتغير الذي طرأ على أمه ، ولبى دعوتها فرحاً . .

وخرج ثلاثهم إلى الغابات في السيارة والدنيا لا تكاد تسع سعادتهم .

وعند ركن ظليل جميل ، طلبت « مدام لوفافر » من ابنها أن يتوقف لحظة ، للاستمتاع بالمنظر الطبيعي الرائع . . وعندما فعل ذلك ، استلت

الغدارة بسرعة ووضعها على رأس العروس وأفرغت رصاصاتها في
في جمجمتها على مشهد ومرأى من ابنها الزوج السعيد !

.. ثم ظلت في مكانها جالسة رابطة الجأش ، لا تغيب الابتسامة عن
شفتيها ، ولم يبد عليها أدنى ضيق أو اشتزاز لرؤية الجمجمة المقتتة
أمامها ، أو تلطيخ ثوبها بدماء كنتها !

ولازمها هذا الهدوء في أثناء التحقيق والمحاكمة ، ولم تستطع أن تقدم
مسوئاً لفعلها الأثيمة سوى أنها قامت بواجبها ، وفعلت ما كان ينبغي
عليها أن تفعله . . وعندما صدر عليها حكم الإعدام لم يتحرك أى ساكن
لها ، وعندما استبدل بالإعدام السجن المؤبد - تمشياً مع التقليد الفرنسى
الذى أوقف الإعدام فيما يختص بالنساء - لم تظهر الفرح ولا
الاغتياب ، وإنما كان التغيير الذى أذهل المسؤولين بعدئذ هو الحالة
الصحية الرائعة التى أصبحت فيها « ماري أوفافر » ، مع أنها كانت
تعيش في زنزانة رهيبة : تنام على الأرض الخشبية ، وتأكل طعام السجن
البغيض . . فقد تلاشت جميع أمراضها تلاشياً كاملاً : ذهب الأرق
والصداع ، واختفت أوجاع الكلى والمرارة والأحشاء ، وانتظمت أحوالها
فلم يبق أثر للإمساك والإسهال ، وتورد وجهها كما لم يتورد طول حياتها ،
وامتلاً جسدها بعد نخافة شديدة ، وبدا واضحاً أنها تستمتع بحياة السجن
أكثر من حياة القصور !

البحث عن الطفولة

وتقرر عرضها على طبيب نفسى لمعرفة خفايا هذه المرأة العجيبة التى أثارت اهتمام الدوائر العلمية ، واعتبرت حقلاً نفسياً جديراً بالدراسة الدقيقة !

واختير لها أحد أساطين الطب النفسى فى فرنسا ، فكتب بعد طول فحص وتمحيص ، يقول :

« إن كل إنسان يحمل فى نفسه بذرة القتل ، وهذه البذرة تكون شديدة الوضوح فى الطفولة ، وكثيراً ما تراود الصغير فكرتها إذا أغضبه أحد ، حتى أقرب الناس إليه . . ولكن الظروف التى تحيط بنشأة الفرد ، والعوامل التى تكتنف السنوات الأولى من حياته ، هى التى تحدد مصير هذه البذرة ، فتقضى عليها إذا كان المناخ التربوى ملائماً . أما إذا كان غير ملائم فهذه البذرة تختفى بين طيات العقل الباطن ، حيث لا يحس بها أحد حتى صاحبها ، ثم تنفجر إذا تهيأت الأسباب لذلك !

و « مدام لوفافر » من النوع الأخير ، والحقيقة أن الجريمة الشنعاء التى ارتكبتها هذه السيدة المثقفة المثيرة الراقية لم تكن بنت الغيرة التى تصيب الحماية أحياناً نحو كتبها . . إنما كانت الترجمة الدقيقة للظروف التى أحاطت بطفولتها وتركت فى نفسها مرارة ما بعدها مرارة ، بسبب السلوك التربوى الخاطئ الذى لحق إليه والداها عند مولد ابنيهما « شارل » . فالأصول التربوية تحتم أن يعامل الطفل بالقدر المناسب من الحنان ، دون إفراط أو إغراق يوهمه أنه عماد البيت وسيد الوالدين دون شريك ،

فشعوره هذا قد يؤدي إلى دماره النفسى إذا جاء إخوة آخرون ووجدتهم شركاء له فى كل ما كان يستمتع به وحده ! . . فما بالنا بالطفلة « ماري » التى خرج والداهما عن جادة العقل والحكمة بتتويجها ملكة للأسرة قبل مولد أخيها . وعندما حملت الأم للمرة الثانية ارتكبت غلطة أخرى هى عدم إعدادها المسبق لاستقبال المنافس القادم دون خصومة أو عدا . . . ولقد بلغت المحنة أقصاها بانصراف الوالدين إلى رعاية هذا الصبي الجديد ، حين سمحا لسعادتهما به أن تشغلهما عن ابنتيهما الأولى التى ظلت فى سنواتها الأولى صاحبة المكانة الكبرى والوحيدة فى قلب والديها . .

ولقد أصيبت الطفلة بطعنة نفسية نجلاء حين تلفت حولها فوجدت والديها تخليا عنها وأنزلاها من عرشها دون وجه حق . . ولم تجد من والداهما العوض عن الجوع العاطفى الشديد الذى أصابها بانشغال أمها عنها ، فتضاعفت المرارة فى نفسها : هذه المرارة التى بلأت الطفلة إلى التعبير عنها بالانطواء على نفسها وبالعناد والمكابرة والمشاكسة ، ثم بالتدين المفرط فى مرحلة المراهقة ، والتعلق بأعمال الرجال ، لكى تثبت لنفسها أنها لا تقل أهمية عن الصبي الذى حرّمها مكانتها التقليدية القديمة وأنزلها عن عرشها واحتل مكانها فيه !

وبإبعادها عن البيت فى المدرسة الداخلية تلقت « ماري » الطعنة النفسية الثانية ، التى أكدت لها أنها مخلوق غير مرغوب فيه ، وغيباه خير من حضوره ، بعكس « شارل » الذى يستمتع بكل شيء . . . أى أنها أصبحت إنساناً ينقصه الانتماء . . لا ينتمى إلى أحد ولا أحد

ينتمى إليه . هذا الشعور القتال الذي كثيراً ما يوحى إلى صاحبه بأبشع الأعمال . .

ويؤكد الطبيب النفسى أن بذرة القتل أخذت تتفتح وتتفشى فى نفس « مارى » منذ ذلك الحين . ثم بدأت فترة الهدنة بمولد الصبيين بعد زواجها . فالأول مرة شعرت بالانثناء ، فالولدان من بطنها : وهما منها ولما ، وفيهما العوض النفسى الكامل . . ولكن زواج الابن الأكبر المسلم قلب الأحمر ، أو أحيا النيران النفسية من جديد . . وعاد خطر الوحدة وعدم الانثناء يتمثلان لها فى ربط حياته بامرأة سواها قادرة على إرضائه وإشباعه بوسائل ليست فى مقدور الأم . . ثم جاء الحمل الذى أعاد إليها مأساة حمل أمها فى « شارل » وما ترتب على مولد الجنين من عزلة عاطفية وجوع حسى رهيب . . عندئذ حدث الانفجار فارتكبت « مارى لوفافر » جريمة انتقاماً لمأساتها فى طفولتها . . التى شاء حظها النكد أن تتسلل آلامها فى عقلها الباطن فى غفلة من عقلها الواعى ، ودون أن يحس بها أهلها ليتداركوا الخطر فى وقته المناسب . .

وجميع الأمراض التى أصابتها وحر فى علاجها الأطباء لم تكن فى الحقيقة سوى « اضطرابات عصبية » تعبر عن الغليان النفسى التائر بين طيات عقلها الباطن ، ولو أنها وجدت فى تلك الفترة المعونة العلمية الصحيحة التى تغوص فى أغوار نفسها وتطفو بمتاعبها إلى السطح ، ما وقعت الجريمة ولا فكرت « مدام لوفافر » فى الإطاحة بجمجمة كنتها على مشهد ومرأى من زوجها الحبيب . .

لكن أحداً لم ينتبه لمتاعبها ، فأخذ كبت هذه المتاعب يسبب لها

ضغوطاً داخلية رهيبة ، انتهت تماماً وحل محلها السلام بتنفيذها حكم الإعدام في كنفها ، وهي تحمل في بطنها جنيناً كالذى حملته أمها في يوم من الأيام وقضى على سعادتها واستقرارها . .

لقد شفيت « ماري أوفافر » تماماً واستعادت صحتها وعافيتها واستقرار نفسها عندما تخلصت بجريمتها من الضغوط النفسية التي سببتها لها تربية والديها الخاطئة ، وجهلهما بالأسلوب الصحيح في تنشئة الأبناء وتوجيههم :

ويمكننا تلخيص الأخطاء التربوية التي ارتكبها الأهل دون قصد فادت إلى الجريمة فيما يلي :

١ - أنهم أغرقوا الطفلة بأكثر مما ينبغي من عطف وتدليل ، بحيث تصور لها أنها كل شيء في البيت ، ولا شريك لها فيه !
٢ - أنهم لم يعدوها نفسياً لاستقبال المولود الجديد ، بالتوعية السليمة في أثناء حمل أمها ، حتى تقتنع قبل مجيئه بأنه إنسان حبيب ، وليس شريكاً أو غريباً !

٣ - أنهم انشغلوا عنها به بعد مولده ، وحرروها فيض عطفهم السابق . .

٤ - أنهم لم ينتبهوا لأعراض المتاعب النفسية التي أخذت تعانها ، مثل الانطواء ، والعناد ، والتمرد ، واتخذوا الموقف العكسي فأبعدوها عن البيت ، الأمر الذي أدى إلى تضخم شعورها بعدم الانتماء ، ودفعها إلى ارتكاب الجريمة عندما وجدت عدم الانتماء يهددها مرة أخرى !

« سندرا » تبحث عن الانتماء ..

« لماذا احترقت « سندرا » البغاء ؟ ..

« هل كانت تبحث عن المدة ؟

« هل كانت تبحث عن المال ؟

« إن الحقيقة تؤكد أنها كانت تبحث

عن شيء آخر .. هو الانتماء . .

هى فتاة أمريكية فى الحادية والعشرين من عمرها اسمها « ساندرا »
جميلة الشكل إلى درجة تلفت الأنظار .. أنيقة الملبس فى اعتداد واحترام ،
وقورة فى حركاتها وسكناتها مهذبة فى حديثها الهادئ المزن ..
أما مهنتها فظهر أنها بغى محترفة . :

ويؤكد الطبيب النفسى الذى تولى علاجها أنه حين دخلت عليه
هذه الفتاة ووقعت عليها عيناها أول مرة . لم يدر بخائده وأو لحظة واحدة
أنها تحترق البغاء وتعيش من اردية .. ونقد جاءت الصدمة التى تلقاها
بعرفة الحقيقة ومفاجأة عنيفة ، لم تسعفه البديهة فى المحاولة دون غهور
آثارها على وجهه . وهى أكبر غلطة يرتكبها الخيال النفسى فى حق مريضه
أو مريضته . فالمفروض أن يلزم الطبيب دائماً موقف الحياد ولا يظهر
تأثراً لما يقال له من الحقائق ، مخزية كانت أو مشرفة .

والعجيب أن « ساندرا » الجميلة الهادئة الرقيقة لم تلجأ للطبيب طلباً
للمخلص من المهنة التى تدهورت فى مهاوئها ، إذ كانت راضية بحالها
قائمة بطريقها فى الحياة : ولم يكن يقلقها سوى شعور مزعج بأن
الناس — حتى عابرى الطريق الذين لا يعرفونها — ولم يسبق لهم الالتقاء
بها — بمجرد أن يقع عليها نظرهم عرضاً وهم يعبرون الطريق تبدو فى
وجوههم أوضح معانى السخرية والازدراء ، فلماذا يسخرون منها ، وماذا
فى وجهها يدعو إلى الازدراء ..

برودة الملجأ

وكان على الطبيب أن ينقب في لفائف العقل الباطن بحثاً عن الأسباب التي تعذب مريضة بهذه التصورات الخاطئة : ولقد فعل ذلك واستنفدت منه العملية وقتاً طويلاً انتهى بأن عثر على الحقيقة في قصة حياتها وأحداث طفولتها الأولى : فلقد ولدت « ساندرا » في أسرة صغيرة محترمة يعمل والدها بالتجارة ويكسب ما يكفي لتلبية احتياجات زوجته الطيبة وبناته الثلاث الصغيرات .

وكانت « ساندرا » أصغر الأبناء ، ومن سوء حظها أنها ولدت في أعقاب الأزمة الاقتصادية الرهيبة التي أمسكت بخناق الولايات المتحدة في بداية الثلاثينيات وأطاحت برءوس الأموال . وحكمت على كثيرين بالحراب ومنهم والد « ساندرا » . وبذلك قدر على الطفلة الصغيرة أن تولد في مرحلة الضنك والتقصف التي حلت بأسرتها بعد أن لحق الإفلاس بتجارة أبيها . ولم يبق لديه مصدر للدخل يعول به أهل بيته .

وحاول الأب من جانبه أن يتغلب على المحنة ، وأخذ يجرب حظه هنا وهناك لكن محاولاته كلها باءت بالإخفاق ، وازداد تدهور وضعها الاقتصادي حتى لم يبق أمامه مفر من أن يتخذ إجراء حاسماً يواجه به النكبة . . فاتفق مع زوجته على توزيع بناته : أبقى كبراهن في البيت لمعاونة أمها في الأعمال المنزلية ، وأعطى الوسطى عمها المقتدرة تربيها وتنفق عليها . أما « ساندرا » المسكينة فقد اضطرت إلى التخلي عنها

للاجتهات المسئولة حيث أدخلت ملجأ للمفقرء . وكانت فى الخامسة من عمرها .

وانتقلت «ساندرا» الصغيرة من دفء الأسرة إلى برودة الملجأ ، الذى يضم أكثر من ثمانئة طفل ، وبعد أن كانت فرداً من خمسة يعيشون متحابين تحت سقف واحد ، وجدت نفسها تذوب فى هذا القطيع الإنسانى الضخم البائس ، ولم يمض وقت طويل حتى أخذت أحوال الصغيرة تتغير ، مالت إلى العزلة ، وغلبها الوجوم ، وفقدت شبيبتها للطعام فامتنعت عن الأكل مما أدى إلى تدهور صحتها : وتحمل جيلها أكثر مما تحمله طفولتها .

ولم يبق بد من اتخاذ إجراء سريع حيالها . .

فتدارس المشرفون على الملجأ حالتها وعلاوها إلى احتياجها لأسرة تحيطها بالجو العائلى الذى اعتادته وحرمتها الظروف من الاستمرار فى الاستمتاع به . . .

وكانت عودتها إلى بيت أبيها مستحيلة بسبب الضنك الذى يعيش فيه ، لذلك اختاروا لها أسرة بديلة مكونة من زوجين وابنتهما الوحيدة الصغيرة التى تقارب «ساندرا» فى السن ، وتصلح أن تقوم مقام أخت لها . .

ونقل المشرفون على الملجأ «ساندرا» إلى أسرتها الجديدة متصورين أنهم أدوا بذلك لها خدمة جليلة ، لكن المسألة جاءت بالعكس ، فأبوها الجديد كان رجلاً خشناً متجهماً دائماً لا تعرف الابتسامة طريقها إلى فمه . . ولقد تقبل الطفلة فى بيته طمعاً فى الأجر السخى الذى يتقاضاه

من الحكومة لقاء ذلك ، وفيما عدا هذا الأجر تنقيد له ، لم يكن أمر «ساندرا» يعنيه في قليل أو كثير ، فاهتمامه وعواطفه وكرمه ورقته وسخاؤه ظل مقصوداً على ابنته الحقيقية فقط ، يغرقها باللعب والحلوى ، وياويل الصغيرة المسكينة إذا مدت يدها إلى لعبة من اللعب أو طمعت في قطعة من الحلوى أو الشوكولاته ، وإذا فعلت تنور الإبنة المدللة فيثور والدها بالتبعية وتنصب النقمة على رأس «ساندرا» مما يزيد لها عزلة وعذاباً . . .

حنان الوحوش

والمرة الأولى التي لمست فيها حنان أبيها البديل جاءت على أبشع صورة : .

كان ذلك عندما خرجت ربة البيت ذات يوم بصحبة ابنتها لشراء حاجيات الأسرة من السوق . . . ونحلاً المكان إلا من الطفلة والرجل الحشن ، عندئذ وجدته يتحول فجأة إلى وحش ويعمد إلى امتها [آدميتها بصورة لم يسبق لها معرفتها :

وكانت الفتاة أصغر سناً من أن تتميز بين الخطأ والصواب وتفهم لمعنى الحقيقي لما يريد ، ولكنها قاومت بالغريزة ، ورفضت أن تدعن لرغباته الشريرة ، فجن جنونه واسعها بسخمى في يده في فخذها عقاباً لها على عصيانها ، ولقد تركت هذه اللسعة في جسد الطفلة البريئة ندبة ظلت طول حياتها واضحة في فخذها .

وأمام الألم الشديد من العذاب الموجه والخوف الرهيب من أن يتكرر .
 كفت « ساندرا » عن المقاومة واستسلمت لما يريد أن يفعل بها ، فكانت
 مكافأته على ذلك أن رآته لأول مرة في حياتها يربت على رأسها ويبتسم
 في وجهها كما أعطاه في اليوم التالي كرة ومضرباً صغيراً فكانا أول هدية
 تلقتهما في حياتها .

ومنذ ذلك اليوم أصبح الرجل لا يحنو على « ساندرا » أو يعترف
 بوجودها إلا لغرض في نفسه يقضيه في غيبة بقية أفراد الأسرة ؛ فتعلمت
 أن تطيعه طمعاً في الحنان والهدايا . . كما تعلمت أيضاً بمضي الوقت أن
 ترضى رجال الحى الذى يسكنون فيه . المتزوجين منهم وغير المتزوجين -
 بنفس الطريقة مجاناً ، ولا تطالب لقاء ذلك سوى شعورها باهتمامهم
 المؤقت بها . والذى أخذ يزداد خصوصاً في مرحلة المراهقة عندما بدأت
 زهرة أنوثتها تفتح عن قوام بديع وجمال أخاذ لا تحظى بمثلها فتاة أخرى
 في المنطقة كلها .

وبفضل هذه المزايا الرائعة التي خصتها بها الطبيعة أصبحت محط
 الأنظار المهمة الجائعة . . الكل يحرون وراءها من أجل الجنس فقط ،
 وإذا رفضت لا يلبث الجميع أن يواووها ظهورهم وينصرفوا لتواجه الوحدة
 من جديد ، وتحترق بلهيب التعطش إلى العطف والحنان .

وفي هذا الجو الخفيف كبرت « ساندرا » واكتملت جمالها .
 وكانت أحوال والديها قد أخذت في التحسن بعد طول فقر وتمشيق .
 فأصبح في مقدورهما الإنفاق عليها ، فطلبوا استردادها بعد فراق طويل
 دمر قيعها وأفسد نظرتها إلى الدنيا ومن فيها . .

وعادت . ساندرا . إلى بيتها وقد تعقدت نفسيته وتمزقت الروابط
بينها وبين أعز الناس إليها . وهم أفراد أسرته ، حتى أصبحت تشعر أنها
غريبة عنهم وأنهم غرباء عنها ، وهي نتيجة طبيعية لفراق الطويل ، فالبعد
كما يقولون جفاء ، فما بالناس إذا اكتنف هذا الفراق أقسى أسباب العذاب
والمذلة . . .

ووجد الأبوان أمامهما ابنة رائعة الجمال مضطربة النفسية مشوشة
المبادئ والاتجاهات . فضربوا حولها نطاقاً من الرقابة الصارمة وفرضوا
عليها قيوداً قاسية . إذ حرموها من الثياب الجميلة التي تبرز أنوثتها ،
كما قننوا عليها في الضعام حتى لا تزداد تورداً ونضارة . كذلك منعوها
من الاشتراك في الأنشطة المدرسية منعاً للاختلاط مع أنها كانت متفوقة
في دراستها ، وبخلوا عليها بالشارة الصغيرة المطلوبة للالتحاق بالفرق الرياضية ،
ورفضوا أن يعطوها نصف دولار قيمة الاشتراك في إحدى الأسر
المدرسية :

وكانت إذا تأخرت نصف ساعة عن المواعيد المحددة للعودة من
المدرسة يبعثون وراءها بأختها الكبرى لتهددها أمام زميلاتها وزملائها
بالضرب المبرح إذا لم ترجع إلى البيت فوراً ، الأمر الذي أصابها بنحزى
شديد في المدرسة ، ودفعها إلى المزيد من الارتواء في أحضان الخنس ،
والسخاء في إعطاء نفسها مجاناً لكل من يبدى لها شيئاً من العطف والمودة .

وحين بلغت الثامنة عشرة كانت قد حزمت أمرها على الانطلاق
من القيود الرهيبة التي تنعسها ، فجمعت ذات يوم حاجياتها القليلة
وهربت من بيت أسرتها . وسافرت إلى مدينة نيويورك حيث الذئاب

البشرية تقف متربصة في انتظار الوحيدات الساذجات المعذبات
مثيلاتها :

والعجيب أن « ساندرا » برغم التجارب القاسية التي مرت بها ظلت
ساذجة غريزة لا تعرف شيئاً من حقائق الحياة وخفايا النفوس البشرية ؛
لذلك وقعت فريسة سهلة بين أنياب شاب وسيم مرح اسمه « فيل » ،
كان في حقيقته قواداً يعيش من عرق النساء المنحرفات ، فوجد في جمالها
الرائع وساذجتها البالغة ضالته المنشودة . فتظاهر بحبه المحنون لها : :
ولشخصها فقط . . وأخذ يعدها بالزواج والاستقرار والسعادة الغامرة
بالأسرة والأطفال . ولكن بعد أن تمحسن أحواله المادية ويصبح قادراً
على مواجهة أعباء الزوجية : . فسقطت في الفخ بكل سهولة ، وأولته
كل ما تملك من حب وثقة ووفاء ، متصورة أنه المنقذ المنتظر الذي بعثت
به العناية الإلهية تعويضاً عما لقيته طول حياتها من عذاب ومحن :

وأصبحت طوع بئانه ، فلما اطمأن إلى سيطرته التامة عليها ،
طالب منها أن تعاونه على إدخار المال المطلوب لإعداد بيت الزوجية
المنشودة ، باحتراف البغاء ، وإعطائه مكاسبها . . متعهداً بأن يوافيها
بالعملاء الأغنياء الذين يصدقون على متعهم المال بلا حساب ، بحيث
يتجمع لهما المبلغ المطلوب في أقصر فترة ممكنة تكف بعدها عن المهنة
الشائنة . .

ولم تكن إلى هذه اللحظة تعرف أن الجنس يباع بالمال بدل العطف
والمودة ، ولم تلق الفكرة قبولاً في نفسها ، لكن حبها الشديد لصديقها
« فيل » وفرط رغبتها في الإسراع بتحقيق أمل أسرة ، جعلها تنصاع

لرغبته ، واحترفت البغاء حريصة على إعطاء صديقتها جميع مكاسبها دون أن تبقى لنفسها شيئاً على الإطلاق . . كانت تكره الأموال الفائلة التي تأتيها عن طريق الرذيلة فتبادر دائماً بالتخلص منها ، وكان يحدث أحياناً أن يخاصمها « فيل » لسبب من الأسباب ويبعد عنها ، فتعطى نقودها لأي إنسان آخر يمر بطريقها ، سعيدة بالتخلص من هذه المادة التي تحس كأنها تحرق جيبها .

ومضت الأيام ومكاسبها السخية تذهب تباعاً إلى جيب « فيل » فينفقها عن آخرها في ملذاته الخاصة ، وبكل وقاحة يطالبها بمضاعفة جهودها إنقاذاً لحلم الأسرة الذي كان المفروض أن يتحقق بعد شهرين قليلة ، لكن السنوات مضت دون أن ترى « ساندرا » بادرة لاقترابه .
والعجيب في أمر « ساندرا » أنها برغم تدهورها الخلقى في أحط مجال ممكن ظلت تكره الخمر ، ولا ترضى بشربها مهما كانت الظروف ، كذلك كانت تخاف المخدرات بأنواعها وتحرص على الابتعاد التام عن طريقها . . لكن حدث ذات يوم أن أرغمها « فيل » على تدخين لفاقة من « الماريوانا » وهي — مخدر أمريكي يشبه « الحشيش » المعروف في بلادنا . . واستاءت الفتاة من طعم اللفاقة ، ولم تسعد بأثرها ، غير أن هذه اللفاقة الواحدة تسببت لها في متاعب نفسية خطيرة : ذلك أنها على أثر تدخينها تملكها إحساس غريب دفعها إلى تأمل وجهها في المرآة ، فإذا بها تتصور أن الوجه المشهور بجماله قد انقلب وأصبح مشيراً للسخرية والازدراء .

وظلت هذه الفكرة تطاردها في كل مكان . فعندما تسير في الطريق

أو تدخل حائزاً لشئ ، يقع في نفسها أن الناس من حولها يتأملونها
في سخرية موجهة . .

ولما اشتدت بها وطأة العذاب ، لجأت إلى الطبيب تسأله المعونة . .
ويقول العالم النفسي في تحليل حالتها إن الناس كثيراً ما يعتقدون أن
البغاء لا يحدث إلا بدافع الفقر أو الطمع في الربح الجزيل السهل .
وهذا غير صحيح ، بدليل ملايين الفقيرات اللاتي يعشن راضيات
بالقليل الذي يكسبته من عملهن الشريف ، كما أن الدراسات الاجتماعية
تؤكد أن المرأة النطامعة في الربح السهل تفضل في معظم الأحيان أن تعمل
بالنشل أو السرقة أو توزيع المخدرات أو النصب والاحتيال . . أما البغاء
فينتج غالباً من الأزمة النفسية الناجمة عن الحرمان من العطف ، وانعدام
الشعور بالانتماء ، والعزلة النفسية التي توحى إلى صاحبها بأنها إنسانة
وحيدة . . لا أحد يريد لها أو يهتم بها . . ولن تجد حاجتها من المودة
والعطف إلا عن طريق الجنس الذي لا يكف الرجال عن طلبه ، ولا
يتورعون في الحصول عليه عن الجرى وراء طفلة غريبة . . أو صبي
صغير . . أو امرأة شقية على استعداد للتضحية بكل شئ مقابل حاجتها
من العطف والمودة . . وبما أن العطف والمودة في الجنس قصيرة الأجل
ينتهيان بانتهاء المهمة الجنسية ، فالإكتار فيها يعطى — ولو ظاهراً — صفة
الدوام والاستمرار .

وكانت هذه حقيقة الدوافع لاحتراف «ساندرا» البغاء: أولاً مجاناً
وثانياً بالأجر . . فهي لم تكن تريد في قرارة نفسها سوى الشعور بالانتماء ،
بدل الإحساس بالضياع والعزلة . .

عدم الانتماء

و « ساندرا » هى المثل الحى لهذه الحقيقة الموجهة : فلقد دفعتهما الظروف إلى احتراف البغاء ورسمت لها طريقها فيه من بداية حياتها : عندما كانت طفلة غريبة فى الحامسة فقط من عمرها ، وانتزعت من أحضان والديها لتودع فى ملجأ للمفقرات ، لقد جاء هذا الانتزاع بمثابة الخطوة الأولى الحاسمة فى تقدير مصيرها . فضنك الحياة فى بيت الأب لم يكن يؤذى مشاعرها ، لأنها كانت تجد التعويض الكامل عن الثياب والمأكول واللعب فى الثراء العاطفى الذى تنهل منه حتى تشبع فى أحضان والديها . . ولذلك تلقت صدمة بالغة العنف حين انتزعت من هذا الجو العزيز ، وألقى بها فى مؤسسة تكتظ بمئات الأطفال من أبناء الفقر والعوز مثلها . . وعاشت فى مكان لا يشعر أحد بوجودها فيه أو يهتم بأمرها . . إذا استيقظت بالليل مذعورة لا تجد يد أمها الحنون تربت على رأسها كما اعتادت . . وإذا بكى لا تجد من يمسح دموعها . . تجوع أو تشبع . . تشقى أو تسعد . . تصبح أو تمرض . . كل ذلك سواء فى مكان مثل الملجأ : حيث تذوب فردية الإنسان فى طاحون الجماعة النفسية ، ولا يبقى بعد ذلك سوى عذاب عدم الانتماء الناشب بمخالبه الوحشية فى قرارة العقل الباطن . .

ولقد كان تدهور صحتها واعتلال نفسيتهما فى الملجأ بفعل الاضطراب النفسى العنيف الذى أصابها نتيجة لانتزاعها من المكان الوحيد الذى تجد الانتماء الطبيعى فيه . ولا شك أن المسؤولين فى الملجأ توخوا الأسلوب

الصائب حين فكروا في نقلها إلى أسرة بديلة. لكنهم أساءوا الاختيار ، ولم يدققوا في تقصى حقائق الأب الجديد الذي منحوه إياها ، فكانت النتيجة أبشع من الأولى .

فوقوعها في براثن وحش إنساني ضار ، لا يتورع عن امتهان آدميتها وهي لم تزل في سادة من عمرها ، ويعاقبها بكيها بسيخ محمى إذا تمنعت ، وإذا استسلمت يكافئها بالعطف والهدايا ، رسم لها الحياة في صورة مشوهة توهمت معها أن الجنس هو الثمن الطبيعي للعطف والمحبة ، وقد زادت هذه الصورة وضوحاً في ذهنها عندما وجدت المأساة تتكرر مع الآخرين من رجال الحي وشبابه الذين استغلوا معذاجتها بوحشية فكانوا يقبلون عليها إذا حققت لهم رغباتهم الحيوانية ، ويدبرون عنها إذا تمنعت أو أبدت اعتراضاً .

أما عن جهلها بحقائق الحياة وخفايا النفوس البشرية خصوصاً في مجال الرجال ، فقد جاء نتيجة للصدمات العنيفة التي تلقتها منهم وهي لم تزل في فجر حياتها : فالصدمة الأولى أتت بتخلي أبيها عنها ، والثانية باعتداء والدها البديل عليها ، والثالثة بغدر « فيل » واستغلاله حبها العظيم له بأحقر وسيلة للخداع ممكنة . .

وكان في الإمكان إنقاذها ببقائها في بيت أبيها من البداية . كذلك كان في الإمكان إنقاذها بحسن اختيار الأب البديل ، ونقلها من الملجأ إلى رعاية رجل شريف يرعى الأمانة ويخاف الله .

وحتى عندما عادت إلى بيت أسرتها في سن المراهقة كان من السهل أن يستقيم حالها بالعطف والتوجيه السليم وتشجيعها على الاندماج

في الحياة الاجتماعية المدرسية التي تحقق لها بجانب الأسرة الشعور بالانتماء .
 لكن شيئاً من كل هذه الأمور لم يحدث مع الأسف الشديد ،
 وتكاثفت الظروف على دفعها على طريق الرذيلة برغم نفورها الباطني
 مما تفعله ، بدليل بغضها للنقود التي كانت تكسبها ، ودأبها على التخلص
 منها تباعاً ، ثم شعورها بأن المجتمع كله يسخر من شكلها بعد أن انحدرت
 إلى هاوية الخطأ بتدخينها الماريوانا . .

ويقول الطبيب النفسي إن « ساندرا » ظلت تتردد على عيادته أربع
 سنوات كاملة كانت تتخللها نكسات تدفعها إلى الثورة على العلاج
 بالهرب من الطبيب ، ولكنها لا تلبث أن تعود باكية نادمة بعد فترة
 قصيرة .

ولما تكشفت الحقائق أمام « ساندرا » بخروج العقدة من العقل
 الباطن إلى العقل الواعي ، حدثت المعجزة بثورة الفتاة على صديقها
 القواد ، وقطعها صلتها به تماماً ، ثم عودتها إلى بيت أهلها ، والتحاقها
 بمعهد للتجميل تخرجت فيه إلى الحياة العملية الشريفة حيث اشتغلت
 بوظيفة محترمة ردت لها اعتبارها في حكم نفسها ، وقضت تماماً على وهم
 سخرية الناس بها .

والأعجب من ذلك أنها أصبحت بخيلة جداً لا تنفق البنس الواحد
 إلا بعد تدقيق شديد ، وكثيراً ما كان هذا البخل يسبب لها مشاكل مع
 سائقى التاكسى وخدم المطاعم مما أدى إلى تدخل الشرطة بينها وبينهم في
 مناسبات عدة ! .

ماريان «تواجه حقائق الحياة مبكراً !

« لماذا فشلت «ماريان» في معاشرتها لزوجها ؟ وكيف استطاع الطبيب أن يفسر من خلال حلمها المخيف أسباب شقائها ، ثم يعيد إلى حياتها الهدوء والاستقرار ؟ . .

لجأت « ماريان » إلى العيادة النفسية الجبانية مرغمة . .

فقبل ذلك كان المختصون في الأمراض العقلية قد أجمعوا على أنها
مختلة الذهن تماماً ، وقد ظهر هذا الاختلال في شكل أوهام كاذبة تسيطر
على فكرها ، وتصيبها بحالات من الغيرة الجنونية تدفعها في بعض الأحيان
إلى الشروع في الانتحار ، ولولا أن حالف الحظ زوجها ومكنه من
إنقاذها قبل فوات الأوان لذهبت ضحية التخيلات الكاذبة التي
تستولي عليها .

وإزاء الغيرة المرضية التي لا تستند إلى أى مبرر واقعى ومحاولات
الانتحار المتكررة ، ثم نوبات الغضب الوحشى التي تفقدها وعيها
وتحولها إلى ما يشبه الحيوان المفترس . . استقر رأى المختصين على
ضرورة إيداعها مستشفى للأمراض العقلية . . ولقد أدخلت بالفعل ،
لكن حالتها النفسية تدهورت بشدة هناك ، وراحت المريضة كلما أتى
زوجها لزيارتها ترجوه باكية مستعطفة أن يمنحها فرصة أخيرة ، وذلك
بإعادتها إلى البيت ، وعرضها على الأطباء النفسيين - لا العقليين - لعائهم
يجدون لها علاجاً يخلصها من عذاب الحياة في عالم الجنان . .

ولم يكن مضى على زواجها سوى عام واحد . .

والزوج - برغم مرض « ماريان » - ما زال في قراره قلبه يحبها ويعطف
عليها ، فضعف أمام رجائها المتصل ، وأعادها إلى البيت وليس في نيته
أن يعرضها على المختصين النفسيين نظراً لظروفه المالية المعسرة ، وثقافته
المحدودة التي تحول دون إيمانه بجادوى مثل هذا العلاج :

غير أن الظروف اقتضت غير ذلك . . فبعد عودة « ماريان » إلى

بينها أصيبت بمرض في أذنها ، وبعرضها على الطبيب تبينت له حالتها الذهنية المتدهورة ، فأحالت فوراً إلى العيادة النفسية الأجنبية ، فلم يبق مفر من ذهابها إليها .

كانت « ماريان » في الخامسة والعشرين من عمرها ، نحيفة الجسم ، ضئيلة الحجم . ضعيفة البنية بشكل واضح . . شكلها من حيث الجمال يعتبر فوق المتوسط وفي عينيها الخضراوين الواسعتين ملامح الذكاء الممتاز بالقلق . . مظهرها العام يوحي بأنها أصغر كثيراً من عمرها الحقيقي : . وثيابها العتيقة الرخيصة تدل على أنها من صميم الطبقة الكادحة . حركاتها وحديثها يتسمان بالتردد المسترج بقدر واضح من الشك والتوجس . . شديدة الحجل . . عديمة الثقة بالناس .

اتهمام زوجة الأب

وأحسن الطبيب النفسى للوهلة الأولى أنها لم تأت إليه طواعية . فهي لا تؤمن بالعلاج النفسى ، ولكنها أرغمت على الالتجاء إليه خوفاً من أن تؤدي معارضتها إلى إعادتها إلى مستشفى الأمراض العقلية . وأظهرت في البداية بعض التعاون ، فاعترفت بأنها تغضب بسرعة ، وعندما يحدث ذلك تكاد تغيب عن الوعي . . أو هي تغيب عنه بالفعل . . وتبدأ الحالة دائماً بإحساسها كأن تياراً كهربياً يسرى في جسدها كله ، وعندما يصل هذا التيار إلى رأسها يتحول إلى ضغط رهيب تبحظ معه عيناها ويخيل إليها لشدة شعورها بالجموح كأن مقلتيها قد خرجتا من منحرجيهما . . ثم ينحسر التيار الكهربائي بالتدريج إلى أن يتركز في

منطقة أعضائها التناسلية يصحبه « أكالان » شديد ، تضطر معه إلى أن تحك بأظافرهما وتحك حتى يتمزق لحمها وتسيل منه الدماء . وعندئذ فقط تأخذ النوبة في الحدوء إلى أن تنتهى تماماً . .

كذلك اعترفت الأنخصائي النفسى بأن التوبات تصيبها عادة بعد كل معركة تنشب بينها وبين زوجة أبيها . وهى لا تنكر مطلقاً أنها تغار منها ، ولكنها تغار عن حق لا عن وهم ، فهذه العجوز الشمطاء التى تبلغ من العمر أكثر من خمسين عاماً ، وليست بها لحظة من الأنوثة أو النضارة أو الجمال ، قد عرفت كيف توقع بزواجها فى حبالها ، وأن تقيم معه علاقة جنسية آتمة حالت بينه وبين ممارسة الحياة الطبيعية مع عروسه التى لم يمض سوى عام على زواجه بها .

وتعتقد « ماريان » أن زوجة أبيها الخائنة تتعمد الإعلان عن علاقتها الآتمة ولا تحاول إخفاءها رغبة فى إحراجها بين الناس ، فكلما ذهبت لزيارتهم أو ذهبوا لزيارتها ترتدى أحسن ما لديها من الثياب ، وتسرف فى الترحيب بالزوج وقد تقابله بالأحضان والقبلات ، فى حين أنها تزدرى « ماريان » ولا تترك فرصة دون أن تسخر منها ، وتعيرها بخنونها ، وقصدها من هذا كله أن تحطمها تماماً ، كى يضطر زوجها إلى حبسها فى مستشفى الأمراض العقلية ، وبذلك يخلو الجوتماً للعاشقين الآثمين . .

وبمناقشتها فيما تقصده بأن العلاقة الآتمة التى تتصورها قائمة بين زوجها وزوجة أبيها قد حالت بينها وبين الحياة الطبيعية مع زوجها ، اعترفت بعد تردد شديد أنها منذ اليوم الأول لزواجهما لم تستطع مطلقاً أن تمارس العلاقة الزوجية ، فكلما اقترب منها زوجها تصاب بتشنجات

رهيبية يعتمدها نزييف شديد يستمر أياماً قد تصل إلى أسبوعين ، ولا تنتهي إلا بعد أن يكون قد امتص حيويتهما ، وحطم صحتها وتركها في أشد حالات الضعف البدني والذهني . .

وبعودة الإحصائي النفسي إلى تقارير الفحوص النفسية التي أجريت لها قبل الزواج وبعده على أيدي الأطباء الباطنيين والعصبيين ، ثبت أنهم جميعاً لم يجدوا فيها أى مرض أو عيب يبرر أمراضها المختلفة ، وقد عزوا متاعها كلها إلى تدهور قواها العقلية ، الأمر الذي انتهى بها إلى مستشفى المجاذيب كما سبق أن ذكرنا .

ولقد رأى ذلك الإحصائي النفسي بعينه الخبيرتين المتمرسين أن «ماريان» ليست مجنونة بقدر ما هي متعبة نفسياً .

وإذا كان التوفيق قد خان الأطباء الباطنيين والعصبيين في تشخيص مرضها ، فهذا أمر طبيعي لأن الخط الفاصل بين الانهيارات الذهنية والانهيارات النفسية في معظم الحالات يختفى تماماً إلا عن العين المتخصصة .

الحلم الخفيف

وكان لابد له أن يغوص في أعماق عقلها الباطن ليستخرج من بين طبائته العميقة الأسباب التي تؤدي إلى الحالات الثلاث الآتية :

أولاً : حالة الغيرة المرضية التي تصور لها أن زوجها يخونها مع زوجة أبيها العجوز الضامرة .

ثانياً : حالة الغضب التي تبدأ بما سمته تياراً كهربياً يسرى في

جسدها كله . وبعد أن يصيبها بضعف رهيب في رأسها تشعر معه كأن عينيها تنفزان من محجوريهما . يتراجع التيار إلى أن يتركز في منطقة أعضائها التناسلية ، وهناك يتحول إلى أكالان شديد لا يتوقف إلا بعد أن تمزق لحمها بأظافرهما .

ثالثاً : حالات التشنج التي تصيبها كلما حاول زوجها ممارسة حقوقه الزوجية معها ، وما يعتب التشنج من نزيف يعتصر الدماء من جسدها .

وكانت عملية التحليل النفسي تتطلب من المريضة أن تستلقي في أثناء الجلسة على أريكة مريحة في غرفة قليلة الضوء . وأن تحاول جهد طاقتها الاسترخاء الذي يساعدها على تهدئة أعصابها والعودة إلى الذكريات القديمة : . . . ذكريات الطفولة والصبا والشباب وما قد تنطوي عليها من المتاعب والأحزان التي تركت بصماتها الواضحة على حياة « ماريان » وكادت تذهب بعقلها . . .

لكن « ماريان » أساءت النظم بمقاصد الطبيب ، وتشككت في حقيقة نواياه ، فعارضت بعناد في الاستلقاء على الأريكة . . .

وعندما أقنعها بعد جهد شديد ، استلقت على الأريكة ولكنها رفضت الاسترخاء . وكلما حاول أن يرجع بها إلى الماضي ، تقاوم بحجة أنها لا تذكر من تلك الفترة شيئاً يستحق الرواية .

والأمر الوحيد الذي قبلت الإدلاء به هو أنها منذ عشر سنوات إلى الآن تعاني من حلم مخيف يطاردها في نومها ، ويحرمها نعمة الراحة : . . . ولأمر ما ازدادت مطاردة هذا الحلم لها بعد الزواج ، ولم تعد تمر ليلة إلا

وتستيقظ بسببه صارخة من أحلى نومة ، لكنها تعتقد أنه مجرد كابوس ولا صلة له بمصنفاً بحياتها . . .

واستدرجها الطبيب برفق إلى أن روت له تفاصيل هذا الحلم ، فقالت إنه يتلخص في شبح يهجم عليها بغية الفتك بها . وهذا الشبح ضخم يرتدى السواد ، ويربط شعره بشرائط حمراء ، ويسير نحوها على أرض من الحشائش الخضراء . . . ويأتى الحلم دائماً على هذه النشأة . . . ورغم ظروف الحياة المختلفة وأحداثها المتتابعة لا تذكر مطلقاً أنها رأت في نومها حلماً غيره ولو أمكن للطبيب أن يريخها من هذا الحلم ، لتحسنت أحوالها الصحية كثيراً ، لأن الرعب الذى يسببه هذا يحول دون عودتها إلى النوم مرة أخرى ، ويتركها طوال اليوم اتئالي منهارة القوى ، غير قادرة على التفكير والحركة . .

وأحس الطبيب بأهمية هذا الحلم فى المشكلة التى تعانىها . . فأخذ يستدرجها بهدوء ولباقة إلى ما يذكرها به هذا الشبح الأسود العملاق ، الذى يربط شعره بأشرطة حمراء ، ويسير على أرض مزروعة بالحشائش الخضراء . وبعد جهد ومقاومة منها اعترفت بأن أختها الكبرى « لويز » التى ماتت فى ريعان الشباب منذ عشر سنين — وهو تاريخ بداية الحلم الرهيب — كانت تربط شعرها بمثل هذه الأشرطة الحمراء التى تبدو فى شعرها الأسود الناعم الصقيل كأنها ورود يانعة ، كما أن الحشائش الخضراء التى يسير عليها الشبح الأسود العملاق تشبه تماماً أرض مقبرة الكنيسة التى دفنت فيها . .

وبسؤالها عن هذه الأخت ، لم تشأ « ماريا » أن تقول أكثر من أن

«لويز» كانت مثال الطيبة والجمال والبرقة والعقل . وأنها بموتها فقدت انقلب
الرحيم الوحيد في حياتها . .

وتأكد للطبيب أنه وضع أصبعه على المفتاح السري للمشكلة مريضته .
ولا بد أن تكون «لويز» هي الأصل في كل ما تعانيه أختها الصغرى .
ولكن إذا كانت الأخت الميتة بهذه الصفات الرائعة التي تسبغها عليها
«ماريان» فلماذا تظهر لها في الحلم على شكل عملاق أسود رهيب مخيف؟
وكان لا بد أن تنجلي هذه النقطة لكي تتحرر المريضة من الكابوس
الرهيب الذي يشقى حياتها ، ويفتك بصحتها .

ولكى يحدث ذلك ينبغي على الطبيب أن يدفع مريضته إلى سرد
الماضي بتفاصيله ، سعياً وراء العقدة التي كانت السبب في كل ما تعانيه
من هوس وهذيان .

وبدأ الطبيب خطته باكتساب ثقة «ماريان» ، كي يطمئن قلبها اليه
وتزول شكوكها التي تلجم لسانها وتشل ذاكرتها . . .
وعندما نجح في ذلك انحلت عقدة لسانها ، وأخذت تحادثه بقصة حياتها
من بدايتها

قصة الحياة الرهيبة

كانت «ماريان» البنت الصغرى لوالديها العاملين الكادحين . .
وقبل أن يمضي عام واحد على مولدها ، أصيبت أمها بمرض خطير
ألزمها الفراش ، وأعجزها عن القيام حتى بأبسط واجباتها ، فوكل أمر
رعايتها إلى أختها «لويز» التي تكبرها بعشرة أعوام . . . لكنها كانت مع

لأسف متخلفة عقلياً . فلم ينجح والده ، في إلحاقها بمدرسة أو تعليمها
حرفة تعيش منها . . . غير أن هذه العاهة الخضيرة لم تمنعها من رعاية أختها
الطفلة ، والعناية بها إلى أقصى درجات العناية ، مما ربط بين الأختين
بوثيق الروابط العاطفية . .

وبعد ثلاثة أعواء من المرض المستمر . . ماتت الأم في ريعان شبابها
وتركت بموتها لوعة يقلب الأختين : البلهاء والطفلة . .
ثم جاءت الضربة القالية القاسية . .

فقبل مضي عام واحد على وفاة الزوجة الشابة الوفية ، تزوج
الأب للمرة الثانية بسيدة في منتصف العمر — أو بعد منتصف العمر
بتليل . . سبق لها الزواج ولديها أولاد كبار . . خشنة اللفظ . . باردة
العواطف . . قاسية لا يعرف قلبها الرحمة .

وكانت « ماريان » الصغيرة تفتقد الأم برغم رعاية أختها وحنانها ،
فأقبلت ببراءة الطفولة على زوجة أبيها تتمسح فيها ، وتنحجب إليها ،
وتخطب ودها بكل ما تملك من حيل الطفولة وأساليبها .

لكن زوجة الأب لم تتجاوب ، وكلما اقتربت منها « ماريان »
الصغيرة أو حاولت تقبلها ، تدفعها بعيداً عنها بمنتهى الخشونة ، وتردها
عنها قائلة في غير رحمة : « لست أملك ، ولست ابنتي ، ولست
في احتياج لحبك فاغربي عني ! » .

وتنهار الصغيرة إزاء هذه القسوة ، وتشعر كأن العالم كله قد انقلب
فوق رأسها ، فتسحب ببطء إلى غرفة المطبخ ، وتجلس تحت مائدتها
تبكي وتبكي إلى أن تفرغ بدموعها جعبة أحزانها وهمومها ثم تعود إلى زوجة

أبيها غير حاقدة ولا ناقمة ، تسعى من جديد إلى استدرار عطفها ، فيكون جزاؤها الطرد دائماً .

وترى « لويزا » البلهاء ذلك فتغضب فتتال نصيبها مضاعفاً من التحقير والإهانة ، لكونها متخلفة العقل لا تصلح لشيء ، وكان ذلك يشير نفور زوجة الأب منها ويضاعف من حقدها عليها .
وتحولت حياة الفتاتين إلى عذاب دائم :

وأخذت عوارض عذابها تظهر في عودتهما إلى التبول في أثناء النوم كل ليلة ، فجن جنون زوجة الأب ، فكانت تشكوهما دائماً للأب ، وتتعاون معه على تأديبهما بالضرب والجوع والحبس في غرفة مظلمة : وإمعاناً في النكاية بهما راحت تقص على أهل الحي قصتهما ، وتدفعهم إلى تعييرهما بالتبول كلما رأوهما تسيران في الشارع ، حتى أصبحت الفتاتان تخافان الخروج من البيت إلا بالليل عندما يحل الظلام ويصعب على الجيران رؤيتهما . .

وكبرت الطفلة وبلغت السادسة من عمرها في هذا الأتون الملهب :
وكبرت أختها البلهاء ونما جسمها ولم ينم معها عقلها .
وازداد تخلفها العقلي في الوقت الذي ازداد فيه جمالها ونضجها الأنثوي ، وتأججت في صدرها مبكراً عواطف الرغبات الجنسية ، ونتيجة لبلهائها لم تكن تملك القدرة على التحكم في مشاعرها ، فلجأت إلى أختها الصغيرة تمارس الجنس معها ، وتعلمها كيف ترضيها بشتى الحيل المنحرفة ، ثم تكافئها بأن تطبق عليها أعمالها نفسها لتشبعها هي الأخرى جنسياً ، مع أنها ما زالت طفلة صغيرة :

ولفطر تعلق « ماريان » بأختها التي تولتها بالرعاية منذ بداية حياتها ،
انصاعت لرغباتها ، وبما أنها كانت أصغر سناً فلم تقدر خطأ هذا العمل
وأخطاره وتصورت أن الحياة الطبيعية بين كل أختين في الدنيا !

وسارت الأمور على هذا النحو فترة ليست قصيرة ، إلى أن ضبطتهما
زوجة أبيهما ذات يوم متلبستين ، فكانت النكبة الكبرى . . إذ تعاونت
مع زوجها على ضربهما بغاية القسوة ، وروت للجيران جميعهم
ما كان من أمرهما معاً ، فإذا بالفتاتين تطاردان بالتعير والإهانات في
الطرق ، وترميان أيما ذهباً بأفحش النعوت والصفات . :
وأتى هذا الأسلوب بعكسه تماماً . .

فقد استمر قبول الاثنتين بالليل ، كما استمرت العلاقة الجنسية
بينهما ، تمارسانها في الخفاء كلما غفلت عين الرقابة عنهما . .
ثم حدث أمر غير من اتجاه العلاقة بين الأختين وحدد مصيرهما : :
فقد أكدت لهما زوجة أبيهما في أثناء تعنيفها الدائم لهما أنهما قد
ارتكبتا بما فعلتاه معاً من الفحشاء التي لا تغتفر ، واستحققتا غضب الله
ونقمته عليهما ، ولسوف يعاقبهما المولى على ذلك في الدنيا بتشويه جسديهما ،
وحرمانهما من القدرة على ممارسة الحياة الطبيعية المشروعة ، وفي الموت سيكون
سعير جهنم مصيرهما . . .

وتركزت هذه المعاني الخطيرة في ذهن الاثنتين . :

وخافت « لويز » « البلهاء على « ماريان » الصغيرة فامتنعت عن
ممارسة الجنس معها ، وكانت إذا ضبطتها متلبسة بأية حركة غير لائقة
تقسو في زجرها وتهديدها . :

أما هي فقد قادتها غرائزها الجنسية إلى الطريق حيث الوحوش البشرية
التي ترصد كل بائسة مثلها ، وأسلمت قيادها لكل راغب في جسدها ،
وانتهى الأمر باحترافها البغاء قبل أن تصل إلى مرحلة البلوغ . .
وبدأت مرحلة عذاب جديدة في حياة « لويز » البائسة . .
فزوجة الأب حين علمت بما آل إليه حالها . راحت بمعونة زوجها
تفتن في تعذيبها على مسمع ومشهد من أختها الصغيرة الحبيبة . .
كانت تحبس البلهاء المسكينة في غرفة مظلمة وتركها أياماً دون طعام
أو شراب . .

وكانت تضربها وتضربها وتضربها إلى أن تسيل من جسدها الدماء
وتتحول كلها إلى كتلة محتقنة دامية . .
وكانت تخلع عنها في عز الشتاء ثيابها ، وتربطها إلى رجل مائدة
الطعام وتركها طول الليل نائمة على الأرض الحجرية ، حتى يتجمد
جسدها وتوشك أن تلفظ أنفاسها الأخيرة ، ومع كل ذلك كانت بمجرد
إطلاق سراحها تخرج إلى الطريق لإشباع شهوات الراغبين في جسدها .
وانتهى الأمر بالبلهاء « لويز » أن أدخلت إلى مستشفى الأمراض
العقلية ، وبعد أن قضت فيه خمس سنوات أصميت هناك بمرض خطير
قضى على حياتها ، وأراحها من العذاب ، كما أراح أهلها منها وهي في
الثانية والعشرين من عمرها ، أي في عمر « ماريان » عندما بدأت عليها
عوارض الانهيار النفسى والصحى !

وظلت « ماريان » تشهد فصول هذه المأساة الدامية ، وأخذت آثارها
المؤسفة تتراكم في عقلها الباطن وتختفى بين طياته المعقدة . .

العقد تنفجر

وعندما بلغت سن المراهقة أخذت العقد تنفجر في أشكال عجيبة متناقضة :

فلقد تركزي ذهني أنها بانصياعها لرغبات أخمها ، ورضاها بممارسة الجنس معها قد ارتكبت معصية عقابها الوحيد تشويه الجسد والحرامان من الحياة الطبيعية المشروعة بعد الزواج . .

ثم إن انشغال أخيها الكبرى عنها - حبيبتي الوحيدة التي عاشت منذ بداية حياتها في ظل رعايتها وحنانها - بالرجال وإقبالها على ممارسة الجنس معهم دونها ، واستغلالهم لبلبها وجنونها في سبيل إرضاء نزواتهم الحيوانية العابرة ، ملأ قلبها بالحقد عليهم ، وصور لها أنهم خلقوا لكي يتعمسوا النساء ويقضوا عليهن في سبيل متعتهن الشخصية . .

وأخذت أحوالها الصحية والنفسية تتدهور بسرعة . .
توقف نموها الجسدي وأصيبت بالأمراض المختلفة التي جعلتها تبدو دائماً بضعفها أصغر كثيراً من سنها الحقيقية .

نفرت من الرجال وزهدت في صحبتهم ، ورفضت عدداً كبيراً من الخاطبين ، ثم لم تلبث أن أجبرت نفسها على الزواج من شاب سبق أن رفضته مراراً ، لكنها لم تستطع أن تستمتع معه ولو بلحظة طبيعية . .
فمنذ ليلة العرس وهي تصاب بالتشنجات الشديدة إذا حاول زوجها الاقتراب منها ، ويعقب التشنجات نزيف حاد كثيراً ما كان يستمر أياماً قد تصل إلى أسابيع . .

وبتدهور حالتها الصحية تدهورت بالمثل حالتها الذهنية وجعلتها غير

قادرة على رؤية الأمور في إطارها الصحيح ، وسيطرت عليها الأوهام الكاذبة ، وتحولت في ذهنها المريض إلى حقائق أكيدة . .

وظهرت عليها عوارض الغيرة الجنونية ، وصور لها هوسها أن زوجة أبيها العجوز الضامرة القبيحة قد استولت على زوجها الشاب ، وأقامت معه علاقة آثمة ، وأولا ذلك ما حرصت على التأنيق والتظرف في حضرته . وازدادت حدة المتاعب بـ « ماريان » فأصبح الناس جميعهم أعداء لها مثل زوجة أبيها تماماً ، وتصورت كلما سارت في الطريق أن العابرين يتغامزون عليها ، ويتضحكون سخرية منها .

ولما يش زوجها من إحصلاحها لجأ إلى الأطباء فقطعوا يحنوتها وأدخلوها مستشفى الأمراض العقلية ، وظلت به حتى أشفق عليها زوجها وأعادها إلى البيت كما ذكرنا في بداية هذه القصة . .

كلمة الطبيب

ويؤكد الطبيب النفسي الذي توفر على علاج « ماريان » أنه من الحقائق العلمية الثابتة أن من طبيعة الإنسان أن يمارس في طفولته لونا من الاستكشاف الجنسي ، ففي سن معينة من مرحلة النمو الأولى يلجأ الطفل إلى إشباع حب استطلاع بالعبث والتفرج على جسده . . ثم ينتقل من نفسه إلى غيره ، فيعمل على استكشاف أجساد الآخرين من أبناء جنسه ، وبعد ذلك جسد الجنس الآخر .

وهذه الظاهرة طبيعية في جميع الأطفال ، وليس من خطر فيها

على الأطفال ما دامت تقتصر على مجال حب الاستطلاع ، وتظل دائماً في الحدود البريئة المشرقة .

لكن الخطر الأكبر يكمن في مرور الإنسان بتجربة جنسية تصدمه بحقائق الحياة وهو ما زال أصغر سنّاً من أن يدرك مثل هذه الأمور . .
فالصدمة التي يتلقاها نتيجة لذلك مع الشعور بالذنب إزاء ارتكاب الخطأ ، يفسد صحته النفسية ، ويصيبه بعقد تعطل نموه الجنسي الطبيعي ، مما يجعله في مراحل نضجه غير قادر على ممارسة مطالب الحياة . .

ويقدم الطبيب النفسي قصة « ماريان » كمثل حي لهذه الحقيقة العلمية ، وفيها نرى كيف دفعت الفتاة للبلهاء أخيراً الطفلة إلى ممارسة الجنس معها ، مما أدى إلى مواجهتها بحقائق الحياة وهي ما زالت أصغر سنّاً من أن تدرك ذلك أو تتحمل آثاره .

ونظراً لأنها عوقبت على ذلك بالطريقة الخاطئة ، وهددت بالمرض والعجز عن ممارسة الحياة الطبيعية عندما يحين أوانها . . اختلطت صدمتها بمركب الذنب ، فنتج عن ذلك أن أصيبت في مراحل حياتها التالية باضطرابات نفسية عنيفة قضت على توازنها الذهني ، كما قضت على صلاحيتها للعلاقة الجنسية بعد الزواج .

ومثل هذه الحوادث لا ترتبط فقط بالتجربة الجنسية المبكرة ، إنما هي ثمرة هذه التجربة مع ظروف أخرى تصاحبها . .

فالذي أدخل بذهن « ماريان » لم يكن علاقتها بأختها فحسب ، بل مضافاً إلى ذلك وفاة أمها بعد مرض طويل وهي لم تزل في بداية حياتها . . فقد أثرت فيها الوفاة ، واستقر في عقلها الباطن أنها حرمت من أعز الناس

إليها ، ولاحتياجها الشديد إلى الشعور بالانتماء ، وقعت تحت تأثير أختها الكبرى التي كانت لسوء الحظ متخلقة ذهنياً ، وبسبب تخلفها الذهني احترفت البغاء قبل أن تصل إلى سن البلوغ ، ثم ماتت بين جدران مستشفى الأمراض العقلية . . واكتملت صورة المحنة بقسوة زوجة أبيها وجفائها معها .

ولقد عرفت « ماريان » عندما كبرت مدى الخطأ الذي دفعها أختها إليه بممارستها الجنس معها ، ولكن هذه الأخت كانت الإنسان الوحيد الذي عطف عليها وأحبها ، فأثرت بعقلها الواعي أن تتصورها جميلة عاقلة كاملة مهذبة ، في حين أن الحقيقة العكسية تماماً ترسبت في عقلها الباطن ، ظهرت في أحلامها بشكل الشبح الأسود الخفيف الذي يحاول دائماً أن يقضى عليها . .

وبتحليل هذا الحلم نجد أن « ماريان » كانت في قرارة نفسها تحقد على أختها ، ولكنها بعقلها الواعي تغلف هذا الحقد بكل مظاهر الحب والإعجاب .

ويقول الطبيب أيضاً إن غيرتها من زوجة أبيها كانت ظاهرة فرعية لمرضها ، والأهم منها قصة شعورها بالتيار الكهربائي الذي يتركز في أعضائها الجنسية ولا يزول إلا بعد أن تمزق لحمها بأظافرهما ، فهذا في رأيه هو العقاب الخفي الذي كانت « ماريان » تنزله بنفسها على تهاونها أيام طفولتها في قداسة هذا الجزء من جسدها وطهارته . .

أما النشجات والنزيف فنتيجة لما ترسب في ذهنها منذ الطفولة من

أن ممارستها الخنس مع أختها مغضبة لله ، وأنه سبحانه وتعالى يعاقب عليها بحرمان المذنبين من القدرة على ممارسة الحياة المشروعة في وقتها الصحيح . .

ويؤكد الطبيب أن « ماريان » بعد أن أفضت إليه بدخيلة نفسها ، ورأت بمعاونته الحقائق واضحة أمامها ، استعادت قواها الذهنية بسرعة فائقة ، وانقطع عنها تماماً الشعور بالتيار الكهربائي ، كما توقفت نهائياً التشنجات والنزيف ، وأمكنها أن تعاشر زوجها بمنتهى السهولة واليسر وأن تجد في ذلك الإشباع الكافي .

وبعودة « ماريان » إلى حظيرة العقل والإدراك لم تعد تغار من زوجة أبيها العجوز الضامرة ، وتحسنت العلاقة بينهما في إطار من الود والتعاطف برغم كل ما فعلته بها وبأختها لويز أيام الصغر .

رينيه « تحنّ إلى شدي أمها !

« كيف فمّدت « رينيه » الذّاكية عقلها : وقضت ثمانى سنوات من عمرها فى عالم الحزن . . ؟
« كيف استطاعت عالمة النفس السويسرية أن تعرف أن مشكلة « رينيه » هى الحرمان من شدي أمها . . ؟

هي فتاة سويسرية في مقتبل الشباب سميها (رينيه) . تبلغ العشرين من عمرها ، هادئة ، ودیعة . حساسة ، بدأت متاعبها النفسية من الطفولة ، واستفحلت مع مضي الزمن ثم حدث الانفجار في مرحلة المراهقة . ولقد انتهى بأطبائها اليأس إلى قطع الأمل في علاجها فأودعوها مدحة للأمراض العقلية قضت فيها عدة سنين ، غير أن عالمة نفسية عرفت قصتها فتطوعت بتجربة حظها مع الفتاة . وظلت فترة من الزمن تحاول وتحاول دون ملل أو كلال حتى وصلت في نهاية الأمر إلى أصل العقدة التي أفقدت الفتاة عقلها . فلهجأت في تصفيتها بأسلوب جديد فريد في نوعه فكان الشفاء التام . . . كانت مجرد تجربة تمليها روح الأمومة الغريزية في عالمة النفسية ، ولم تكن نتيجة مضمونة على الإطلاق ، غير أن المعجزة حدثت ، وإذا بالشفاء يتحقق للفتاة التي عاشت معظم حياتها تمخبط في ظلمات الاضطرابات النفسية ومناهاات الأمراض العقلية .

« بداية » المأساة

وتبدأ مأساة (رينيه) بالسنة الأولى من عمرها . . كانت الابنة البكر لزوجين ، مثقفين ميسورين ، لديهما من المال ما يكفي لرغد العيش ، ومن العلم والأصالة ما يوفر لهما مكانة اجتماعية مرموقة . . وكان الأب والأم قد تزوجا عن حب عفيف وتفاهم تام ، ولم يمض العام الأول على زواجهما حتى رزقا بفتاة سميها (رينيه) ، أغدقا عليها ما يغدقه الأزواج المتحابون عادة على باكورة أولادهم من أبلغ آيات الرعاية والعناية . . غير أن سعادة الطفلة الصغيرة لم تكتب لها الدوام مع الأسف ،

فبعد وقت قصير فوجئت الأم بأنها حامل لمسرة ثالثة ، واضطرت إلى
 قطعها فجأة وبلا تدرج ومنعت عن نفسها . واستبدلت به في تغذية
 الفتاة الزجاجة ثم الكوب .. وكانت هذه أول وأخطر صدمة عاطفية تلقاها
 الفتاة الصغيرة ، التي لم تكن شبع عاطفياً بعد من ثدي أمها ، فجاءها
 الحرمان منه بمثابة الضربة القاضية . . ولصغر سن (رينيه) وقصر إدراكها
 لم تستطع بطبيعة الحال أن تعبر عما في نفسها أو تفهم معنى ما حدث ،
 أو تجد مسوغاً له ، فترسبت عقدة الحرمان مبكراً في قنطرة عقدها الباطن ،
 واختلعت بين تلافيفه المعقدة لتزداد حدة بما حدث بعد ذلك عندما ولد
 الطفل الثاني ، وعكفت الأم على إرضاعه مدة طويلة من الزمن ، وتلاه
 إخوة آخرون لم تحظ (رينيه) بمثل ما حظوا به من رعاية الأم واهتمامها . .
 وبموال الطفل الثاني أخذت أحوال (رينيه) تتغير ، فنجأت إلى ممارسة
 عادات لم تكن تعرفها من قبل ، منها مص أصبعها بالليل والنهار ،
 كذلك التبول على نفسها بعد أن انقطعت تماماً عن ذلك . . ولم يفهم
 الوالدان سبب هذا التغير ، وتصمرا له لوذاً من التمرد والعصيان . فلبتاً إلى
 الشدة . والزجر وكثيراً ما وصل الأمر إلى حد القسوة . غير أن غضبهما
 وتأنيهما وزجرهما ذهب أدراج الرياح ، وكان أثره عكسياً إذ ازدادت
 الطفلة انغماساً في هذه العادات السيئة . مما ضاعف ثورة للوالدين عليها
 نظراً لأنها كانت غاية في الذكاء . . سريعة الفهم . . قوية الملاحظة . .
 متفوفة في دراستها ، لا يمكن أن يلتبس لها عذر في ممارسة العادات السيئة
 وعصيان توجيهات أهلها . . ومرت الأيام و (رينيه) تكبر فتكبر معها
 متاعبها الدفينة . . وشاءت الظروف أن تضيف جديداً إلى أسباب قلقها

واضطرابها . وكان ذلك بالخلاف اخاذ الذي دب بين الزوجين المتحايين ، فأطاح بهدوء البيت وحرم الأبناء وعلى رأسهم «رينيه» من الشعور بالاستقرار والطمأنينة . . . وباحتدم الخلاف ازداد غياب الأب عن بيته وتضاعف شقاء الأم وبكائها ، ثم كانت الضربة القاضية على الفتاة الحساسة عندما اشتبك والدها في معركة قبيل خروجها إلى المدرسة ذات يوم ، وأخذ يتراشقان بالشتائم واللاتهامات المختلفة ، وكان عمرها في ذلك الحين اثني عشر عاماً .

وفهمت من سياق الكلام أن أباهما على صلة بامرأة غير زوجته ، وسمعت أمها تصرخ في وجهه مهدة بأنه لو تركها فسوف تعاقبه بقتل نفسها . . . وبهذه الأقوال المخيفة التي سلبتها البقية الباقية من استقرارها النفسي أخذت متاعبها النفسية تتفجر بالتدرج .

«أوهام غريبة»

وكان من عادة الابنة (رينيه) أن تختصر الطريق إلى مدرستها بالسير عبر بستان صغير تشعر بمتعة المرور بين أحضانها كل يوم في ذهابها وإيابها . . . لكن الذي حدث في ذلك الصباح المشؤم أن فوجئت الفتاة بالحقل يتسع حولها ويصبح بلا بداية أو نهاية ، وخيل إليها أن الأشجار المزروعة تشع أضواء باهرة تخطف بصرها ، وأنها قد كبرت في حجمها وتوحشت في شكلها وتحولت إلى ما يشبه الأشباح المرعبة . . . وانتابها دعر بالغ ، ولم تعرف كيف تسير أو أين تذهب ، وظلت تطوف بالحديقة مرات حتى عثرت على مدرستها . لكنها وجدت المدرسة قد تغيرت بالمثل وأصبحت

كانسجن كبير الخياط بالأسلاك المشددة . وبدأ هذا زملاؤه التلاميذ لصغار مثل المساجين المتعساء بحرمانهم من حريتهم ، وحملت هذه الأوهام المفاجئة الفتاة بعيداً عن الواقع ، فخيل إليها حين دخلت المدرسة وانضمت إلى زملائها أنها قد تحولت هي أيضاً إلى سجين ، فتشبثت بأسوار الثمناء وظلت تراقب العالم الخارجى وهى فى ذعر قاتل يكاد يفقدها رشدها . . لكن هذه الحالة ذهبت بسرعة مثلما جاءت ، ولم تلبث (رينيه) أن ارتدت إلى دنيا الواقع ، ولفرط خوفها من أن تعاودها النوبة تناسها عامدة ورفضت أن تعيد التفكير فيها أو تحدث بها أحداً . . لكن المحنة تكررت مراراً فى أوقات متباعدة :

وفى كل مرة كان الشعور بالاتساع يزداد حولها ، والأضواء الباهرة تتضاعف أمام عينيها ، والإحساس بالخوف من الضياع يزداد بمحضته ضغطاً على قلبها :

وكان يحدث أحياناً أن تفاجئها هذه النوبات وهى فى صحبة زميلة لها ، فتتشبث بذراعها وترفض تركها خشية أن تتوه إذا ابتعدت عنها . . وتثور الزميلة على هذا السلوك الذى لا تجد له مبرراً من صديقتها ، فتنهرها وتتهمها بالخشونة والأنانية والرغبة فى الاستئثار بها على حساب وقتها ومصلحتها . . وفقدت (رينيه) صديقات وصادقات بسبب هذه الحالة . . ثم ازداد تقدم عندما تطورت النوبات ، وأصبحت ترى زملاءها وزميلاتها فى بعض الأحيان يتحولون فجأة إلى ما يشبه الوحوش الضارية . ولقد جاء هذا الوهم أول مرة وهى تلعب مع زميلاتها لعبة نط

الحبل وكن . أربع فتيات : اثنتان منهن تشدان الحبل . واثنتان تقفزان فوقه متقابلتين .

وبينما كانت (رينيه) سعيدة غاية السعادة بهذه اللعبة وحن دورها في القفز ورأت زميلاتها مقبلة عليها من الناحية الأخرى ، خيل إليها فجأة أن هذه الزميلة قد تحولت إلى أسد ضار يكشف عن أنيابه استعداداً لافتراسها.. وصرخت الفتاة مذعورة . وبفعل المفاجأة فقدت سيطرتها على نفسها فصارحت زميلاتها بأوهامها . الأمر الذي أثار غضبين عليها ، ودفعين إلى الانتمضاض من حولها . . . وعندما تكررت هذه الأوهام في ألعاب أخرى اعتبرها الجميع مجنونة ، وطاردتها السخرية من كل جانب وحرمتها الصداقة والمحبة ، مما أدى إلى انعزالها في خلال فترات الفسحة واكتفائها بالوقوف بجوار سور الحديقة ، تتأمل الاتساع الخفيف في الخارج وتتصور أن الريح تصرخ غاضبة في وجهها . . . والعجيب أنها ظلت برغم كل ذلك متفوقة في دراستها ممتازة في علومها ماهرة في خدمة أسرتها في البيت ، وكثيراً ما كانت الظروف تضطرها إلى القيام بجميع الواجبات المنزلية وتكنس وتذاكر لإخوتها وترعاهم رعاية الأم الرؤوم الرحيمة . . . غير أن نوبات الضياع والأوهام ازدادت عليها حتى لم يعد في الإمكان السكوت عليها ، فاجأ أهلها إلى الأطباء ونقلوها من عيادة إلى عيادة ، ولما أخفقت محاولات العلاج وبدأ أن تدخل الطب قد زادها سوءاً على سوء، ارتكب الوالدان غلظتهما الأخيرة المدمرة فأودعوها مستشفى للأمراض العصبية يقوم فوق جبل بعيد عن البلدة التي تعيش فيها أسرتها . . . وبدخولها المستشفى فقدت (رينيه) ما تبقى من إحساس بالواقع وأصبحت بمخاوفها

الشديدة تعيش حبيسة غرفتها لا تكلم أحداً ولا تسمح لأحد بأن يكسبها ما عدا الأطفال الصغار من نزلاء المستشفى : فقد أبدت عطفاً شديداً عليهم : واهتماماً بأمرهم : ولم تكن تترك غرفتها إلا لتواسيهم أو تلاعبهم أو تعلمهم مبادئ القراءة والكتابة . . وأبدت رغبة في الحصول على « دمية » بحجة رغبة في إهدائها إلى أختها الصغرى : ولكنها احتفظت بالدمية لنفسها : وراحت تعاملها معاملة الطفل الحي . . تحنو عليها وتغطيها في الشتاء وتغلق قبل النوم النافذة عليها : خشية أن تمرض الدمية من البرد أو تتأذى : وبصحبتها هذه « الدمية » غابت « رينيه » عن الواقع تماماً وعاشت في عالم من الأوهام التي لا تشاركها فيها سوى أشباحها ومخاوفها من دنيا الناس ومن فيها . . وانقطعت عن تناول الطعام تماماً بحجة أنه لا يصلح لها : وإذا أكلت منه يقتلها : وأصبحت تعيش على ما تقمات به من فاكهة التفاح التي تنمو في حديقة مزارع يسكن بجوار المستشفى .

ففي كل صباح كانت تستيقظ مبكراً وتسلل لحديقة الحار وتقطف خلسة بضع تفاحات تأكلها بنهم شديد . . وتظل قانعة بما أكلته إلى أن تحين الفرصة مرة أخرى وتسرق التفاح من جديد وتقطفه بيدها وتعالج به الجوع الذي يكاد يفتك بها . . وانهارت صحتها تماماً واستبد بها الضعف إلى درجة أصبحت تهدد حياتها : ولما خابت حيل المستشفى في تغذيتها بالأساليب الطبيعية اضطر الأطباء إلى حقنها بالمواد المغذية مثل الكالسيوم والجلوكوز والفيتامينات المختلفة .

« الطيبة وغريزة الأمومة »

وترددت في الأوساط العلمية قصة «رينيه» واعتبرها الأطباء حالة ميثوساً منها تماماً : إلى أن سمعت بها عالمة النفسية الدكتورة «مارجريت سيشيني» فتقدمت تطلب السماح لها بمحاولة علاجها . . . والعجب أن الطيبة اعتمدت تماماً على غريزة أمومتها، وبدأت بأن عاملت الشابة اليافعة معاملة الطفلة الصغيرة . فكانت تكلمها بلغة الأطفال المقتضية . وتجاريها في عقليتها : إذا اشتكت من الرياح التي تريد افراسها . تفتح النافذة وتشم الرياح وتأمرها بالابتعاد عن «رينيه» الحبيبة .

والمدحش أن الفتاة كانت تهدأ عندئذ لفورها ويزول خوفها من الرياح ، وتتصور أن طبيبتها — التي اختارت منذ ذلك الحين أن تناديها «ماما» — هي أمها الحقيقية قد أبعدت عنها الأرواح الشريرة . . . كذلك فعلت الطيبة بجميع المخاوف الأخرى ، فإذا تصورت الفتاة أن ممرضتها قد تحولت إلى أسد تصرخ في وجه الممرضة ، وتأمرها أن تعود فوراً إلى الشكل الإنساني ، فإذا بوهم المريضة ينقشع وخوفها يزول وتعود لترى الناس والأشياء على حقيقتهم . . . وبالتدريج استطاعت الطيبة بهذه المعاملة الحانية التي تلائم عقلية الأطفال الصغار أن تقضي على جميع مخاوف «رينيه» التي كانت قد بلغت عندئذ العشرين من عمرها وتردها بالتدرج إلى عالم الواقع . . . وبرغم النجاح العظيم الذي أحرزته الطيبة في علاج «رينيه» ظلت مشكلة الطعام قائمة، وبقيت الفتاة على عنادها

لأنّا كل إلّا التفاح الذى تسرقه بيدها من حديقة جارهم . . . ثم وقع حادث عقد الموقف . فقد ضاق الحمار بالنص الخفى الذى يسرق تفاحه وتربص له حتى قبض على الفتاة متبسة . . . ولم يكن يعرف قصة مرضها فأنبها واشتد فى زجرها وهددها بتسليمها للشرطة إذا عادت إلى فعلتها . . . وفقدت « رينيه » مصدر الطعام الوحيد الذى تسمح بدخوله فى جوفها . . . وعبثا حاولت الطيبة أن تقنعها بصحن عامرة بأفخر أنواع التفاح المشتري من السوق، لكن الفتاة آثرت الصوم ورفضت الطعام بحجة أنها محتاجة إلى التفاح الحقيقى الذى تقطعه بيدها من الشجرة - لا التفاح الصناعى الذى يأتونها به فى الصحن كل يوم .

وعندما سئلت ذات يوم : كيف يكون هذا التفاح الحقيقى؟ إذا بها لأول مرة تشير : إلى ثدى طبيبتها وتقول : مثل هذا . . . وتكشفت المحنة أمام العاملة النفسية البارة، وعرفت حقيقة العقدة التى أطاحت بعقل « رينيه » الذكية وانتهت بها إلى مستشفى الأمراض العقلية . . . وقررت أن تستمر فى علاجها بنفس الأسلوب، فكانت تأخذها فى حضنها وتجلسها فى وضع الطفل حين يرضع من أمه، ثم تودع التفاحة فوق ثديها، فإذا بالفتاة تغمض عينيها وتأكل وتأكل حتى تشبع تمامًا، وكأنها ترضع ثدى أمها . . . واستمرت الطيبة على هذا الأسلوب، ثم تدرجت منه إلى تغذية الفتاة بوسائل الأطفال، وأدخلت عليها الأطعمة بالتدريج مثلما نفعل مع صغارنا، إلى أن وصلت بها إلى مستوى الكبار، فإذا برينيه تتحول إلى شابة عاقلة وتعود بكامل قواها الذهنية إلى مرحلة الشباب التى بلغتها . . . وشفيت الفتاة تمامًا بعد ثمانية أعوام عاشتها فى عالم المجانين . . . والأروع من ذلك أنها كتبت قصتها بنفسها وقدمتها للنشر مضافًا إليها رأى طبيبتها

« حب الأم »

وتقول الطيبة في وصف حالة الفتاة: إن الحب الأول والأكبر في حياة كل إنسان هو حبه لأمه ومهما قيل في انجياز مشاعر البنت نحو أبيها ومشاعر الولد نحو أمه . فهذه اتجاهات عارضة تنتهي بمرحلة معينة من العمر ، ولا تنال من مكانة الأم أو تضعفها ولو قليلا

والطفل إذا حدث وشعر بالحرمان من حب الأمومة ، يتوقف نموه العاطفي حتى لو استمر نموه العقلي والجسدي وأمثال هذا الطفل يصابون باضطراب نفسي شديد يتطلب في علاجه أن يعمل الطبيب على الارتداد بالمريض إلى مرحلة الطفولة وتعويضه عن خسارته لتحقيق ما يسمونه البعث العاطفي .

ورينيه هي أصدق مثل لهذه الحالة ، فتوقف أمها عن إرضاعها قبل أن تنال الطفلة كفايتها أصابها بصدمة عاطفية شديدة ، تصورت معها أن أمها تكرهها ولا تريد أن ترضعها لأنها لا تحبها .

ومادامت أمها لا تحبها فمعنى ذلك أنها فتاة شريرة لا تستحق حتى محبة نفسها أو رضاها . وبناء عليه فهي ليست أهلا للحياة ، ويجب أن تموت ، فوجودها في عالم كبير معاد لها لا قيمة له ولا فائدة منه ومن هنا جاء امتناعها عن الأكل كتعبير عن رغبتها في القضاء على نفسها ، ومن هنا أيضاً جاء شعورها بالضيق وسط اتساعات شاسعة ليس فيها سوى القوى المعادية التي تريد أن تعاقبها على كراهية أمها لها .

وفي وسط هذا الإعصار النفسي الشديد كانت الطفلة المحرومة

«رينيه» التي ظلت تسيطر على شخصية الفتاة حتى بلغت العشرين من عمرها تبحث عن أم بديلة . . . أم ضيعة . . . أم رحيمة . . . أم لا تكرمها ولا تحرمها من ثديها بل تحبها وتعطيها وتحنو عليها . . . وعندما وجدت العطف الأموى الصحيح في طبيبتها تعلقت بها وارتبطت تمامًا باعتبارها الأم البديلة التي ظلت في متاهات مرضها إلى العثور عليها . . . وهذا الارتباط منح الفتاة بعض القوة بحيث استطاعت أن تعبر عن احتياجها إلى ثدى أمها بسرقة التفاح من الشجرة .

والشجرة هنا ترمز إلى الأم . . . واكتفاؤها بما تأخذ بنفسها منها مثلما يقبل الطفل بمحض إرادته واختياره على ثدى أمه . . . واعتبرت ما يأتون به إليها هو غذاء صناعي مثل الزجاجاة أو الكوب التي كان اللبن يقدم إليها فيها بعد فطامها المبكر . . . وكانت الوسيلة الوحيدة للأخذ بيدها عبر متاعبها العقلية ، أن تعود بها الطيبة إلى بداية حياتها ، وأن تقودها عبر دنيا الأوهام والتصورات الخاطئة إلى عالم الحقيقة عن طريق إشباعها عاطفيًا بإعطائها ما حرمت منه في المراحل المبكرة من عمرها . ولقد نجحت الأم البديلة بإجلاسها على حجرها وإطعامها التفاح من صدرها في أن تهيب لها جوارًا رمزيًا يشبع فيها جانب الحرمان الذي يسير بها خطوة خطوة عبر مراحل العمر المختلفة إلى أن وصلت بها إلى المرتبة العاطفية الذهنية اللائقة الملائمة لفتاة باغت العشرين من عمرها . .

ولقد ارتكب الأهل في هذه القصة أخطاء غير مقصودة، ولكنها دمرت نفسية الطفلة الحساسة ، وأول هذه الأخطاء أنها حرمت من الرضاع قبل الأوان فجأة وبدون تدرج .

واو كانت أعدت هذا الفطام على مراحل معقولة ما أصابها شيء من أخطاء الإعصار النفسى الذى أضاع عليها السنوات العشرين من عمرها

والغلطة الثانية أنها حين عادت إلى مص أصبعها والتبول على نفسها . وكانت هذه التصرفات هى النذير الأول بالحنة التى تعانيتها . . لم ينتبه أحد إلى خطورة الحالة ، واعتبرها والداه عاصية متمردة ، فلجأ إلى القسوة فى زجرها وعقابها بدل أن يضاعفا حنانهما عليها ويطلبوا مشورة الإخصائيين النفسين فيما دعا إلى العودة إلى ممارسة عادات كانت قد أفلتت تمامًا عنها .

ولا شك أن الزجر والعقاب والقسوة ضاعفت فى نفسية «رينيه» الشعور الذى أدى إلى الحرمان العاطفى ، وسلبتها طفولتها ، الأمر الذى دفعها فى شبابها فى أثناء وجودها بالمستشفى إلى أن تتمسك بالدمية التى تمثل لها طفولتها وأن تسبغ عليها من الرعاية والعناية ما لم يسبغ عليها . والغلطة الثالثة أن الأوهام والخاوف حين استبدت بها وصورت لها الناس فى شكل الوحوش والدنيا قد اتسعت من حولها ، وهى ترجمة لشعورها بالضيق وإحساسها بالذنب إزاء ما قد توهمته من كراهية أمها لها ، اعتبرت مجنونة وأرسلت إلى مستشفى الأمراض العقلية ، وأبعدت عن بيت الأسرة مأواها الوحيد الحبيب الذى كانت تبحث بين ثناياه عن العطف والمحبة ، فحرمت بذلك آخر خيط عاطفى يربطها بأهلها أحب الناس إليها وأقاربهم على إحاطتها بأسباب الثقة والحماية .

وتؤكد الطبيبة أن عقدة الفطام المبكر المفاجئ كان من الممكن جدًا

أن تبقى هادئة في نفس الفتاة لو أن الأم استعانت بالحكمة وعرفت كيف تسيطر على غضبها في معاركها مع زوجها وحرصت على عدم التهديد والانتحار إذا تركها إلى المرأة الأخرى . . . فالرعب البشع الذي أصاب « رينيه » الحساسة مما قد يحدث لها إذا فقدت أمها هو المسئول الأكبر عن تفجير المحنة النفسية بهذه الصورة العنيفة .

أستاذة الجامعة تحقّر نفسها .. ١

« لماذا أصيبت « شارون » مدرسة الجامعة الذكية بكل هذه الأمراض النفسية ؟ كيف كانت تحقّر ذكاءها وترى نفسها رمزاً للغباء ؟ وكيف أصبحت تنفر من المجتمع ، ولا تستطيع أن تنطق بكلمة بين الأصدقاء ؟ . . . لماذا صارت في نظر نفسها أقبح القبيحات ؟ إن قصة « شارون » هي قصة الطفولة التعسة التي ينبغي أن يقرأها كل الآباء والأمهات .

كثيراً ما نسمع أشخاصاً على درجة عالية من الفهم وحسن الإدراك
يقعون في نقد من يلجأ إلى الطبيب النفسي طلباً للعلاج ، ويقولون في
عجب واستنكار : كيف يلجأ الإنسان المتعلم العاقل إلى الطبيب النفسي ؟
أليس لديه من الذكاء ما يؤهله لحل مشاكله بنفسه ؟ !

هذه فكرة شائعة ، غير أنها فكرة خاطئة . إذ لو كان الذكاء يكفي
لحل مشاكل النفس لما أصيب أحد بمتاعب عاطفية ، ولعشنا جميعاً في
سعادة غامرة . . . فإعلم يؤكد أن الذكاء وحده مهما بلغت من الارتفاع
درجته ، لا يكفي مطلقاً لعلاج الأمراض النفسية المترتبة على الاضطرابات
العاطفية ، ذلك لأنه لا علاقة بتاتاً بين القدرة الذهنية والصحة النفسية ،
ولن يشكون في صحة هذا الكلام نقدم اليوم قصة لامرأة في عنفوان
الشباب . . . تبلغ الثلاثين من عمرها ، وقد حصلت على أعلى درجات
الثقافة بتفوق عظيم . . . تعلمت بجامعة أكسفورد ، وكانت عند تخرجها
أولى دفعتها ، فعينت مدرسة بإحدى الكليات التابعة لهذه الجامعة ،
وشهد جميع رؤسائها وزملائها أنها غاية في الكفاءة ، وطريق التقدم
واسع أمامها ، ولسوف تصل بمواهبها إلى أعلى مراتب الأستاذية وهو ما لم
يتأت للكثيرات من بنات جنسها . . .

ولعلنا نتفق على أن امرأة بهذه الصفات لا يمكن إلا أن تكون على
مستوى رفيع جداً من التفوق الذهني ، ولو كان في مقدور الذكاء أن
يعالج متاعب النفس - كما يعتقد بعض الناس - لما احتاجت مثل هذه
السيدة إلى أية معونة خارجية . . .

لكن الواقع غير ذلك . . فقد لحأت ، شارون ، ذات يوم إلى الطبيب النفسى وهى فى حالتها محزنة من اليأس البالغ والانهييار التام . . .
 وقبل أن يسألها عما بها انفجرت تقول بانفعال شديد : ربما تتصور نظراً لشهادتى العلمية العالية ووظيفتى الجامعية الممتازة - أننى امرأة ذكية قديرة كفء . . لكن الحقيقة هى العكس تماماً . . فأنا فى الحقيقة غاية فى الغباء ولا أصلح مطلقاً للقيام بمهام وظيفتى . . لو بحثت فى هذه الدنيا الواسعة العامرة بالناس لما وجدت من يضاهينى فى قبح الإخفاق الذى أتردى فى مهاويله . . وكل ما استطعت أن أنجح فى عمله إلى الآن ، هو إخفاء غبائى وإخفاؤى عن الآخرين . . لكن الخداع ان يطول ، فمن قريب يعرفون الحقيقة ، فيجدون أننى لا أستحق المرتب الذى أتقاضاه ، فيفصلوننى . . لسوف يحدث ذلك قريباً ، فترتاح نفسى برغم ما سيؤدى إليه الفصل من القضاء على حياتى ومستقبلى . .

وسألها الطبيب عما يدعوها إلى إصدار هذا الحكم الرهيب على نفسها ؟
 فقالت وقد ازداد انفعالها : « إننى لا أستطيع أن أعطى عملى حقه من الإتيقان . . ليست لدى القدرة على ذلك . . فشكلى الكبرى تنحصر فى عقلى المصاب بالغباء والركود . . وبسبب تخلصى الذهنى أصبحت مخلوقة تافهة لا أصلح لشيء فى الدنيا . . فحتى حياتى الخاصة التى أعيشها خارج العمل عبارة عن مأساة من مآسى الإخفاق الذريع . . ليس لى أصدقاء ولا صديقات لأننى غير أهل لصحبة النساء والرجال على السواء . . فمن عيوبى الجسيمة عجزى التام عن الحديث المفيد الشائق . . . إذا جلست فى جمع من الناس أتحوّل إلى بكماء . . .

وكثيراً ما أضغط على نفسي وأبذل جهداً في التخلص من بكى . عندئذ أجدنى أقول الأشياء الخطأ . . الحمل السخيفة والتعليقات الغبية البائدة التى تنفر الناس من صحبتى وتبعدهم عني . . ويعلم الله كم حاولت أن أدرب نفسي على الكلام ، لكن محاولاتي جميعها ذهبت هباء . فبمجرد أن أجد نفسي في صحبة الآخرين يصيبني نوع من الشلل الفكرى . . أحس بأن رأسي قد أصبح فارغاً تماماً من كل شيء حتى الحمل التى سبق أن أعددتها بدقة وحفظتها عن ظهر قلب لهذه المناسبة . .

وسكنت « شارون » دقيقة لتلتقط أنفاسها ، ثم عادت تقول : « لا . . لا أظن أننى نجحت في إخفاء غبائى وبلادة ذهنى كما يتصور لى . . لا بد أن يكون عميد الكلية وبقية أعضاء هيئة التدريس يعرفون الحقيقة ، والذي يدهشنى حتمًا أنهم مازالوا صابرين على وجودى بينهم . . لكن للصبر نهاية ، ولسوف يغلبون قريباً على أمرهم ، فيضطرون إلى طردى من العمل . . عندئذ تكون الطامة الكبرى . فإذا لا أصلح لآى عمل آخر ... لأننى لا أملك سوى فضيلة واحدة وهى قوى البدنية ... قوة عضلية تجعلنى لا أفترق عن الثور أو الحمار فى شيء . . والعمل الجامعى لا يحتاج إلى هذا المؤهل الحيوانى الرخيص . . فأرجوك أن ترشدنى إلى التصرف السليم : هل ترى من واجبى أن أستقيل من الجامعة إرضاء لضميرى الذى يعذبنى لاستمرارى فى أخذ مرتبى مع علمى بعجزى عن القيام بواجبى ؟ . . لست أدري كيف بلغ بى الغباء أن اخترت سلك التدريس الجامعى . . كان منتهى الجحود أن تركت والدى المسكين يتحمل نفقات تعليمى فى الوقت الذى كنت أعرف فيه تماماً أننى

لا أصلح لشيء . . . إننى فى حيرة قاتلة : إذا استقلت أصيب والذى
بصدمة رهيبة بعد طول توضحياته فى تعليمي . . وإذا بقيت أكون غشاشة
محتالة عن قصد وسبق إصرار . . ألا ترى معي أن أبواب الدنيا كلها
موصدة فى وجهي وطريق الخلاص مسدود أمامي ؟ !

وعندما سألت الطبيب عما إذا كانت تشعر أن أحداً فى هذه الدنيا
يحبها . قالت : « لا أنكر أن أبى يحبني لذلك أكره أن أخذله . . لكنه
يحبني لأنه مخدوع فى ولا يعرفني على حقيقتي . . على كل حال ليست
لدى فرصة للاستمتاع بحبه هذا . فهو يعيش فى بلد بعيد . وأنا أتمكن
وحدى فى غرفة مفروشة . . وحتى لو كان قريباً مني لما أحس بي .
لأنه رجل حالم يعيش فى عالم من أفكاره الخاصة . . أما الرجال الآخرون
فأنا محرومة تماماً من صحبتهم . . لا يمكن أن أثير فيهم أدنى اهتمام بي ،
فصيتي أنى لست غبية فقط بل دمية أيضاً . . شكلي قبيح ومجردة
من أبسط معاني الجاذبية الجنسية . . حقيقة أن دميات كثيرات يتزوجن
لكنهن يملكن شيئاً لا أملكه . . ومعرفتي بهذه الحقيقة المحزنة تخيفني
من مقابلة الرجال ، وإذا فوجئت بوجود واحد منهم أصاب بجمود رهيب
يزيدني قبحاً على قبح . . هذا حرام . . أنا بشر . . من حقى أن أحب
وأن أكون محبوبة . . وليس من العدل أن أحرم من نصيبى الإنسانى
المشروع فى أن تكون لى أسرة مثل غيرى من الناس . . وربما يكون
خطأً فادحاً أن أبوج بمشاعري هكذا ، وأطمع فى احتياجات عاطفية
لنفسى برغم يقينى بأن واجبات العمل هى الأمر المشروع فى الحياة :
لكنى لحى ولم يعد فى مقدورى الرضا بما أذا فيه . »

بهذا الحديث الصريح تكشفنا محنة «شارون» واستطاع الطبيب أن يرى بوضوح الاضطراب النفسى الذى تعنيه تلك المدرسة الجامعية المرموقة ، وكيف أن هذا الاضطراب قد أصابها بأعنف حالات مركب النقص الممتزج بمركب الذنب ، فهى لا تحتقر نفسها وتستصغر شأنها فقط ، بل تعتقد أيضاً أنها بغائثها وركود فكرها وعجزها الومى عن القيام بواجبها المهنى قد ارتكبت جريمة لا تغتفر فى حق الجامعة ، بل وفى حق كل من آمنوا بذكائها وقدرتها . .

كان لابد للطبيب أن يغوص فى قرارة عقلها الباطن لكى يصل إلى جذور شجرة البؤس التى توشك أن تدمرها صحياً وعقلياً واجتماعياً . . وأن يعود إلى ذكريات حياتها منذ طفولتها لكى يطفو بما فيها من محن تربوية إلى عقلها الواعى ، وبذلك يكشف لها الستار عن حقائق الأمور التى اختلط عليها فهمها ، فكان جزاء ذلك أن أصيبت بهذه الحالة العنيفة من الاضطراب العاطفى .

ولم تكن عملية استدراجها إلى الماضى بالأمر اليسير . . فقد أبدت «شارون» مقاومة عنيفة بذل الطبيب فى علاجها جهوداً جبارة . . وبعد جلسات كثيرة فاشلة نجح الطبيب فى دفعها إلى الكلام عن أيام الصغر، عندما كانت تعيش فى بيتها هائلة بحب والديها ومربيها التى أحسن اختيارها لكى تقوم برعايتها . . كانت «شارون» أولى الأبناء الذين رزق بهم والدها فاستأثرت فى خلال السنوات الأولى من عمرها بغاية حبهما وحنانهما ، وبفضل يسرهما المالى ودخلهما الوفير تنعمت بكافة ألوان الرخاء والرفاهية .

لكن هذا العهد الذهبي لم يستمر .

فبعد سنوات معدودات من مولد « شارون » رزقت أمها بصبي تحققت به آمالها الدفينة في أن يكون لها ابن ذكر يقف بجوارها في مواجهة الحياة ، ويعين أباه في شيخوخته ، ويخفف عنه أعباء العمل . وجاء الطفل لطيفاً حلواً الشمائل ، فاستحوذ على قلب أمه ، ولم يترك بذلك القلب مكاناً ولو صغيراً لأخته الكبرى « شارون » التي ظلت إلى حين مولده قرة عين والديها . .

وبعد أن كانت تجلس على عرش المحبة في أسرتها باتت وأصبحت تجرد نفسها محرومة من جميع ما كانت تستمتع به من قبل . فقد شغل والداها عنها بالطفل الجديد ، كما شغلت مربيتها برعاية الصبي والسهر على خدمته . .

وتصورت الفتاة بإدراكها الساذج الغرير أنها لم تعد مرغوباً فيها ، وأن الأحباب القدامى قد تحولوا إلى أعداء ، فأغراها ذلك الموقف بالتمرد على أمها ، وعصيان أوامرها ورغباتها على سبيل الانتقام لنفسها من المرأة التي هجرتها وأغلقت أبواب قلبها دونها . .

وأخذت الأم الأمور بظواهرها ، واعتبرت ابنتها مخلوقة شريرة فقست في معاملتها ، وحرمتها على سبيل التأديب من لذائد الطفولة المختلفة ، ولم تكن تتحرج عندما تتأزم المواقف بينها وبين الطفلة الصغيرة إلى ترويضها بالعقوبات البدنية التي كانت تضاعف شعور الصبية بالمهانة ، وتدفعها إلى الانتقام لكرامتها بمزيد من العصيان والشقاوة . .

وعندما وصلت « شارون » في سرد ذكريات طفولتها إلى هذا الحد ،

سألها الطبيب عن موقف أبيها من قسوة أمها عليها . ولماذا لم يتدخل إذا كان حقيقة يحبها كما زعمت له في البداية . فقالت في محاولتها اللاشعورية لتسويغ تصرفاته حفاظا على وهم الحب الذي صنفته بخيالا على سبيل الترضية لكبريائها : « لست أدري ما كان يجرى بينهما بسببى . إذ لم يكن من عادتهما أن يظهر خلافا لهما في حضرتنا . . غير أنى وثيقة بأن حبه لى لم يتغير . وأعتقد أنها كانت تغضب لما يبدية من حنان على . . برغم أن فرصة إظهار ذلك الحنان كانت ضئيلة بسبب غيابه المستمر عنا وميله إلى الصمت والتأمل أثناء الفترات القصيرة التى يقضيها معنا . . وبذلك حكمت الظروف بأن أترك وحيدة فى مواجهة أسمى المشغولة عنى بأخى الأصغر الذى شاء حظه السعيد أن يكون ذكيا مرححا سريع البديهة جميل الشكل لبقا فى أحاديثه . . وكنت كلما رأيتهما تزداد إقبالا عليه ، أزداد بدورى غضبا ونقمة فأمعن فى عصيان الأوامر ، وأتعمد تحطيم كل ما تقع عليه يدى من الأشياء المحبوبة لأسمى ومربي . . لكنى تغيرت بمضى الوقت ، فعندما ما كبرت اقتنعت بأنهما على حق فى كراهيتى فلست أملك شيئا يستوجب الحب . . فأخى كان صبيا وأنا فتاة . . جميلا وأنا دميعة . . ذكيا وأنا غبية . . ومخلوقة تافهة مثلى ليس من حقها أن تطمع فى حب الآخرين واهتمامهم بها . . وبإدراكى هذه الحقيقة كففت عن العناد والعصيان وتوقفت تماما عن تحطيم الأشياء والعريضة ، وآمنت بصحة ما كانت تقوله أسمى لى دائما : « لا تطلب شيئا لنفسك ، فأداء الواجب هو عماد الحياة الشريفة ، أما المطالب الذاتية والاحتياجات الشخصية فخروج على مبادئ الشرف ومغضبة لله »

ومضت «شارون» في سرد قصة حياتها ، وكيف أنها - بعد أن اقتنعت بعدم جدارتها بحب الآخرين نتيجة لتخلي أحب الناس عنها - بدأت دون أن تشعر إلى التركيز على دراستها فإذا بها تتفوق باستمرار ، وتحتل دائماً مكان الصدارة في امتحاناتها ، فإذا بوالدها يوم بهذه الناحية فيها ، ويشجعها على المضي في طريقها الدراسي إلى أن التحقت بجامعة أكسفورد، وبفضل تفوقها نالت منحة دراسية محدودة.. وما إن علم والدها بالمنحة حتى توقف عن الإنفاق عليها معتبراً أن الجنيحات القليلة التي تحصل عليها من الجامعة تكفيها في حين أنها كانت تعاني الأمرين من الاحتياج ، ولم تكن تجد ثمن الثوب الحديد الذي يحفظ كرامتها بين زملائها وزميلاتها ، فعاشت إلى حين تخرجها بملابس بالية وزرية تخجلها من الإختلاط بالطلبة والطالبات . كما أنها لم تستطع بسبب الضيق المالي الذي تعانيه أن تعقد صداقات .. فالصداقة تحتاج إلى مجاملات .. والمجاملات يلزمها نقود، وأقصى ما كانت تستطيع «شارون» بين الحين والحين . أن تشتري من إحدى زميلاتهما بقايا كعكة قديمة عندها تضطر في نهاية الأمر إلى أن تأكلها هي وحدها ، بعد أن تنهرب الأخباريات من مشاركتها فيها .. ومع كل هذا العذاب الذي تعانيه لم تكن كبرياؤها تسمح لها بأن تطلب من أبيها .. ولم ير هو من تلقاء نفسه مدى احتياجها إلى المعونة ولا رقة الحال التي تعيش فيها، والسؤال الوحيد الذي يوجهه إليها كلما سنحت لها فرصة مقابله لا يخرج مطلقاً عن أنباء نتائج الامتحانات ومدى تفوقها فيها .

ويقول الطبيب النفسي ان هذه الظروف القاسية التي مرت بـ «شارون»

خلال طفولتها وصباها وشبابها هي الأصل فيما أصابها من إحساس عنيف بالنقص المختلط بمركب الذنب . . نتيجة لشعورها بأنها غير محبوبة بسبب تنافسها . . وأنها بتفاهتها هذه تعتبر المسئولة عن حرمانها من حب أمها ومربيته . . بالإضافة إلى ابتعاد أبيها الدائم عن البيت وعن الوجود بجانبها عند احتياجها إليه . . هذا الا ابتعاد الذي اعتبرته هجراً لها وهي في محنتها . . وكان من سوء حظها هجر مزدوج من الإناث والذكور على السواء : من أمها ومربيته اللتين هجرتاه وتخليتا عنها إكراماً لأخيها . . ومن أبيها الذي حرّمها حقها المشروع من اهتمامه بها بسبب سفره المستمر ومزاجه الحالم الذي يشغله بأفكاره الخاصة عن كل ما يجري حوله . .

ماذا فعل الطبيب ؟

وبنجاح الطبيب النفسى في استخراج هذه القصة من بين ثنايا عقلها الباطن ، وفي خلال مدة علاجه لـ « شارون » أمكن أن يطفو بالذكريات الموجعة إلى عقل مريضته الواعى ، فبدأ التطور يحدث بالتدرج البطيء ، وأخذت الحقائق تتجسم لها بوضوح ، فلم تعد تخشى التحدث عن أحزانها القديمة ، ولا الاعتراف بكل ما كانت تختزنه من أسباب شقاؤها . . وعندئذ أخذ مركب النقص يتضاءل تباعداً ، والشعور بالذنب يختفى تدريجياً ، فانتظمت أفكارها ، واستعادت سيطرتها على عقلها ومشاعرها . وكان الفصل الأول في تخلص « شارون » من مرضها أنها وفقت إلى الطبيب الذى عرف كيف يكسب ثقتها ، ويجعلها تفتح له مغاليق عقلها

الباطن وتحديثه بمشاعبيها ، فتريح نفسها من العبء الذى ظل يضغط على مشاعرها حتى أوْشك أن يدمرها . . ولقد كسب الطبيب ثقته بتقبّله ذّا على علاقتها ، وعدم إظهاره أى نوع من مشاعره الخاصة إزاء الأحداث التى روتها له ، فلم تحس منه ولوللحظة خاطفة بأى ذرة من الإشفاق أو الاحتقار أو الإذانة . بالعكس كان دائماً محايداً فى استماعه لها . . رقيقاً بغير اندفاع فى معاملتها . . مقدراً ظروفها ولكن بغاية الاتزان والتروى . . فكانت نتيجة ذلك أن انعكس أسلوبه عليها ، وجعلها بالتدريج تقتبس طريقته الموضوعية فى الحكم على نفسها . .

ولقد استطاع الطبيب أن يقوم . . أو يصحح . . نظرتها غير الواقعية لأبيها . . ذلك أنها بمجرد أن لمست من ذلك الأب عطفه عليها بعد أن تخلت عنها أمها عقب مولد أخيها الذكر . . تعلقت ببعض هذا العطف تعلق الغريق بقشة عائمة . . وخرجت فى تصويرها لمشاعره نحوها عن إطار الحقيقة . . واعتبرت ذلك الأب كعبتها وملاذها الوحيد . . بل رفعتة إلى مستوى الرب ، واعتبرت سياسته معها أحكاماً إلهية لا مرد لها . لذلك حملته مسئولية الإله وقدراته ، وتوهمت أنه يستطيع بقوته الإلهية الحارقة أن يرى من خلالها ما خفى من أخطائها ونقط الضعف فيها . .

لكن العلاج النفسى ردها إلى جادة الصواب والواقع فتغيرت نظرتها الخيالية إلى أبيها . وبعد أن جهرت بالأمهات خفية ونطقت بها ، تخلصت من الضغوط النفسية الشديدة المكبوتة ، وبدأت تراه على حقيقته مجرد إنسان عادى ، وليس إلهاً بأية صورة من الصور . . إنسان

له أخطاؤه وسقطاته مثله مثل غيره من البشر العاديين . . ومن ثم فالحكم عليه ينبغي أن يصدر بعد التقييم البشرى له ، والموازنة بين فضائله ورذائله . والرضا بالجانب الخير منه ولو كان محدوداً .

وعندما وصلت في علاجها إلى هذا المستوى من القدرة على مواجهة الواقع ، اختشت الصورة القديمة لوالدها ، وباختفائها تلاشى شعورها بالحرمان ، ذلك الشعور الذى جعلها طوال السنين الماضية تعتبر نفسها يتيمة . .

ولقد أفادها ذلك أيضاً في إعادة النظر في تقييمها للرجال الآخرين مثل عميدها وزملائها وأصدقائها وجميع الذكور والإناث الذين يمرون كل يوم بحياتها . . فلقد استطاعت بعد أن انزاحت الغلالة عن بصيرتها أن تنظر إليهم بغاية الواقعية ، وأصبحت تعتبرهم بمثابة الإخوة وأن تتحمل منهم ما يتحمله إنسان من إخوته وأحبابه ، ولم تعد تتطلب منهم أكثر مما يستطيع الفرد العادى المتزن أن يعطيه غيره . .

كان الفارق بين مشاعرها قبل العلاج وبعده ، هو الفارق بين مشاعر الطفل الوحيد اليتيم المهجور الذى يخاف من قسوة الأطفال الآخرين ، فيهرب من طريقهم ، ويتقوقع على نفسه بعيداً عن مواطن العذاب التى تربص به . . وبين مشاعر الطفل السليم الذى يشعر بالأمن والطمأنينة بفضل اعتماده على وجود والدين قوين عطوفين بحياته على علاته وبقدراته برغم أخطائه ، ويتقبلان بمنتهى السماحة والرضا شخصيته على ما هى عليه دون أى تغيير . .

ولقد مرت « شارون » في خلال شفائها من مرضها النفسي بثلاث مراحل :

أولها : مرحلة تضائل القلق الذي تعانیه وازدياد ثقته بنفسها ، وكانت في خلال هذه الفترة تتدفق في اعترافها بمآعبها الدفينة ، وتسخر في التصريح بكل ما يعتل في نفسها دون أدنى حرج أو تردد .

والمرحلة الثانية ترتبت على الأولى .. فباستعادتها هدوءها وثقتها بنفسها لم تعد تخجل من مواجهة نفسها بحقها الشرعي في الحياة الجنسية ، ولا برغبتها في أن تتزوج وتستمتع بما يستمتع به غيرها من النساء من حيث الحياة الأسرية التي تمنحها سعادة الوجود مع زوج محب وأبناء أوفياء فقبل العلاج كانت تتصور أن رغباتها هذه أمور قدرة محرمة تدل على الميل إلى الإثم وسوء الأخلاق وخبث الطوية ، طبقاً لما كانت أمها دائماً تقول لها من أن عمل الواجب هو الرغبة الوحيدة المشروعة ، وأن أي مطالب شخصية بعد ذلك تعد إثمًا ومغضبة لله

والمرحلة الثالثة جاءت نتيجة للثانية . . وهي أنها حين استعادت توازنها في حكمها على الناس والأمر ، استطاعت أن تتقبل نفسها برضا وارتياح ، وزال احتقارها لعلمها كما زالت نقيمتها على جنسها ، وأصبحت ترى شخصيتها في إطارها الصحيح الذي يدفع إلى الاحترام^١ ، ومنحها كل الحق في أن تستمتع بكل ما تستمتع به مشياتها من النساء الذكيات الطيبات .

ولقد شفيت « شارون » وعادت إلى أسرتها تعيشها بالأسلوب السليم

ولم يمض وقت قصير حتى التقت بالرجل الذى تزوجها عن حب واحترام
وأعطاهما بعطفه وتقديره ما كانت تتمحرق إليه منذ زمن طويل . .

وبعد الزواج ظلت بقايا من مركب النقص عالقة بنفسها إلى أن
أنجبت طفلها الأول ، فكان من أثر هذا الحدث العظيم فى حياتها أن
تلاشت إلى الأبد بقايا علتها ، واستعادت كامل ثقتها بنفسها واحترامها
لمواهبها وميزاتها .

ويؤكد الطبيب فى ختام حديثه عن « شارون » أن الشخص الذى
تتاح له من صغره فرصة الاستمتاع بالحياة الاجتماعية السليمة ، وتتهياً له
أسباب الاختلاط بالناس وعقد الصداقات . . مثل هذا الشخص
من المستحيل تقريباً أن يصاب بمركب النقص حتى لو كان تعسفاً
فى أسرته .

فوجوده خارج البيت بين لداته ، ومشاركته لأبناء جيله فى ممارسة
الأنشطة المختلفة يزوده بالطمأنينة النفسية التى قد يفتقدها فى بيته ، ويعوضه
خسارته فى أسرته الصغيرة بالكسب العظيم الذى يجنيه مع أسرة المجتمع
الكبيرة . .

لذلك ينصح الطبيب الآباء والأمهات إذا وجدوا فى أحد أبنائهم
أى أعراض ولو بسيطة لمركب النقص ، بأن يدفعوه إلى الالتحاق
بالنوادر العامة والخاصة حيث يجد عدداً كبيراً من أبناء جيله فيعرفهم
ويعرفونه ويصادقهم ويصادقونه ، الأمر الذى يقضى على براعم مرضه
قبل تفتحها ، ويمنحه الثقة بالنفس . . ولكن من المهم جداً قبل
اتخاذ هذه الخطوة فى مساعدة الطفل على التخلص من عقده ، أن

يبدأ الآباء والأمهات بجذور المشكلة ، زرعوا أخطاءهم في تربيتهم لأبنائهم ويعملوا على أن يشعروا الطفل بأن له والدين محبين مخلصين .. راضين به على علاته . . حريصين على سعادته وراحة نفسه بصرف النظر عن حظه من المميزات والفضائل . .

هذه هي الخطوة الأولى الهامة . وبعدها يأتي إدماج الطفل في الحياة الاجتماعية المناسبة له ، حيث يلتحق بأبناء جيله ، ويكتسب من صداقتهم له الشعور بوجوده وإنسانيته . . ذلك أن مركب القميص يبدأ أولاً نتيجة للأخطاء التربوية التي كثيراً ما يرتكبها الكبار عن غير قصد، والعادة أن يأتي مصحوباً بمركب الذنب ، مما يترتب عليه أن يصاب بالخلج والشعور بالقلّة والتفاهة فيرتبك في تصرفاته ويعتقد أنه إنسان غير مرغوب فيه اجتماعياً . .

ويمكننا تلخيص الأخطاء التربوية التي ارتكبها والدها «شارون» فأدت إلى إصابتها بمرضها النفسي في النقاط التالية :

— أنهما تخليا عنها تماماً بمجرد مولد الصبي ، مما أشعرها بأنها هجرت وأصبحت يتيمة . .

— أنها حين عمدت إلى العناد والعصيان على سبيل التعبير عن رفضها ليطمئنها الأدبي لم يفطنا إلى بداية المرض النفسي ، وتصورا أنها شريرة ، فلجأ إلى القسوة في معاملتها وبذلك ضاعفا من وطأة علتها . .

— أن والدها الذي كانت تعلق على حبه آخر أمل في نفسها ، خذلها بالتوقف عن معونتها بالمال في أثناء دراستها الجامعية ، مما أكد لها شعورها بالهجر واليتم . .

— أنه سدد لما الضربة النفسية القاضية حين لم يظهر لها أدنى اهتمام
إلا فيما يختص بتفوقها الدراسي كأنه لا قيمة لها في الحياة بدون هذا
التفوق .

• • •

لورا، في حربٍ مع الفراغ !

« لماذا كانت الأشباح المخيفه تطارد « لورا » ... كلما

استسلمت للنوم ؟

« ماذا كان يختبئ وراء شهوتها العارمة للطعام ، تلك الشهوة

التي كانت تتركها كالغميل المنتفخ في كل مرة ؟

« وما هي الدروس التي ينبغي أن تتعلمها الأمهات والآباء

من هذه القصة المحزنة ؟

إنها قصة من ألمانيا يعرضها أحد أساطين الطب النفسى "هناك لإحدى الحالات المرضية التى مرت به ، وكان لها طابع شديد الأهمية من حيث المعنى والمدلول .

وبطلة هذه الحالة فتاة ألمانية شابة اسمها « لورا » . . صغيرة السن جميلة الشكل ، طيبة القلب ، ذات مواهب فنية تكفل لها مستقبلًا مرموقًا .

وكانت هذه الفتاة الممتازة قد أتمت دراستها الفنية بنجاح، وعينت كأحد المتاحف الكبرى فى وظيفة محترمة تفتح لها الطريق إلى مناصب فنية عالية، لكن التوفيق خانها برغم استعدادها الطيب ومواهبها المتعددة، بسبب المتاعب النفسية التى أخذت فى السنين الأخيرة تطاردها ، نتيجة لصدمات عنيفة تلقتها فى صغرها ، ولم يظهر أثرها واضحًا إلا فى الشباب عندما وقع الانفجار النفسى الفظيع . .

ولقد لجأت « لورا » إلى الطبيب فى أول مرة تشكو له من ثلاث مشاكل نفسية تشقى حياتها ، منها أنها برغم شبابها وجمالها وتحرقها الشديد إلى الحياة الزوجية ، تجدد أنها عندما يأتى فى طريقها الرجل المناسب ، وتحس بأنه قد أصبح جادًا فى نيته على الارتباط بها ، يتملكها إحساس بالتمرد عليه والرغبة فى التخلص منه، فتسبب معاملته حتى تنفره منها وتدفعه إلى الاختفاء من طريقها . .

ولقد تكررت هذه الحالة مع أكثر من رجل كانت تشعر بالميل الشديد له ، وتتمنى أن تعيش فى كنفه ، وكلما أفسدت بتصرفاتها الحمقاء فرصة من هذه الفرص ينتابها الأسى ، فتنهار نفسيا ، وتظل تعاني

الاشتهاء إلى أن يظهر في أفق حياتها رجل جديد : فتفرح وتتفاءل ، ثم ينقلب الوضع . وتكرر المأساة نفسها مرة أخرى .

وبالإضافة إلى هذه المشكلة النفسية التي تعقد حياتها ، كانت « لورا » تعاني بعنف وشدة من الأحلام المرعبة التي تعذبها في أثناء استغراقها في النوم فتحرمها حقها من الراحة . . . وتلدور هذه الأحلام دائماً حول أشباح مخيفة ليست لها أشكال محددة . واضحة ، ولكنها تبدو لها في صورة قوى عدائية رهيبة تجرى وراءها لتقضى عليها . . . وتتكرر هذه الأحلام مرات في الليلة الواحدة ، وفي كل مرة تستيقظ فزعاً وهي تصرخ بأعلى صوتها ، حتى أصبحت تكره النوم وتخاف أن تأوى إلى سريرها ، وتفضل أن تقضى معظم الليل ساهرة في غرفتها ، الأمر الذي تدهور بصحتها ، وأصاب أعصابها بالهيار شديد . . . ثم إن « لورا » كانت أيضاً تعاني من حالة غريبة تصيبها بين الحين والحين . . . فجأة وبلا أدنى تمهيد أو مقدمات . . . وليس لها أدنى ارتباط بمزاجها أو ظروفها . . . فقد تكون في أسعد حالاتها وإذا بها تشعر على حين بغتة كأن جوفها أخذ يمتلئ بالفراغ ، ويزداد الشعور بالفراغ تضخماً حتى يتصور لها أنها على وشك الانفجار . . .

ويصاحب هذا الشعور الخفيف إحساس مؤلم بالجوع ، ويزداد حتى تفقد « لورا » السيطرة على نفسها ، ويطيش عقلها فتنهال كالوحش الضارى على كل ما يمكن أن يؤكل . . . تأكل كل شيء وأى شيء ، دون أن تتوقف عن الأكل لحظة . . . لا فارق بين لحم نبي أو ناضج . . . خضراوات مطهوة أو غير مطهوة . . . أعشاب أو فضلات

. . كله يصلح ما دام يمكن بلعه . .

ويظل على هذه الحالة تملأ جوفها حتى يفيض بما فيه ، فتتقيأ لتبدأ من جديد . . إلى أن تنهار تمامًا . . ويصيبها إرهاق شديد تتوقف معه عضلات فمها وذراعيها . . ويتبدل فكها ويتورم جسدها . . وينتفخ بطنها ووجهها . . ثم يغلبها نعاس هو في حقيقته أقرب إلى الخيوبة منه إلى النوم . . وتغيب عن الوجود لمدة يومين أو ثلاثة . . وحدها في مسكنها بين فضلات الطعام والقاذورات المتخلفة عن الحالة الوحشية التي انتابتها . .

ثم تستيقظ فجأة وقد عادت إلى كامل عقلها : فتجد أنها لفرط ما أكلت وشبعت قد تضخمت بشكل محزن : وضاعت معالم قوامها الرشيق . . كما تشوه وجهها الجميل . . هذا غير النزلات المعوية والأمراض التي حلت بها نتيجة للمواد العجيبة التي ظلت تلتهمها وهي في إبان أزمتها . . وتحزن « لورا » أبلغ الحزن على ما فعلته بنفسها . وتكرس الشهور التالية لعلاج ما فسد من شكلها وصحتها : وما إن تسرد جمالها وعافيتها ، إلا وتفاجئها الذوبة ثانية لتتكرر المأساة .

وكان الطبيب النفسى يعلم أن الخوف من الزواج والأحلام المزعجة هي عوارض معروفة نفسية متأصلة في العقل الباطن . . كذلك كان يعلم أن الأغلبية الساحقة من حالات السممة المفرطة تعود إلى مشاكل نفسية بالمثل ، ولكنه لم يستطع أن يصدق الأوصاف التي أدلت بها « لورا » حين حدثته عن نوبات الشعور بالفراغ والجوع . . وتصور في أول لقاء معها أنها تبالغ وتنساق مع الخيال بعيداً عن الحقيقة والواقع ،

إلى أن فوجئ بجيرانها يستغيثون به ذات اليوم ، ويرجوئه أن يسرع في عيادتها لإنقاذها .

ويؤكد الطبيب أنه حين دخل المسكن لم يصدق عينيه ذوق ما رأى . فقد كانت « لورا » ترقد كالجاموسة المنتفخة فوق أكوام من بقايا الطعام وعلب المأكولات المحفوظة الثقارغة . . ملابسها مبللة بالقيء ، وشعرها كله دهون وفتات من الخبز واللحم والخضراوات . . ووجهها الذي عرفه جميلا قد تورم إلى درجة اختفت معها معالم تقاطيعها المختلفة . .

وكانت عند حضوره لا تزال في غيبوبة النوم العميق : الذي يحل بها عادة بعد أن يستبد بها إرهاق الأكل وتوقف عضلاتها عن العمل . . فأمر بحملها إلى فراشها وتركها في رعاية إحدى الممرضات المحترفات ، إلى أن استيقظت من تلقاء نفسها بعد يومين كاملين : فلما تنبهت إلى ما فعلته بنفسها أخذت تبكي وتبكي : وتقسم أن تنتحر تخلصاً من عذابها . .

بيت متصدع

وكان لا بد للطبيب النفسى أن يغوص في أعماق حياتها لكي يستخرج من العقل الباطن عقد الطفولة والصبا : ويطفو بها إلى العقل الواعى حيث تذوب في الواقع وتبطل سمومها : ولقد أمكنه بعد مقاومة شديدة منها أن يحل عقدة لسانها ويجعلها تحكى له بمحض إرادتها واختيارها قصة حياتها.. كيف ولدت « لورا » في أسرة متوسطة وكانت الابنة

الثانية لوالديها . أما الأول فصبي يكبرها بعامين تقريباً . . ولأنها كانت ضعيفة البنية في بداية حياتها فقد اختارت أمها أن تضعها معها في غرفة النوم التي تشغلها هي وزوجها . . مطمئنة إلى أن الطفلة تنام مبكرة وتصحو متأخرة . ومن ثم فلا خوف عليها من أن تستيقظ بالليل وتشهد ما يحدث بين أي زوجين في فراش الزوجية .

ولكن « لورا » الصغيرة كانت تستيقظ دون أن يشعر أهلها بها . وترى فيخيل إليها أن والدها يؤذي أمها ، وخوفاً من أن يؤذيها هي الأخرى تغمض عينيها ، وتجبر نفسها على العودة إلى النوم وهي في حالة من الرعب برئ لها . .

ولقد تصادف في حالة أن أصيبت الأم بمرض عضال تركها بقية حياتها كسيحة لا تستطيع الوقوف أو السير ، ولا يمكنها التنقل إلا فوق مقعد متحرك تطوف به البيت لأداء أعمالها المنزلية . .

. وبمرض الأم أفلت زمام الأب فانطلق وراء شهواته بإفراط انتهى بطرده من عمله ، فانقطعت الموارد عن « لورا » وأمها وأخيها ، وأصبحت الأسرة تعاني الأمرين من الضنك البالغ ، في حين ظل الأب على استهتار يعاقر الخمر ويجرى وراء البغايا ، ويعود في آخر النهار ضاحكاً مترنحاً كأنه لا يعرف همّاً ولا يحمل مسئولية . .

ويجن جنون الأم الكسيحة فتثور غاضبة عليه ، وتظل تصرخ في وجهه وتؤنبه ، إلى أن يضيق بها صدره ، فيوليها ظهره ويخرج من البيت ثانية ليعود عند مطلع الفجر ، أو بعد أيام يقضيها مع خمره وحبيباته .

لكن « لورا » الصغيرة الساذجة لم تكن ترى من أبيها سوى الجانب المضيء ، إذ كان يحبها أكثر من بقية أفراد الأسرة ، ويدللها ويناجيها ويحملها في أحضانه ويداعبها . . وإذا بقي في جيبه بعد إرضاء شهواته نقود يشتري لها قطعة من الحلوى ليدخل الفرحة على قلب ابنته الصغيرة الأثيرة إلى نفسه .

وكان إلى جانب ذلك غاية في الوسامة . . طويلاً عريضاً . . قوياً وسيماً ، يمثل في نظر « لورا » النقيض لأمها الكسيحة الضامرة الدميمة . . لذلك أحبت الابنة أباهما من كل قلبها ، ووجدت في عطفه عليها التعويض الكامل عن حالة الجوع والفقر والعري التي تعيش فيها . . ولجملها بحقيقة أسباب العراك بينه وبين أمها ، انحازت بقلبيها إليه ، وتصورت أنه ضحية أمها ، فلولا كساحها وضعفها وقبحها ما شرب الخمر ولا تلهى بالنساء ولا قصر في حمل مسؤولياته العائلية .

وكانت تسمع أمها تبكي أحياناً وتنعى حظها النكد ، وتؤكد أن زوجها هو السبب في آل إليه حالها ، وقصدها بذلك أن استهتاره ومجونه وانطلاقه الأرعن وراء نزواته الرخيصة ، قد سبب لها من المحن النفسية ما حطم صحتها وانتهى بها إلى العجز الجسدي وهي لم تزل في شرح الشباب . . فتعود بها الذاكرة إلى ما كانت تراه بغرفة النوم في صغرها ،^٦ فتحمل العلاقة الجنسية مسؤولية الشلل والكساح والعجز ، ولفرط تعلقها بأبيها ، وحبها الأعمى له يتضاعف حنقها على أمها ، التي كانت في اعتقادها تستدرجه إلى ممارسة حقوقه الزوجية ، وتدفعه بذلك إلى الإضرار

بها . مما أدى في النهاية إلى ضيعة الرجل الطويل العريض . . القوي
الموسيم . . اللطيف الظريف . .

ولقد تمكن منها هذا الشعور عندما انتهى الخلاف المستمر بين
الزوجين ذات ليلة بخروجهم من البيت نهائياً . واختفائه ما تبقى له
من عمر عنهم . . فلقد أحست عندما صفق الباب خلفه وضواه ظلام
الليل إلى غير رجعة أنها فقدت روحها . وأن أعز جزء في صدرها
وجوفها قد انتزع منها بمسوة لا تعرف الرحمة .

وانقضت الشهور الأولى وهي تعيش بأمل عودته . وبلغ بها التعلق
بهذا الأمل أن كانت تسرع كل يوم بالعودة من مدرستها جرياً ،
خيفة أن يرجع أبوها إلى بيته فلا يجدها . . وتظل واقفة عند النافذة
المطلّة على الباب الرئيسي إلى أن يحل الظلام ويغلبها النعاس . فتأوى
إلى فراشها يائسة حزينة .

لكن الشهور توالى ولم يتحقق أمل العودة . ولم تلتق الأسرة كلمة
من عميدها الغائب ، ولم يصلها خبر تهتدى به إلى البلدة التي لحاً إليها
وحط بها رحاله .

وتغيرت أحوال الفتاة وأصيبت بالانطواء وشروذ الذهن وعدم
التركيز ، وتأثرت بذلك أحوالها الدراسية فتكررت تخلفها في امتحاناتها ،
بعد أن كانت في مقدمة الصف متفوقة على زميلاتها وزلائها .

وتحجرت عواطفها نحو أمها الكسيحة ، فلم تعد تشعر بأدنى شفقة
عليها . . بالعكس كانت تتلذذ بتعذيبها ، وتبتكر كل يوم حيلة جديدة
للتنكيل بها . . ومن ذلك أنها كانت تحرم أمها الطعام حتى يشتد بها

الجوع ويدفعها العذاب إلى التنازل عن كرامتها برجاء ابنتها واستعطافها . .

وقد حدث مرة أن وضعت « لورا » الطعام على بعد من أمها الكسيحة : وضلت إنيها أن تزحف إليه إذا كانت حقيقة تريد . . وأطاعت الأم وظلت تزحف . . وعندما كادت تصل بعد جهد عنيف اختطف « لورا » الصحن والتهمت جميع ما فيه ، وخرجت من البيت ضاحكة ، وتركت أمها خلفها تبكي بعنف وحرقة !!

وتصادف أن مرضت الأم وماتت بعد هذه الحادثة بوقت قصير ، ولم يكن لواقعة الصحن دخل في مرضها وموتها : ولكن الوقع كان شديداً على « لورا » ، وبدأت منذ ذلك الحين تعاني عدة متاعب نفسية ، منها خوفها الشديد من الزواج ورغم رغبتها المفردة في بناء أسرة ، ثم الأحلام المزعجة التي أخذت تطاردها في نومها وحرمانها الراحة والاستقرار ، بالإضافة إلى نوبات الشعور بالفراغ داخل جوفها . وما يصاحبه من إحساس بالجوع الرهيب الذي يدفعها إلى الاستمرار في التهام الطعام . إلى أن يدركها الانهيار فتروح في غيبوبة قد تطول يومين أو أكثر .

أخطاء التربية

ويعتقد العالم النفسى الذى تولى علاج « لورا » لمدة خمس سنوات متصلة ، أن الأغلبية الساحقة من المتاعب النفسية تحدث خلال السنوات الأولى من عمر الإنسان ، وكثيراً ما تأتى نتيجة لأشياء صغيرة تصدر

من الوالدين دون قصد . ولا يتنبهان إليها . غير أنها تصيب نفسية الطفل بدرجة تتسرب إلى عقله الباطن وتلوذ بتلافيفه بحيث تبقى في مكانها مخفية لتسيطر على حياته من بعيد . وترسم له طريق العذاب في كبره . مما يدفعه إلى الانحراف . أو يقوده إلى الجنون ، ما لم يتدخل العلم النفسى في الوقت المناسب وينتزع أصول المتاعب من العقل الباطن ، ويطفئ بها إلى العقل الواعى حيث تذوب سمومها وينتهى أمرها .

كذلك يؤكد الطبيب أن الحب الأول والأكبر في حياة كل إنسان هو حبه لأمه . ومهما قيل في انجذاب البنت إلى أبيها وانجذاب الابن إلى أمه ، فهذه اتجاهات عارضة تنتهى بفترة معينة من العمر ، ولا تنال من حب الأم شيئاً أو تضعفه ولو قليلاً . .

وكثيراً ما يحدث الخفاء بين الأم والبنت ، وتبدو الحصومة بينهما واضحة ، ولكن من خلف هذا الشعور البغيض يظل التعلق بالأم واضحاً . . فالعلاقة بين الأم والبنت وطيدة ومصدر للشعور بالحماية ، ومنها تستمد الابنة الإحساس بالاستقرار والأمن في جميع العلاقات الأخرى في الحياة . . والارتباك يحدث عندما تفشل الأم من غير قصد في منح ابنتها حاجتها من الرعاية العاطفية ، أو ترتكب غلطة ترتب عنها عليها صدمة نفسية شديدة . .

ولقد ارتكبت أخطاء كثيرة في حق « لورا » ، منها أن الأم - لفرط رغبتها في رعاية ابنتها خلال السنوات الأولى من عمرها - أبقته معها بغرفة النوم التي تشغلها هي وزوجها ؛ وهذه غلطة شائعة في بيوت كثيرة، لكنها غلطة خطيرة جداً . فالوالدان يتصوران أن الطفل

أصغر سنًا من أن يرى ويفهم ما يحدث بين الزوجين ، وهذا غير غير صحيح ، فهو يختلس الروية دون علم والديه ، ولكنه لا يفهم حقيقة ما يحدث ، فيتصور أن الأب يؤذى الأم ، ومن هنا يثبت الشعور بالنفور الشديد من العلاقة الجنسية ، وتظهر آثاره في الكبر عند الزواج. وكثيراً ما يؤدي إلى إصابة المرأة بالخوف والبرود الجنسي ، الأمر الذي يعوق الروابط العاطفية بين الزوجين ، ويرزعزع استقرار الأسرة . .

والذي رآته « لورا » في صغرها رسب في نفسه. هذا الشعور ، وجعلها تربط بين العلاقة الزوجية وما أصاب أمها من شلل وعجز وكساح . ويدافع من الخوف الشديد الناجم من أن تتزوج ليصيبها ما أصاب أمها ، بلحأت - بتأثير العقدة المختفية في عقلها الباطن - إلى النفور من كل رجل يبدى رغبة جدية في ربط حياته بحياتها . . فكلما رأت الحب يتضج بينها وبين مخاطب ملام لها ، يقفز إلى ذهنها شبح العجز والمرض ، فإذا بقوة غامضة تفوق إرادتها تدفعها إلى الانقلاب على الرجل الذي تحبه ، والإمعان في الإساءة إليه كي يهرب من طريقها . .

كذلك كانت علاقة « لورا » بأمها معقدة . فالمرض الذي أصابها حولها في نظر الابنة إلى حطام إنساني قبيح لا يمكن أن يرضى رجالاً جميلاً وسيمًا قويًا مثل والدها ، فلما بلحا إلى الترفيه عن نفسه بوسائله الخاصة ، انهارت أعصاب الأم 'وجعلت العراك مع زوجها شغلها الشاغل . . تصرخ في وجهه إذا حضر ، وتبكي وتنعى حظها إذا

غاب . . وكانت النتيجة أن أضاعت على ابنتها الصغيرة حقها من الاستمتاع بالدفء العاطفي الذي لا يجده الإنسان إلا في أحضان أمه . ولا يمكن أن يعرضه عنه عطف آخر مهما بلغ . .

كانت تعتقد أن الأم هي المسؤولة الأولى عن شقاء الأسرة . .

وتجد في التصرفات الحمقاء لأبيها مسوغات قوية .

فلما اختفى هذا الأب العزيز نهائياً من حياة ابنته الحبيبة المفضلة ، وتلنست حولها فوجدت أنها — وقد تركت لأُمها — قد أصبحت تعيش في صحراء جلدباء من العاطفة . أصيبت « لورا » بطعنة نفسية نجلاء . تركتها في عالم من الفراغ الموجع . فاندفعت إلى التعبير عن عذابها المكبوت بالانتقام من أمها . وابتكار الحيل المختلفة للتنكيل بها .

ولكنها برغم هذا كله كانت في قرارة قلبها تحب أمها ، وتتعذب دون أن تشعر بتعذيبها لها . . وعندما ماتت الأم بعد فترة قصيرة من حادث الصحن . كان شعورها المكبوت بالذنب قد بلغ ذروته ، فبدأت الأحلام المزعجة تطاردها على سبيل التأديب . . ولأنها كثيراً ما تركت أمها جائعة ، انتابتها حالات الجوع الجنونى التى أوشكت أن تقضى على عقلها قبل حياتها .

ونستطيع أن نلخص الأخطاء التربوية التى ارتكبت في حق « لورا » في ثلاثة :

أولها : إشراكها في غرفة نوم الزوجين .

وثانيهما : إخفاء الأم عن ابنتها حقيقة الوضع بينها وبين أبيها ، فمن مصلحة الأطفال إذا وجد الخلاف بين الوالدين أن يعرفوا بحقيقة أسبابه

ومسبباته بأسلوب هادى منطقى يناسب عقليتهم التى تحددها مرحلة العمر التى يمرون بها . كى تتأتى خم القدرة على مساندة الأحداث ، ووضع كل حدث منها فى إطاره الصحيح . . فى إخفاء المتاعب الضرورية فى كل حياة عن الأبناء بقصد تجنبهم الأحزان ، يضربهم ولا ينفع لأنه يضلهم عن الحقيقة . ويصور خم أن الثواب التام فى الجوهر والتفاصيل هو الأصل . وأى خلاف يواجهونه فى كبرهم يقضى على شعورهم بالسعادة . . كما أن مطاردة الأبناء بالمشاكل يضع عليهم فرصة الاستمتاع بالدفء العاطفى وهو الغذاء الرئيسى فى بناء الشخصية المتكاملة السليمة . .

أما الخطأ الثالث فى الأسلوب الأحق الذى واجهت به الأم شروط زوجها ومتاعب مرضها . فلقد شغلتها النعمة على حياتها عن دورها التربوى الرئيسى : فتوهمت ابنتها أن أمها هى الجانية لا المحبى عليها . إن الشجار المستمر وتكرار الصراع والبكاء وزدب الحظ أخفى الصورة الحميلة للأمومة، وأحل محلها صورة المرأة المعاكسة البغيضة، وضع على الفتاة حقمها من الحنان الذى تتعطش إليه . .

ولقد كتب « للورا » الشفاء عندما نجح الطبيب بعد خمس سنوات كاماة من الجلسات الطويلة المتتالية . فى أن يستخرج من ذهنها ما اختزنه عقلها الباطن من معلومات مشوذة . وجعلها ترى بنفسها الحقيقة المختلفة للأوضاع التى أشقت حياتها . .

عندما ينقلب الأصدقاء أعداء ..

* لماذا أصرت « شارلوت » على ألا تنجب من زوجها الحبيب ؟
ولماذا كانت تأبى الخروج في الأيام التي تتفتح فيها الأزهار
الخصيلة ، في حين لا تحملوها النزهة إلا تحت وابل من المطر
الغزير ؟

بطلة قصة اليوم سيدة هولندية اسمها «شارلوت» في الخامسة والثلاثين من عمرها . . من أسرة كريمة مقتدرة ، وقد تزوجت في ريعان شبابها برجل أعمال معروف ، ولم تشأ أن تنجب منه أطفالاً ، بالرغم من الحب الشديد الذي يربطهما وبالع الوفاء في علاقتهما .

وكان الذروض أن تظل سعادة هذين الزوجين الحبيين قائمة ، بأولاد أو بلا أولاد . وطيبة على مر السنين ، ولكن التدهور النفسى والعقل الذى أصاب شارلوت جعل استمرار حياتها مع زوجها يكاد يكون مستحيلاً ، غير أنه لم يشأ أن ينفصل عنها قبل أن يرضى ضميره تماماً بمحاولة أخيرة في سبيل إنقاذها ، لذلك اصطحبها إلى طبيب كبير اشتهر في جميع الدوائر العلمية بقدرته على علاج معظم الأمراض العقلية عن طريق التحليل النفسى .

وقد روى الزوج للطبيب أنه حين قابل «شارلوت» لأول مرة كانت شابة جميلة رقيقة مثقفة ، ولكنها تميل إلى المدوء والانطواء على نفسها بسبب حالتها الصحية المتدهورة . فمذ بلغت الثالثة من عمرها وهى تعاني من أوجاع المغص الذى يهاجئها دون مسوغ ، ويشتد بها حتى تنتابها حالة من القيء العنيف . . كما أنها كانت واسعة الخيال تروى قصصاً أشبه بالأساطير وتدعى أنها حقيقة ، وإذا روجعت في صدق هذا الادعاء لا تغضب ولا تنفعل . . ويعاودها المغص والقيء فقط ، مما يضطرها إلى ملازمة الفراش أياماً متتالية . .

اكن هذه الأعراض المقلقة لم تفلح في إبعاده عنها ، فقد وجد

في ثقافتها وجمالها وذكائها ولطف معشرها ما أثار إعجابه بحبها ، فأقدم على الارتباط بها وهو مضمّن إلى أنها متاعب من النوع الذي ينتاب بعض الفتيات الفاضلات قبل الزواج ، ولسوف تزوّن سريعاً بممارسة الحياة الطبيعية . .

لكن صحة شارلوت لم تتحسن بعد الزواج وقد ظلت الأوجاع تنتابها وتنغص عليها حياتها ، مما دفعها إلى الإصرار على عدم الإنجاب خوفاً من المضاعفات ، ورغم أن جميع الأطباء الذين تولوها بالعلاج — الواحد بعد الآخر — قرروا بعد إجراء كافة الفحوص والتحليلات أن صحتها سليمة تماماً ، وليس بها أى مرض أو مكروب يسوغ المتاعب التي تعانيها ، ولم يكن ذلك المصدر الوحيد لمتاعب الزوج . . فخيال « شارلوت » أخذ يضطرب في الاتساع السريع ، حتى أصبح في نظرها حقائق مجسمة تسيطر تماماً على ذهنها ، ولا تقبل أدنى مناقشة . من ذلك مثلاً أنها تؤكد أنها ليست ابنة الحقيقية لوالديها الحاليين ، وتزعم أنها ولدت في غابة بدائية تقع في قلب القارة الآسيوية ، وقد قضت هناك بين أهلها وعشيرتها السنوات الأولى من عمرها ، ثم حملوها وأتوا بها إلى هولندا لتعيش مع أسرتها الحالية وتحمل اسمها . . وقد تطورت معها هذه الفكرة حتى أصبح في مقدورها أن تصف بالتفصيل شكل القرية الآسيوية التي ولدت فيها . . والطريق الزراعي الطويل الذي تكتنفه الأشجار العالية ، وبينها تقوم الأكواخ الصغيرة التي يسكنها أهل القرية ، ثم الأمطار الغزيرة التي كانت تسقط ، وبعد انقطاعها تسطع الشمس لتملأ الكون بالنور والدفء

... وكيف كانت أمها تحرص على نظافتها وتغسل لها شعرها كل يوم ،
 في حين انصرفت اهتمامات حالتها إلى تربية الأوز وتسمينه قبل
 بيعه في السوق بعد الاحتفاظ بالفضل منه لطعام الأسرة .

وبسيطرة هذه الفكرة على ذهنها أصبحت تلقى بمسئولية متاعبها
 الصحية على مناخ هولندا الذي لا يلائم تكوينها الطبيعي ، وكلما رأت
 الأمطار تهطل حتى في الشتاء البارد تندفع إلى الطريق وتسير عارية
 الرأس تحت المياه الغزيرة الخاطلة غير عابئة بما يصيبها من أمراض
 نتيجة لذلك . .

وبمضي الوقت استنفحت حالتها ، فأصبحت تخاف من رائحة
 الزهور والورود الهولندية التي تنمو في حديقته وحدايق جيرانها ،
 وتزعم أن رائحة الزهور والورود الغريبة على بيئتها الآسيوية الأولى هي
 التي تصيبها بالقيء والمرض . . وتلافياً لذلك كانت تحبس نفسها
 في البيت خلال موسم الأزهار ، ومهما كانت الظروف لا يمكن
 أن تطلأ بقدمها عتبة البيت إلا بعد أن تختفي الزهور من جميع الحدايق
 ولا تبقى واحدة منها . وخوفاً من أن يحمل الهواء رائحتها إلى البيت
 عمدت إلى إغلاق جميع النوافذ بغاية الإحكام ، ومنعت فتح أى واحد
 منها ، مما كان يشحن جو البيت خلال الربيع - وهو موسم الأزهار -
 بالأتربة وعطن روائح الأنفاس المترددة بين جدرانها .

وتمادت « شارلوت » بمضي السنين في الانسياق مع تصوراتها
 الخيالية ، فغيرت ثيابها واتخذت في ملبسها طابعاً آسيوياً واضحاً ،
 كذلك صفت شعرها على طريقة الهنديات والإندونيسيات ، ثم لوت

لسانها في الحديث لتكسب كلامها لكثرة أجنبية تتمشى مع قصة انتمائها إلى أصل شرق يختلف تماماً عن البيئة الهولندية التي تعيش فيها . . وكان الأدهى من كل ذلك أن « شارلوت » أصبحت بتصرفاتها العجيبة تعرض حياتها للخطر في كل لحظة ، فإذا دخلت المطبخ تعد طعاماً أو شرباً تحرق ذراعها . وإذا أمسكت بسكين لا بد أن تقطع يدها ، وإذا هبطت السلم فلا منر من أن تسقط على الدرج وتؤذي جسمها . وفي تنقلاتها في غرف البيت تصطدم بقطع الأثاث وتصيب نفسها بالقطوع والكدمات العنيفة ، وعندما تسير في الطريق يقع لها دائماً حادث خطير ، كأنها تعتمد الإلقاء بنفسها في طريق السيارات والعربات والعجلات البخارية ، وأمام هذه الحياة الزوجية المشحونة بالمتاعب والمضايقات فقد صبر الزوج ولم يعد قادراً على مزيد من الاحتمال ، لكنه أثر على سبيل الوفاء أن يؤجل قراره النهائي إلى أن يعرضها على الطبيب كآخر إجراء يرضى به ضميره . ولقد استنهد علاج « شارلوت » ثلاث سنوات كاملة ، ظل العالم النفسي خلالها يجلس معها خمس مرات في الأسبوع على الأقل ، إلى أن كلل الله جهوده بالنجاح ، فإذا « بشارلوت » تعود إلى عقلها وقد ذهبت عنها الأمراض والأوجاع تماماً ، وكان الفضل في ذلك إلى توفيقه في الوصول إلى قرارة عقلها الباطن ، وانتزاع جذور المرض والارتفاع به إلى العقل الواعي .

أيام الطفولة

ويقول الطبيب في شرح حالتها، إنه استطاع بالجلسات المستمرة على مضي السنين الثلاث، أن يستدرج ذكرياتها القديمة عندما كانت أول طفلة ينجبها والداها، وقد حدث وهي في سن الرضاع، وقبل أن تنال كنهايتها من ثدى أمها، أن حملت الأم بالأخت الثانية واضطرت أن تنظم « شارلوت »، فرسب في قرارة نفس الصغيرة أنها هجرت من أعز الناس إليها، وقد تجسم لديها الشعور بالوحدة والعذاب وعدم الانتماء بعد أن كبرت بعض الشيء، وسألت أمها ذات يوم كيف ولدتها ومن أين خرجت من بطنها . . ؟ وتخرجت الأم عن ذكر الحقيقة، شأنها في ذلك شأن أمهات كثيرات ممن يجهلن الأسلوب التربوي الصحيح في الإجابة على أسئلة الأطفال، فادعت لها أنها أخرجتها من فيها . : عندئذ اشتدت العقدة النفسية بالفتاة، وتأكدت أنها إنسان غير مرغوب فيه، بدليل أن أمها بصقتها كما تبصق اللقمة المتعفنة . . ونتيجة لذلك أخذت صحتها تتدهور دون مسوغ على الإطلاق، وأصيبت بالتعب ونوبات المغص، وهي الحالة نفسها التي تصورت أن أمها كانت تعانيها حتى لفظتها خارج بطنها . وقد حدث في تلك الفترة أمر كان من الممكن أن يخفف من حدة المتاعب النفسية التي حلت بها قبل أن تصل إلى سن الوعي، وهو أن الأسرة رأت إزاء صحتها المتدهورة أن تأتيها بمربية آسيوية، فأحبت المربية الطفلة كما لو كانت ابنتها، ولطيفة قلبها تفانت في

رعايتها : تغسل لها شعرها الخميل صباح كل يوم . وتدللها وتلاعبها وتطعمها جميع الوجبات بيدها . وعندما تصحبها إلى الزهرة خارج البيت في الصباح ، تسليها بقصص بلادها وكيف تسطع الشمس في كبد السماء براقه كل يوم ، وكيف يهطل المطر مدراراً في الصيف ، وكيف كانت هي وأخواتها يسرن تحت الأمطار الهائلة ضاحكات سعيدات ، فرسب في نفس الصغيرة أن الله عنا عنها وأعطاها أمماً أخرى طيبة بدل التي هجرتها . والظاهر أن الأم اختلفت مع المربية في بعض الشئون فصممت فجأة على طردها ، واستخدمت بدلها مربية أخرى كانت لسوء الحظ قاسية القلب شريرة ، فتبدلت السعادة واختلفت من حياة الصغيرة ، وعادت إلى حالات المغص والقيء والمتاعب المختلفة ، ثم أعيدت المربية القديمة ... لكن لا لرعاية « شارلوت » بل للعناية بالأخت الصغرى التي كان مجيئها إلى الحياة هو السبب الحقيقي في حرمانها من السعادة .. وبعودة المربية الإندونيسية الحبيبة إلى رعاية اختها انقطع أمل الفتاة ، وتأكد لها أكثر من ذي قبل أنها لا بد أن تكون مخلوقة شريرة أساءت بوجودها إلى أمها الحبيبة ، فاستحققت العقاب على ذلك بتخلي الجميع وتجههم لها . ويؤكد الطبيب أيضاً أن أعراض العقدة ظلت محدودة في « شارلوت » ، حتى بلغت مرحلة المراهقة التي تتضارب فيها الأحاسيس ويتجسم الخيال وتنشط الانفعالات ، فبدأ الانفعجار التدريجي أولاً واشتدت بها أمراضها الجسدية عن ذي قبل ، وتسببت لها المغص والقيء المستمر في تدهور صحى شديد ، وأخذت تستولى عليها وتسيطر على ذهنها فكرة أنها ليست الابنة الحقيقية لوالديها ،

بل إنهما انتزعاها من أسرتها الأسيوية الأصلية ونقلها من الغابة البدائية التي ولدت في إحدى قرأها . ثم أتوا بها إلى هولندا حيث البيئة تختلف تماماً عن البيئة الشرقية التي نقلت منها قسراً . .

وكان هذا التصور هو الترجمة لمشاعر الحب الشديد الذي قام في يوم من الأيام بينها وبين المربية الإندونيسية العزيزة ، والتي كانت تجد فيه التعويض العاطفي عن هجر أمها الحقيقية لها . . الأم التي بصقتها ثم تخلت عنها وآثرت عليها أختها الصغرى . وبدافع من القلق الجنوني وفقدان مصدر الحب الوحيد في حياتها ، انساقت مع أوهامها بعيداً عن العقل والحقيقة ، فغيرت ثيابها وبدلت طريقته في تصنيف شعرها . وغيرت لكنيتها في الحديث كي يقتنع كل من حولها بأنها من الشرق ولا صلة لها بالبلد الذي تعيش فيه .

الاشعورية والعقاب

أما الحوادث التي كانت تقع لها باستمرار ، فقد فسرها الطبيب بأنها محاولات يوحى بها إليها العقل الباطن بقصد أن تعاقب نفسها ، ولعلها تقضى على حياتها جزاء مجيئها إلى الدنيا غير مرغوب فيها ، وما ترتب على ذلك من هجر جميع الأحباب لها وتحول الأصدقاء إلى أعداء لا يعترفون بوجودها ولا يهتمون بما يصيبها . وكان لوضوح هذه الحقائق الخفية أمام عيني « شارلوت » التي اعتبرها الجميع وعلى رأسهم زوجها العزيز مجنونة ، فعل السحر في إيقاظها من عالم الأحلام الذي لاذت به هرباً من الحقيقة ، فارتدت إلى عالم الواقع بالتدريج ، واقتنعت

من تلقاء ذاتها بأنها ذهبت ضحية أوهام لا تدرى كيف سيطرت عليها طول هذه السنين . وعندما اقتنع عقلها الواعي بأن الأفعال ليسوا نكبة على الأهل ، رضيت فرحة بأن تصير أمًا ، وحملت ثلاث مرات وأنجبت صبيين وفتاة أشاعوا الدف والنور في حياتها الزوجية .

وتتلخص الأخطاء التربوية لأهل شارلوت في النقاط التالية :

- ١ - أنهم فطموها عن ثدى أمها قبل الأوان وبلا تمهيد أو تدرج ، مما نقلها بعنف من حال إلى حال وأوهمها بأنها غير محبوبة .
- ٢ - أن أمها بادعائها أنها أخرجتها من فمها قد لعبت دوراً خطيراً في تجسيم مشاعر الانتماء في الطفلة ، وصورت للصغيرة البريئة أنها بُصقت لبشاعتها وعدم الرغبة فيها .

٣ - أنهم بطرد المربية الإندونيسية التي كانت تقوم لها بدور الأم المثالية الثانية قد كرروا أخطاءهم وجردوها من مصدر الحب الوحيد الباقي لها . وعجزوا في الوقت نفسه عن مدها بمصدر بديل يغمرها بالحنان ويحيطها بالرعاية ، ويخفف وجيعه حزنها على فراق مربيتها الحبيبة .

٤ - أنهم بإعادتهم المربية نفسها - ولكن لخدمة الأخت الصغرى - قد دفعوها دون أن يقصدوا إلى الاعتقاد بأن الأصدقاء تحولوا جميعاً إلى أعداء . لأنها لا بد أن تكون فتاة شريرة تستحق الهجر والوحدة وعدم الانتماء ، وبناء على هذا الاقتناع أرادت من غير وعى أن تعاقب نفسها على شرورها ، ومن هنا جاءت الحوادث الخطيرة التي تصاب بها كلما أمسكت بسكين أو نزلت سلمًا أو طافت بأرجاء البيت أو دخلت

المطبخ أو سارت في الطريق . . . ويختم الطبيب عرضه لحالة « شارلوت » مؤكداً أنه ظل يتابع حياتها لمدة سنوات بعد شفائها . فوجد أنها لم تصب مرة واحدة خلال هذه المدة كلها بمغص أو قيء أو حرق أو اصطدام ، وكانت كلما أثيرت قصة انتهائها إلى الزغابة الأسبوعية تضحك عالياً وتزعم أنها كانت دعايات غير جدية . . .

• • •

لمسة المرأة العاجوز!

* كانت « نورا » هى أقرب إخوتها إلى قلب أبيها ... ومع ذلك
فقد كان ذلك الأب هو سبب تعاستها التى وصلت بها إلى
ظلمات المرض النفسى والعقلى . .
كيف ؟ ولماذا ... ؟

بطلمة هذه القصة سيدة شابة فى الثلاثين من عمرها اسمها « نورا » . . .
ولقد عرفها الطبيب لأول مرة حينما جاءه زوجها رجل الأعمال
المعروف يرجوه أن يتولاها بعلاجه بعد أن تخلى عنها طبيبها السابق
فجأة . . . وبعد أن قضت فى رعايته النفسية عشرة أعوام متتالية . . .
وتبين من سياق الحديث أن « نورا » ظهرت عايتها فى الفترة
الأخيرة ميول انتحارية ، الظاهر أنها كانت السبب فى تخلى طبيبها
عنها خوفاً من أن تقتل نفسها وهى لا تزال فى رعايته مما قد يضر
بسمعته المهنية .

كما تبين من الحديث أيضاً أن الميول الانتحارية ليست المشكلة
الأساسية فى متاعب « نورا » . فقبلها بعشرة أعوام بدأت تقع أسيرة
خوف رهيب من أن تتلوث بما اختارت أن تسميه « لمسة المرأة
العجوز » .

أما من تكون هذه المرأة العجوز التى تخشى أن تتلوث بلمستها ،
فقد عجزت « نورا » تمام العجز عن ذكر اسمها أو تحديد شخصيتها ،
وعاشت أسيرة الاعتقاد بأن « لمسة المرأة العجوز » تطاردها فى كل
مكان ، وأنها مضطرة إلى الابتعاد عن كل إنسان وكل شىء حتى
أهلها وأصدقائها وخدمها ، بل ملابسها ومفروشات بيتها . . . خيفة
أن تكون « العجوز » ذات اللمسة القاتلة قد سبقتها إليهم بميكروباتها
الشريرة فتنتقل إليها العدوى من حيث لا تدرى . . .

وكانت نتيجة شذوذ هذه الفكرة المسيطرة على ذهنها أن انهارت
العلاقة تماماً بينها وبين زوجها الذى لم يعد فى استطاعته حتى أن

يضاف إليها ، وإذا اقتضتها الظروف القاهرة أن تجلس بجواره على أريكة
فأحدة أو تشاركه في سريره ، تحرص أولاً على أن تفصل بينها وبينه
بأكوام من الورق المعقم ضماناً لوقايتها من التلوث .

ثم تضاعفت المحنة بالمبول الانتحارية التي أخذت تظهر عليها في
الشهور الأخيرة ، بعد أن أصابها هوس جديد يتمثل في خوفها الشديد
من السير في أى شارع أو ميدان . . أو دخول متجر أو مطعم أو مكان
عام . . يحمل اسماً فيه كلمة « رد » أى « أحمر » ، أو يشبه هذه الكلمة
في أسلوب نطقه ، مما كان يضطرها قبل مغادرة البيت إلى دراسة طريقها
إلى الوجهة التي تقصدها ، ومراجعة أسماء كافة الحيوانات التي ينتظر أن
تمر بها ، على سبيل التأكد من عدم وجود الكلمة التي تشير في نفسها من
الذعر ما يوشك أن يودى بعقلها . . .

وأثارت هذه الحالة العجيبة اهتمام الطبيب النفسى ، فقرر أن
يخاطر بتجربة حظه في علاجها ، ولو إكراماً لزوجها الذى أبدى
من الصبر في احتمال هوس امرأته ما يندر له مثيل في هذه الدنيا ،
وتكبد تضحيات مالية جسيمة ، منذ بداية زواجه بها إلى تلك اللحظة
في سبيل إنقاذها من الهوس المسيطر على ذهنها . .

وكان الطبيب يتوقع بعد كل ما عرفه عن حالة « نورا » أن يرى
امرأة غير عادية في منظرها العام ، ولكن عندما وقعت عليها عيناه
لأول مرة فوجئ بما يفوق جميع توقعاته السابقة ، فقد وجد أمامه جسمًا
نسائيًا مكوراً من الصعب تمييز معالمه المختلفة ، بسبب الأورام والالتهابات
الشديدة التي تغطي جلده من أعلى الجبهة إلى أسفل القدمين . .

فالوجه منتفخ أحمر كأنه سلخ بعنف وشدة . . والذراعان والساقان والأصابع في حالة من الاحتقان والتورم تجعل من العسير على صاحبتهما أن تحركها بسهولة . . أما القدمان فقد تضاعف حجمهما حتى لم يعد في الإمكان إدخالهما في حذاء ، مما اضطر المريضة إلى الحضور لزيارة الطبيب بفعل زحاف لا كعب له ولا غطاء . .

وبمناقشة « نورا » في أسباب هذه التسلخات والالتهابات المروعة ، عرف الطبيب أنها نتيجة للاستحمام المستمر . . فخوفها من التلوث بلحسة المرأة العجوز يدفعها مع كل صباح جديد إلى الحمام لتنظيف جسدها بالصابون والمواد المطهرة ، ولا تكاد تنتهي حتى يتملكها رعب جديد من أن تكون « لمسة المرأة العجوز » قد عادت إليها ، فتبدأ عملية الاستحمام من جديد . . مرة بعد مرة . . حتى تخور قواها فتسقط على الأرض مغشياً عليها !

وبرغم هذا الهوس الخفيف بالنظافة اشمأزت نفس الطبيب حين رأى قذارة شعرها ، فلقد تكومت على هذا الشعر طبقات من الدهون والقاذورات حولته إلى ما يشبه العجين الأسود . . كذلك كانت ملابسها الداخلية غاية في القذارة ، فشدت صدرها وسروالها وقميصها ففقدت لطول الاستعمال بياض لونها واستحالت إلى شيء رمادي مقزز . .

وسأل الطبيب مريضته عن أسباب هذا التناقض ، فاعترفت له بكل بساطة أنها لا تغسل رأسها ولا تغير ملابسها الداخلية سوى مرة واحدة في السنة ، لأنها على حد قولها « تعرف » أن شعرها نظيف ،

ثم إنها تستحم طول النهار ، وفي ذلك ما يكفي للإبقاء على ملابسها الداخلية نظيفة . .

كان واضحاً أن حالتها المرضية معقدة جداً .

وبعد عدة جلسات بات واضحاً لماذا هرب منها طبيبها السابق بعد عشر سنوات متصلة من محاولات العلاج . .

فـ «نورا» لم تكن ترغب في أن تتكلم عن طفولتها ، مع أن جذور المرض كانت ولا شك تختفي بين طيات هذه الفترة البعيدة ، وكلما حاول الطبيب أن يدفعها إلى الحديث عنها تهز رأسها غاضبة ، وتلزم الصمت بشكل عنيد واضح ، أو تتشائل عن الكلام بتغطية الأريكة المخصصة لاستلقاء المرضى أثناء الجلسات النفسية بالورق المعقم الذي تحمله دائماً معها وقاية لها من لمسة المرأة العجوز . . .

أب ديكتاتور

يُزَير أن الطبيب عرف كيف يتحايل على عنادها بأساليبه العامية الجديدة ، فلم يمض عام على بداية علاجها معه حتى أخذت تتكلم عن طفولتها ببساطة وصراحة ، وبذلك فتحت أمامه أبواب عقلها الباطن المغلقة ، ومكنته من أن يصل إلى قرار العقدة التي ذهبت برشدها ، ويطنوئوبها إلى السطح حيث انعقل الوعي القادر على تصفية العقد ورد العقل إلى توازنه الطبيعي . .

وروت «نورا» على توالى الجلسات قصة حياتها من بدايتها : كانت الابنة الثالثة بين أربعة أبناء لأسرة على مستوى اجتماعي

واقتصادى رفيع ، فالأب رجل أعمال مثر معروف فى جميع الأوساط الراقية التى يتحرك فيها بمبالغته فى التعالى والاعتداد بالكرامة . . . ولقد نالت أسرته نصيب الأسد من صلافته هذه ، إذ كان يحكم أهل بيته بدكتاتورية لا تقبل المراجعة . . الكلمة دائماً كلمته . . والرغبة دائماً رغبته . . والويل لمن يناقش حقه فى فرض إرادته ، لأنه كما يعتقد فى نفسه أقوى وأعمق وأبعد نظراً من الناس كلهم ، وكرامته الشاحنة كالجبل ، الأشم لا ترضى له أن ينزل إلى مدارك الاعتذار عن غلطة ، أو الرجوع فى رأى أو مجرد مناقشة حكم أو أمر يصدره أو رغبة يباديها . .

والعادة فى أمثال هذا الرجل المتعنت فى تقديره لنفسه نحو شخصية كل من حوله ، وهو ما حدث بالضبط فى أسرة «نورا» ، فأمها كانت امرأة سلبية لا تجرؤ على الوقوف أمام زوجها ولو فى أبسط الأمور . . تؤمن به إيماناً راسخاً ، وتجب رغباته حرفياً ، ولا تهتز ولو قليلاً لألوان بطشه بأبنائه وسيطرته التامة على حياتهم ، كأنهم عرائس خشبية يحرك خيوطها بأصابعه الصلبة . . لكن هذا الدكتاتور الباطش كان يحب «نورا» أكثر مما يحب أبنائه الثلاثة الآخرين ، ويؤثرها فى بعض المناسبات بجانب من العطف والحنان ، وقد عرفت هى بذكائها كيف تستغل ميل أبيها إليها فى حماية أختها الصغرى - أحب إخوتها إليها وأقرب الباقيين إلى قلبها - . . من بطش الأب واستبداده بها ، وأولتها من رعايتها وحبها ما لم توله لأخيها وأختها الكبرى ، مما جعل العلاقة بين الاثنين مضرب الأمثال فى الأسرة .

والظاهر أن طغيان شخصية الأب واستبداده بأفراد أسرته أقاما حاجزاً بينه وبين قلب «نورا» ، فبالرغم من تحيزه الواضح لها في ظروف عدة . لم تكن في الحقيقة تشعر نحوه بالحب الكافي . . . تخافه أكثر مما تطمئن إليه . ولا تشعر بالخدمة النفسى النماء إلا في غيبته . . . غير أنها كانت تعجب به إلى أبعد حدود الإعجاب . . . تتصوره سيد الرجال جميعاً وأقواهم وأصلبهم عوداً . الرجل الذى لا يتراجع ولا يعتذر ولا يخنى رأسه لأحد ، لأن كرامته الشاحنة تأبى عليه أن يهبط من عليائه إلى مستوى الإنسان العادى الذى يحامل غيره ويعترف بخطئه . ولا يأنف من أن يتعامل مع الناس بالأسلوب المعتاد . . . وفى هذا الإطار النفسى العجيب مرت السنوات السبع الأولى من طفولة «نورا» .

وبدخولها مرحلة الصبا أخذت تظهر عليها مواهب موسيقية طيبة ، فأحضر لها أبوها خيرة المدرسين فى «البيانو» ، ولم يمض وقت طويل إلا وقد أخذت تبنى تقدماً مطرداً يبشر بمستقبل عظيم . . . وعندما بلغت الخامسة عشرة من عمرها وضحت معالم عبقريتها فى البيانو ، ووجدت هى طريقها الصحيح فى الحياة ، فقررت أن تحترف الموسيقى عندما تصل إلى المستوى اللائق بالاحتراف ، وعقدت كبار الآمال على هذه الغاية التى تعرف أنها تحقق لها سعادة العمر كله . . .

غير أن الأمور تعقدت فجأة أمام «نورا» : فما إن علم الأب برغبتها فى احتراف الموسيقى حتى ثار ثورة عارمة ، وأعلنها كلمة

لا تقبل المناقشة أنه لن يسمح لابنة له أن تصبح موسيقية : فهذه مهنة لا يليق مضائقاً بكرامة رجل عظيم مثله : وعليها أن تمتنع من الآن بأن « البيانو » لتسليتها فقط ، وأنها منيها بلغت من العبقرية في عزفه ، فلمن يسمح ذا بأن تستغله في أى مجال آخر . .

الآمال المبهرة

وما بين غمضة عين وانتباهتها وجدت « نورا » جميع آمالها في الحياة تهاجر فجأة ، والسعادة التي تمنى النفس بها تذهب إلى غير رجعة . : واهتزت أحوالها عموماً بهذه الصدمة : وبان الأثر بفقدانها القدرة على التركيز في دراستها الموسيقية ، فتخلفت فيها بسرعة ، وهبط مستواها الفني بدرجة كبيرة : :

واشتدت المتاعب بـ « نورا » عندما أتاها أبوها ذات يوم بشاب غنى من أصدقاء الأسرة ، وكانت تعرف ما جبل عليه هذا الشاب من ثقل الظل وضعف الشخصية ، فغضبت لرغبة والدها في فرضه عليها ، وأعلنت حقها في أن تختار شريك الحياة الذي يرضاه قلبها ، مثلما تفعل فتيات جيلها في العالم المتقدم بأجمعه :

لكن الأب الذي لم يعترف في يوم من الأيام بوجود « لا » في قاموس التعامل مع أفراد أسرته ، قسا غاية القسوة في زجره لابنته العاصية ، وأفهمها بوضوح أنه صاحب الحق الأول والأخير في تقرير مصيرها ، وله هو دون غيره سلطة اختيار الرجل الذي يليق بها أن تتزوجه ، وما عليها سوى الطاعة والرضا : :

تضاعف عجزها عن التركيز ، كما هجرها النوم حتى كانت تقضى معظم الليل تنقلب في سريرها وهي في حالة من التوتر العصبي العنيف . :
 وقلت شهوتها للطعام فلم تعد تستطيع أن تصيب منه ولو بعض ما يكفي للحفاظ على نشاطها وحيويتها ، فالتأبها الضعف ، وهزل جسدها ، واختفت دماء الشباب من وجهها ، وحلت محلها صفرة تنبئ بصراحة عن مدى ما تعانيه من تدهور في صحتها .

وعندما ساءت حالتها ، طلبت من أهلها أن يسمحوا لها باصطحاب أختها الصغرى - أحب أخوتها وأقربهم إلى قلبها . . إلى أحد المصايف الجبلية ، لتقضى وإياها هناك عطلة هادئة ترد لها ما فقدته من عافيتها . :

زواج بالإكراه

ولم يعارض الأب في هذه العطلة ، فسافرت مع أختها إلى المصيف المنشود ، وهناك قابلت شابا أحمر الشعر نافذ النظرات ، لم يسبق لها أن رآته ، بل لم يقدر لها بعد ذلك أن تراه ثانية طيلة حياتها ، فسلمت له نفسها برغم أنه لم يكن يتميز على أى إنسان عادى بشيء على الإطلاق ، ولم تشعر نحوه خلال الأيام الثلاثة التي قضاها نزيلا في الفندق نفسه بحب يبرر تضحيها الجسيمة . :

وبمجرد أن فعلت ذلك قطعت عطلتها وعادت بأختها إلى بيت الأسرة . . :

والعجيب أنها لم تتردد قط في مصارحة أمها بغلطتها ، فبمجرد عودتها إلى البيت ألقت برأسها على صدر أمها ، وروت لها وهي تبكى بحرقاة

ما حدث بالتفصيل . وألحت في ضرورة إعفائها من الزواج بالشاب الغنى باعتبار أنها فرطت في نفسها مع غيره ، والواجب الأخلاقي يفرض عليها الابتعاد عن حياته . .

ونقلت الأم القصة إلى زوجها ، فإذا بالصاغية لا يبدى اهتماماً لسقطة ابنته . ويمضى في عناده متمسكاً بضرورة اقترانها بالشاب الذي اختاره لها ، متوعداً بالقطيعة والحرمان من الميراث إذا لم ترخص لإرادته وتطع أميره .

وعندما ضاق الخناق بالفتاة إلى هذه الدرجة ، سلمت أمرها لله ، وأعلنت رضاها عن الزواج بالشاب الذي كانت دائماً تنفر منه وتحتقر ضعفه .

وتم الزواج بالفعل ، وتركت « نورا » بيت أبيها إلى بيت زوجها . . وفي خلال شهر العسل بدأت متاعبها النفسية تسفر عن وجهها ، فأخذت تعاني من الاكتئاب النفسية التي تسبب لها شعوراً بالقلق الموجه . . وإزاء تدهور الحالة النفسية لـ « نورا » اضطر زوجها إلى عرضها على طبيب نفساني كبير ، استطاع في الأيام الأولى أن يكسب ثقمتها ، فاعترفت له بما فعلته مع الشاب المجهول خلال عطلتها ، وأبدت غاية الندم على سقطتها التي تتعارض تماماً مع تدينها الأصيل وإيمانها بالعفة والطهارة . .

وأراد الطبيب أن يحررها من عقدة الشعور بالذنب ، فنصحها بالاعتراف لزوجها . .

وعملت « نورا » بنصيحة طبييها ، وروت لزوجها قصة الغلطة التي

ارتكبتها ، فإذا بها تفاجأ بأنه كان يعرف الموضوع من بدايته ، ولا يرى فيما فعلت ما يدعو للمؤاخذه . .

وكان المفروض بعد ذلك أن تخف وطأة الضغوط النفسية التي تعذب حياة «نورا» ، غير أن الظروف السيئة توالى وكأنها قد تكاثفت على تحطيمها . . فالأب الغنى القوي الجبار أصيب بصدمة مالية عنيفة أطاحت بتجارته وأورثته الإفلاس التام ، مما اضطره إلى إذلال نفسه بالاقتراض من زوج ابنته واستعطافه أن يعفيه من السداد إلى أن تتحسن أحواله . .

وفي خضم هذه الأزمة المالية التي أحالت الدكتاتور إلى ما يشبه المتسول ، وقعت الأخت الصغرى في حب فنان رشيق وسيم ، ولكنه مغمور وفقير ، فإذا بالأب الذى سبق له أن أذاق «نورا» الأمرين لتمسكها بحقها في أن تتزوج بمن تحب ، يحنى رأسه أمام رغبة ابنته ، ويتركها تخطط لحياتها بما يرضى رغبات قلبها ، مشغولا بمتاعبه المالية عن ممارسة سلطانه القديم . .

لمسة العجوز

وحدث في تلك الآونة أيضاً أن كانت «نورا» تعاني أزمة في الخدم ، فأثاها زوجها بعجوز حمراء الشعر نافذة النظرات لتساعددها في الأعمال المنزلية ، فشعرت «نورا» بنفور شديد منها ، وأرادت أن ترحلها فور مجيئها ، غير أن زوجها تمسك بضرورة بقائها في البيت إلى حين العثور على غيرها . .

ولم تقض العجوز ذات الشعر الأحمر في خدمة الأسرة سوى ثلاثة أسابيع فقط . .

لكن هذه المدة القصيرة كانت كافية لإحداث الدمار النهائي . .
 فنذ خروجها من البيت أصيبت « نورا » بهوس الخوف القاتل من التلوث بلمسة المرأة العجوز ، وتطور بها هذا الهوس إلى الدرجة التي وصفناها في بداية القصة : فأصبحت تقضى يومها بكامله في الحمام . . تغسل جسدها مرة بعد الأخرى . . وتظل تعيد هذه العملية إلى أن يغلبها الإرهاق فتسقط مغشياً عليها . . كما تسبب الغسل المستمر والتطهير الدائم في احتقان جلدها وتسليخه فتورمت ذراعها وساقاها ، وانتفخ وجهها وجسدها وتقرحت عيناها . . مضافاً إلى ذلك الورق المعقم الذي حرصت على أن تغطي به كل شيء يمكن أن يلمسها ، وتكومه على صورة حاجز بينها وبين زوجها إذا جمعتهما سرير واحد ، وهو أمر نادر الحدوث . .
 أما ميولها الانتحارية فقد ظهرت عقب الهوس الذي أصابها ، وجعلها تخاف السير في أى شارع أو ميدان أو دخول حانوت أو متجر يحمل كلمة « رد » أى « أحمر » أو يشبهها في طريقة النطق ، الأمر الذي أدى بها إلى عدم الخروج من البيت لأية مهمة قبل أن تدرس الطريق إلى وجهتها ، وتتأكد من خلوة تماماً من الكلمة المرعبة . .

ومثلما حدث في تصرفاتها الماضية ، لم تستطع « نورا » أن تفسر السبب في رعبها من « رد » ، ولكن الضغط الناتج عن هذه الكلمة بلغ في نفسها أقصاه ، مما دفعها إلى التفكير في الانتحار تخلصاً من العذاب الدائم الذي تعيش فيه . .

معنى القصة

ويقول الطبيب النفسى الذى تولى علاجها إجابة لرجاء زوجها :
 إن كل إنسان فى هذه الدنيا يعانى بشكل أو آخر من تسلط فكرة معينة
 توحى إليه بتصرفات يقوم بها بطريقة لا شعورية ، ويكررها المرة تلو
 المرة دون أن يستطيع تفسير دوافعه إلى ذلك . . فمن الناس مثلاً من
 يحرص على تنظيف منفضة السجائر بعد كل سيجارة تطفأ فيها . أو يغسل
 يديه بعد مصافحته لأى إنسان . . أو ينظر تحت السرير قبل أن ينام
 كل ليلة . . أو يلمس يده كل عمود للنور فى أثناء سيره فى الشارع . .
 وكل الذى يعرفه الشخص من تكراره مثل هذه الأفعال التلقائية ، أنه
 يأتيها دون وعى ، ولا يستطيع الكف عنها بدافع من شعور مجهول
 لا يدركه . .

ومثل هذه التصرفات التى تستهلك من صاحبها أو صاحبها وقتاً
 وجهداً وطاقة كان من الممكن الاستفادة بها فى جهود أخرى أكثر فائدة
 لحياته ، غير أن العلم يؤكد أن هذه التصرفات (ون من الدفـاع عن النفس
 ضد رغبة تكمن بين طيات العقل الباطن ، ولو أفصححت هذه الرغبة
 عن نفسها بصراحة لتسببت لصاحبها فى أضرار جسيمة خطيرة ، لذلك
 نجدها تتخفى وراء تصرفات تافهة عديمة المعنى فى الظاهر وليس فى
 ممارستها ضرر ما . .

ولكى تنقطع هذه التصرفات ينبغى على المحلل النفسى أن يتعمق فى
 حياة المريض — خصوصاً فى فترة الطفولة ذات القابلية الهائلة للتأثر بما

يجرى حولها من أحداث - لكي يصل إلى جذور المتاعب الخفية التي تسلمت إلى العقل الباطن واختبأت بين ضيائه، نتيجة لذكريات قديمة ارتبطت بأحداث الماضي كما ارتبطت بأحداث الحاضر، ونسجت من هذا الارتباط عقداً أعلنت عن وجودها بتصرفات شاذة كثيراً ما تؤدي إلى الجنون التام، إذا لم تجد من يعالجها بالأسلوب العلمي الصحيح . .

وهذه الحقيقة تنطبق على حالة «نورا» كن الانطباق، فقد نشأت في ظل أب جبار . يحرص دائماً على أن يظهر أمام الجميع بصورة الإله الذي لا يلين ولا يعتذر ولا يخطيء، أب يؤمن بأنه صاحب السلطان الوحيد في تصريح أمور أسرته، وليس لأحد من أفرادها الحق في اختيار طريقه أو ممارسة رغباته المشروعة، أو بناء شخصيته في ظل ما وهبه الله من إرادة وميول . .

ولقد كان من ألوان استبداده الأعمى أن حرم ابنته الحساسة الفئانة من إعداد نفسها لمستقبل موسيقى، وبذلك أنزل بها الضربة النفسية الأولى، ثم جاءت الضربة الثانية حين فرض عليها زوجاً كانت دائماً تحتقره وتنفر منه . . ولما دفعها روح المقاومة إلى الإلقاء بنفسها في أحضان شاب غريب لم يسبق لها أن رآته، ولم يقدر لها بعد فعلتها أن تراه ثانية، لم تثر كرامته للزلة في حد ذاتها إنما ثار لمحاولة ابنته التهرب من تنفيذ رغباته . . وبذلك كشف عن حقيقته فجأة أمام ابنته، وبدد جانباً لا يستهان به من هالة العظمة والوقار التي كان يحرص على إحاطة نفسه بها أمام جميع أفراد أسرته، وأثبت بتصرفاته أن قضية العرض لا تهمه في الواقع، لكن الذي يهمه هو غروره الشخصي .

وجاء ذلك بمثابة الصدمة النفسية الثانية لـ «نورا» .

أما الصدمة الثالثة المدمرة فقد ترتبت على انهيار مكانته الاقتصادية وما تبعها من ضيعة ماله وإفلاسه . والأقسى من ذلك أن وجدته ابنته التي كانت لا تزال إلى هذه اللحظة تراه في صورة الرجل الأني المتعالي ، يتدنى بنفسه إلى درجة الاقتراض من زوجها ، وينزل كرامته أمامها وأمام زوجها بعجزه عن دفع ديونه واستعطافه أن يمهله إلى ميسرة . .

فقد أطاحت هذه الأحداث المتتالية بكل ما كانت «نورا» تبنى عليه حياتها وأحاسيسها وأفكارها ، وتركتها أمام حقائق تتناقض تماماً مع كافة ما عاشت خلال طفولتها وصباها تتصوره لنفسها وأهلها فالأب المتكبر الأني الجبار تحول إلى مسئول حقير . . والرجل المتعنت في تطبيق مبادئ الشرف والأخلاق لم تتحرك شعرة في رأسه عندما أهدرت ابنته شرفها مع عابر سبيل حقير . . وعميد الأسرة المتسلط ، صاحب الحول والقوة الذي منعها من أن تتزوج برجل من اختيارها ، وفرض عليها غنيّاً وجيهاً لا تحبه ولا تحترمه . . نفس هذا الرجل عندما شغفت ابنته الصغرى بفنان مغامر فقير تركها تسير بحياتها وفق رغباتها ، ولم يبد أدنى معارضة ، مشغولاً عن مبادئه الأولى بتملق صهره الثرى ومحاولاته الدليلة للاقتراض منه . .

ويقول الطبيب النفسي أيضاً إن فجعية «نورا» في أبيها كانت الطعنة الكبرى المسمومة لتوازنها النفسي ، وقد اختلطت جذور هذه الطعنة بوجيعة السقطة التي ارتكبتها بدافع من الرغبة في التخلص من الزوج المفروض عليها ، ويعارضها تماماً مع روح التدين الشديد التي شبت عليها

وتمسكت بها طول حياتها ، فظهرت نتيجة هذا الخليط في صورة الأفكار المتسلطة ، التي تسببت أولاً في حرمانها من القدرة على التركيز ، ثم دفعت بها بعد ذلك إلى الاستحمام المستمر ، كتعبير عن رغبتها الدفينة في أن تتطهر من دنس الغلظة الأخلاقية البشعة التي ارتكبتها في خلال عطلتها الصيفية بالجبل .

ثم ازدادت العقد تشابكاً والهوس عنفاً بالخادم العجوز التي أثارت بشعرها الأحمر ونظراتها النافذة ذكريات المغامرة الغرامية المشثومة ، وركزت العقد والمتاعب كلها في هوس الخوف من التلوث بلمسة المرأة العجوز ، والرعب من أى اسم يحمل كلمة «رد» أى أحمر أو يشبهها في النطق ، وهي الكلمة التي ظهر من التحليل النفسى أنها وردت في اسم الشاب كما أنها تقرن بلون شعره .

وبتوفيق العالم النفسى في استخراج عقد «نورا» من بين طيات العقل الباطن ، والارتفاع بها إلى سطح العقل الواعى ، شفيت المريضة من كافة متاعبها ، ولم تعد تخاف من لمسة المرأة العجوز أو من كلمة أحمر . غير أن زوجها كان قد فرغ صبره نهائياً ، فلجأ إلى القضاء يطلب الطلاق ، وما إن حكم له به حتى تزوج شابة أخرى سليمة العقل صافية النفس ، مما دفع بنورا برغم شفاؤها إلى الاعتكاف بأحزانها بعيداً عن الناس ، وقضاء ما تبقى لها من العمر وحيدة حزينة كسيرة القلب . . . ويتضح من هذا التحليل أن أخطاء الأسرة نحو «نورا» تتلخص فيما يلى :

* أن والدها منعها من ممارسة هوايتها الموسيقية دون وجه حق .

• وأنه حرّمها حقها في اختبار الزوج المناسب ، وفرض عليها رجلاً كانت تحتقره وتنفر منه .

• أنه لم يبد هو ولا زوجها بعد ذلك اهتماماً بغلظتها مع الشاب الذي قابلته في عطلتها ، وثبت لها من ذلك أن الاثنين يدعيان الدين والتمسك بالشرف على غير أساس . .

• أن الأب المتعالى الذى فرض على ابنته أن تراه دائماً في صورة الجبار القوى ، لم يتورع — حين أصابته الكارثة المالية — عن أن يمد يده إلى صهره كالمسولين .

1
2
3
4

1

«كارين» تسعى إلى الشقاء!

« كيف تستطيع الطفولة أن تحطم كيان الإنسان وهبط به إلى عالم التماسه والشقاء . . . إن قصة «كارين» قصة الطفولة التعسة التي ينبغي أن يقرأها الآباء والأمهات ليتعلموا منها بعض الدروس . . . »

عندما بلّأت « كارين » إلى الطيب النفسى لأول مرة فى حياتها ،
لم تكن تعرف على وجه التحديد نوع المتاعب التى تعانيتها وتشقى حياتها .
فلقد بدت هذه المتاعب متشعبة متشابكة ، ومع ذلك لم تستطع أن
تجد بينها صلة واضحة يمكن أن تعتبرها المرجع الرئيسى للمحن المختلفة
التي تأبى إلا أن تلاحقها فى كل خطوة تخطوها ، سواء أكان ذلك فى المجال
العاطفى أم المحيط المهنى . .

كانت « كارين » فى ذلك الوقت قد بلغت الثامنة والعشرين من
من عمرها . . غير متزوجة ، وعلى درجة علمية عالية قلما تتوافر لمثيلاتهما
من الفتيات الأمريكيات . . وبفضل هذا المؤهل العلمى الممتاز تأتى لها
أن تشغل وظيفة مرموقة ذات طابع قانونى بالإدارة العامة لاتحاد عمال
صناعة النسيج ، كما استطاعت بجهودها وذكاؤها أن تغنى الاتحاد
عن مستشار قانونى قد يكلفه مبالغ طائلة ، وأن تحرز لنفسها شهرة فى
الأوساط العمالية المختلفة : فالمدكرات التى كانت تكتبها للمحاكم فى
حالات التقاضى أثارت غاية الإعجاب فى الاتحادات الأخرى ، مما كان
يدفع بالمشرفين عليها إلى دعوتها لمحاضرتهم فى النقط القانونية التى يمكن
الاستفادة بها فى المشاكل العمالية . .

ومن حيث الشكل كانت « كارين » تعتبر ولا شك جميلة ،
فقوامها رشيق متناسق . . وشعرها غزير لامع . . ونظرات عينيها الحضراوين
الواسعتين حانية توحى بالحنان والعاطفة . . وتقاطيع وجهها — وإن لم تكن
صغيرة دقيقة — غنية بالجازبية النسائية . . والأمر الوحيد الذى يمكن أن
يعتبر نشازاً فى جمالها هذا هو الاصفرار الملحوظ الذى يشوب بشرة

وجهها البيضاء الناعمة ، هذه الصفرة التي توحى ببعض الاعتلال الصحي .
كما كانت تمشي في عرج ملحوظ . . . تسحب ساقها اليمنى كأن تلك
الساق مضابة ببعض الشلل . . .

ولقد علم الطبيب النفسى من سياق حديثها أنها لم تلجأ إليه من أجل
صفرة وجهها ولا شلل ساقها ، إنما جاءت ترجو معونته على التخلص
من الأحلام المخيفة التي تطاردها في نومها كل ليلة ، وتحرمها حقها
المشروع من الراحة الضرورية لامرأة مثلها تشغل وظيفة ذات مسئولية
كما شكت له التعاسة النفسية الشديدة التي تستولى عليها لشعورها بأن قطار
الحياة أوشك أن يفوتها . . . أو هو فاتها بالفعل دون أن تستمتع بلحظة
واحدة من السعادة ، مع أنها بصفتها وخلالها أحق من غيرها بأن تعيش
في هناء وراحة . . .

وسألها الطبيب النفسى عن الأحلام التي تحرمها نعمة النوم ، فاعترفت
بأنه حلم واحد لا يكاد يتغير في صلبه وتفاصيله ، ولقد بدأ هذا الحلم
يطاردها وهي لا تزال صبية صغيرة ، فكانت كلما استسلمت للنوم
بالليل تحلم بأن والدها ينهال على فتاة صغيرة بالضرب المبرح حتى ليكاد
يقتلها . . . أما من تكون تلك الصغيرة فهي لا تعرف ، لأن وجهها ظل في جميع
الأحلام مطموساً غير واضح المعالم . . . وبقي هذا الحلم مصدر عذابها
الدائم . إلى أن أخذت تكبر واقتربت من مرحلة المراهقة . . . عندئذ تغير
الكابوس ، ولم يعد الأب يضرب طفلة غريبة ، إنما كانت تراه في الحلم
يضربها هي ، ويظل يضرب ويضرب إلى أن تستيقظ صارخة مואلة ،
وتقضى بقية الليل ترتجف في فراشها . . . وعندما يشرق الصباح تجد أن

ساقها اليمنى قد توقفت عن الحركة أو كادت ، وتضطر في مشيها إلى أن تجرّها بهذه الطريقة التي تسيء إلى رشاقتها وتنقص من جمالها . .

ويحدث أحياناً أن يخفى الحلم الخفيف ، وتمضى شهور دون أن تراه في نومها فتكتسى بشرتها بحمرة الصحة والعافية ، وتسترد ساقها اليمنى قدرتها الكاملة على التحرك البريء من أى عيب . . ثم يعود الحلم إلى مطاردتها . فتعود معه متاعبها الصحية ويصيبها العرج مرة أخرى . .

ثم إن عملها باتحاد عمال صناعة النسيج ، برغم ما فيه من أسباب الرضوية النفسية لأية امرأة متعلمة طموح مثلها ، يكاد يقضى على حاضرها ومستقبلها نظراً لأنها كثيراً ما تضطر أن تعمل في مكتبها لمدة ست عشرة ساعة متواصلة في اليوم الواحد ، بسبب استغلال رؤسائها وزملائها لها واعتمادهم عليها في أداء واجباتهم . ومع ضخامة عملها فقرتها ظل ضئيلاً ، وأحياناً يقطعونه عنها شهوراً متتالية بحجة الضائقة المالية التي يعاني الاتحاد منها ، مع أن آثار هذه الضائقة لا تشمل أحداً من الموظفين الآخرين . . فالجميع حتى صغار مرءوسيه ينالون مرتبات أكبر من مرتبها ، ويتقاضون هذه المرتبات بانتظام ، سواء كان الاتحاد يعاني ضائقة مالية أم لا يعانيها ، غير العلاوات السخية التي لم تشملها مرة منذ بداية عملها إلى ذلك الحين . .

وتعترف « كارين » للطبيب النفسي بأنها ولا شك امرأة منحوسة كتب لها الله العذاب والشقاء إلى آخر لحظة في عمرها . . فحياتها العاطفية تسير على نفس الوتيرة التعسة . . رجال يخدعونها بمظهرهم البريء ، فتتعلق بالواحد منهم ، وتخلص له الحب والوفاء ، وبينما هي في غمرة أحلامها السعيدة بعش الزوجية الذي يوشك أن يجمع بينهما ، تفاجأ

بهجر حبيبها لها ، وذهابه عنها إلى غير رجعة . . . ولقد تكررت هذه
المأساة مرات ومرات حتى أصبحت تخاف لرجان وتهرب من محبتهم
خوفاً من أن يعذبوها ثانية مثلما عذبها إخوانهم من قبل . . .

وها هي ذى وقد بلغت الثامنة والعشرين من عمرها تجد أنها قضت
حياتها هباء ، فلا راحة في النوم ولا تقدير في العمل ، ولا صداقة تبذل
وحشة الوحدة التي تعانيها ، فحتى النساء اللاتي يناسبنها في السن والمزاج
والعقلية . يرحبن بصداقتها في البداية ثم لا يلبثن أن يهربن منها بعد
قليل ، برغم ما تبذله من جهود مضية في الاحتفاظ بمودتهن . . .

كانت هذه مشكلة « كارين » التي لحأت إلى الطبيب النفسي من
أجلها ، راجية أن تجد لديه العلاج بعد أن فشل الأطباء الجسديون في
معونتها . . .

وتبين الطبيب من أول لحظة أن الفتاة تعاني من محنة نفسية معقدة ،
تتطلب منه أن يعود بمريضته إلى الوراء ليستخرج من بين طيات عقلها
الباطن أبعد الذكريات التي أثرت على حياتها . . . وأبدت « كارين »
في أول الأمر مقاومة شديدة في العودة بذكرياتها إلى الوراء ، وحاولت
مراراً وتكراراً أن تهرب من الحديث عن الماضي بحجة أن طفولتها كانت
تعيسة ، وليس من المصلحة إحياء آلامها العديدة . . . لكن لسانها لم يلبث
أن أخذ في الانطلاق تدريجياً ، فعلم الطبيب أنها الابنة الكبرى بين الثلاثة
الذين رزق بهم والداهما . . . وكان الثاني صبيّاً أصغر منها بثلاثة أعوام ،
والثالثة أختاً ولدت بعد أخيها بسبع سنوات كاملة . . .

وبما استوقف اهتمام الطبيب من البداية أن وجد « كارين » تذكر

كل ما يتصل بشقيقتها . أما أختها الصغرى فقد انمحي من ذهنها كل ما يتصل بالسنوات الأولى من عمرها ولم يبق منه شيء على الإطلاق . . . ورغم الجهد المضني الذي بذله في دفعها على تذكر أيام طفولتها مع أختها الصغرى ، ذهب الجهد هباء . وظلت هذه المرحلة من حياتها محوطة من ذهنها تماماً . . .

ولقد وجد الطبيب في هذه الظاهرة مفتاح السر لمغاليق نفسها . فليس من المعقول أن تنسى كل ما يتصل بطفولة أختها التي ولدت بعدها بعشرة أعوام كاملة ، إلا إذا كان لهذه الأخت صلة مباشرة بالانهيار النفسي الذي أصاب « كارين » في شبابها . . .

مفتاح السر

وبفضل هذا المفتاح استطاع الطبيب أن يدفعها إلى الكلام ، فروت له قصة حياتها في بيت أبيها التريز الكبير المعروف ، الذي كان منذ بداية حياته يصنع الثياب للأثرياء ويكسب من المال ما يفيض عن حاجة أسرته الصغيرة . . . ثم جاءت الأزمة الاقتصادية التي اجتاحت الولايات المتحدة في الثلاثينات ، وانعكست آثارها بشكل واضح على الصغار والكبار على السواء ، فكسد حال الأب بعد انتعاش ، وتدهورت بشدة موارده المالية . . .

وكانت « كارين » في تلك الأيام طفلة غير جذابة على الإطلاق : سمينة الجسم أكثر مما يلائم سنها . . . باهتة الشعر مشعثته . . . تقاطيعها تبدو وكأنها متنافرة غير متناسقة . . . ولعل شكلها هذا أثر في تقدير

والديها لها . . أو هذا ما صورته لها طفولتها . . فأهملوا الاهتمام بها بدليل
الثياب القبيحة التي كانت دائماً ترتديها . ولم تحاول أمها في يوم من
الأيام أن تصلح من شأنها . .

وقدمت « كارين » لطبيها في معرض أحاديثها الطويلة صورة
حقيقية لحياتها أيام طفولتها . . فالأزمة الاقتصادية التي حلت بالأسرة
بعد رخاء أثرت على أعصاب أمها ، وجعلتها دائمة الثورة والتذمر . . فمسئولية
تدبير شئون الأسرة بالمال الضئيل الذي يأتيهم مع الجهد المضني الذي
تبذله في أداء واجباتها المنزلية وخدمة زوجها وطفليها ؛ أطلقت لسان الأم
بالشكوى المستمرة ، ورسمت على وجهها طابع الضيق والغضب ، ولم تجد
متنفساً لمتاعبها سوى ابنها التي لم تزل في عمر الزهور ، فصبت عليها جام
متاعبها الكثيرة ، فكانت تهمها دائماً بالكسل والحمول ولا تكف عن
تأنيبها على ما تتصوره عدم تقدير منها للإرهاق الذي تعانيه من أجلهم .
والتضحيات البليغة التي تقدمها في سبيل راحتهم . . وكلما حاولت
« كارين » أن تثبت حسن نواياها وإخلاصها ، تزداد ضراوة الأم عليها ،
مؤكددة خبثها وشرها وتفاهتها ، ومع أنها كانت تهملاً ظالمة ، غير أن الفتاة
اهتزت لها ، وأصابها قلق نفسي شديد خوفاً من أن تكون حقيقة عاقبة
شريرة كما تؤكد أمها . .

وتلفت الفتاة الصغيرة حولها تبحث عن مصدر للحب يؤنس حياتها
بعد أن فقدت الأمل في التمتع بعطف أمها . . فلم تجد أمامها سوى والدها
الرجل الهادئ الصامت . . الجامد المتعالي . . الطويل القوي الوسيم الذي

عرف على عكس أمها - كيف يحتفظ بوقاره وأناقته برغم ظروف الفقر التي تمسك بخناقهم . .

وتركزت عواطف « كارين » في شخص هذا الأب . وأصبح بمثابة الكعبة التي تتوجه إليها بجميع ما تملكه من مشاعر وأحاسيس . .

وبرغم أنه لم يكن يبدى اهتماماً ظاهراً بها ، أو يحاول من جانبه أن يخفف من طغيان أمها في معاملتها . غير أن تعاطفها الشديد إلى الحب دفعها إلى أن توهم نفسها بأنها ابنته المفضلة ، وأنه يخفى وراء تكشيرته الظاهرة الباردة الحامدة شغفاً شديداً بها يحرص على كتمان أمره عنها مراعاة لمشاعر أمها . .

كانت تريد بهذا التصور أن تخفف محنة الحرمان العاطفي الذي تعيش فيه . .

ولقد تركت لتصوراتها العنان . حتى أصبحت واثقة بأنها حبيبتها الوحيدة في الحياة وليس له داخل البيت أو خارجه من حبيبة سواها . .

وعاشت تتغذى بهذا الخيال الذي صنعه لنفسها ، إلى أن ظهرت بوادر الحمل على أمها وأصبح معروفاً للجميع أنها تنتظر مولودها الثالث . .

وطول مدة الحمل لم تجد « كارين » في حمل أمها ما يدعو إلى القلق والانعراج ، لأنها كانت واثقة فيما بينها وبين نفسها بأن أحداً في هذه الدنيا لا يستطيع أن يشاركها في قلب أبيها . . ثم إن الطفل القادم . . أيّاً كان نوعه . . لا بد أن يقاسى الأمرين من سوء أخلاق أمها ، ويحتاج لحبها هي على سبيل التعويض ، فتعطيه ما حرمته من رعاية وعناية وحنان .

وظلت على هذا الظن حتى حان موعد النوضع ، وانتقلت الأم إلى المستشفى ، ولم يبق في البيت من النساء سواها . .

وزينت لها طفولتها الغريرة أن تنهز الفرصة وتحل محل أمها في كل شيء ، حتى ما يختص بأدق شئون أيها : فكانت تستقيظ كل يوم مع الفجر . لتكنس البيت وتعد الطعام قبل موعد المدرسة وفي المساء تسهر على كي الملابس ، ورزق ما تمزق منها . .

وبرغم الجهد المضني الذي تقوم به . كانت هذه الفترة أسعد أيام حياتها . فلقد استطاعت أن تقنع نفسها بأنها المرأة الوحيدة في حياة والدها ، وأنها بوجودها معه قد عرفت كيف تنسيه أمها !

وذات ليلة قررت بسذاجتها أن تكمل الصورة تماماً . فارتدت أجمل قميص للنوم تملكه ، وأسرعت قبل عودة والدها إلى غرفة نومه ، وتمددت في السرير المزدوج مكان أمها . وكشفت عن ساقها اليمنى في شكل إغراء اقتبسته من أحد أفلام السينما . ثم تظاهرت بالنوم في انتظار عودة أبيها .

وعاد الأب متعباً من الخارج ، وبعد أن ازدرد نصيبه من الطعام ، غير ثيابه واتجه إلى فراشه . لكنه لم يلبث أن رأى ابنته ، فتوقف في مكانه لحظة ، وبعدها مد يده يغطي ساقها العارية وانسحب إلى غرفة المعيشة ، وقضى ليلته نائماً على الأريكة . .

ولم تعد « كارين » إلى هذه الفعلة مرة أخرى ، فقد ردها تصرف والدها إلى الحقيقة المرة التي لم تشأ قبل ذلك أن تواجهها أو تفكر فيها . . وعرفت أنها ليست زوجة هذا الرجل بل ابنته فقط ، ولقد ارتكبت

بحماقتها إثمًا كبيراً يغضب الله ويستحق عقابه القاسى . .
 وشاءت الظروف بعد ذلك أن تزيد من متاعب « كارين » النفسية .
 فبعودة الأم من المستشفى تحمل طفلها الجديدة ، رأت الجميع يولون
 هذه الدخيلة التافهة كل اهتماماتهم . . يعنون بها . . ويحنون عليها . .
 ويحرصون على راحتها وسلامة صحتها . . حتى الأب الصامت الحامد المتعالى ،
 لم يكن يتورع عن الابتسام حين ينظر إليها وهي ترقد كالسردينة فى
 سريرها الصغير . . وبرغم الضنك المالى الذى يعيشون فيه ، لم يكن يتردد
 فى تدبير المال الضرورى لشراء الأغذية والملابس الضرورية للطفلة
 الجديدة : .

واعتبرت « كارين » أن هذا العمل أشنع خيانة يرتكبها أبوها
 فى حقها . . .

وتجسست لها بشاعة هذه الخيانة حين شككتها أمها لأبيها ذات يوم
 بسبب تمردها على معاونتها فى أداء الخدمات المنزلية ، فلم يكن من الأب
 الذى عاشت عمرها تتصور نفسها أحب أهل البيت إليه إلا أن قام ولطمها
 بعنف على وجهها ، مع أنه لم يسبق له مطلقاً أن لجأ فى زجرها أو زجر
 أخيها العفريت الصغير إلى التأديب البدنى ولو فى أبسط صورة . . .

كانت هذه الحادثة فى حياة الفتاة بمثابة القشة التى قصمت ظهر
 البعير . فقد لجأت بعدها إلى المغالاة فى العناد والتمرد ، وعندما حل العيد ،
 وصنع لها أبوها بنفسه ثوباً جديداً رفضت أن ترتديه ، وآثرت أن تظل
 بملابسها القديمة العتيقة على أن تقبل جميلاً من الإنسان الذى خان عهداً
 وأهدر كرامتها وأذلها . .

ومع أنها ظلت طوال عمرها مثلاً لتفوق الدراسي ، وبعد انتهاءها من دراستها الثانوية وتحاقها بجامعة ونجاحها بامتياز في السنة الأولى طلب منها أبوها أن تبحث عن عمل تعيش من دخله ، لأنه يرغب في أن يدخر نقوده لتعليم ابنه الصبي بجامعة ، مع أن هذا الابن كان دائماً بليداً لا يليق ولا يصلح للشهادات الدراسية العالية . .

وفي اليوم نفسه الذي علمت فيه من أبيها بهذا الخبر حملت حوائجها ، وخرجت من البيت إلى غير رجعة . . والتحقّت بعمل مع استمرارها في الدراسة ، حتى أمكن لها أن تحقق حلمها الأكبر وهو الحصول على شهادة جامعية تكسيها هيبة اجتماعية ، وتوفر لها فرص الاشتغال بالمهن المحترمة وثبت للعالم أنها هي التي تصلح للدراسة في الجامعات لا أخوها . .

ومع أنها حققت لنفسها ما تبتغيه ، غير أن الأحلام المخيفة كادت تهلك صحتها ، واستغلال زملاء لها أطاح براحتها وهنائها ، ثم كان إعراض النساء عن صداقتها ، وهرب الرجال من الزواج بها حكماً عليها بالوحدة والعذاب اللذين أوشكا على الإطاحة برشدها .

الطبيب يقول

ويقول الطبيب النفسى الذى استغرق علاج « كارين » منه سبعمائة ساعة : وهى مدة بالغة الطول بسبب تشابك العقد التى أصابها : إنه كثيراً ما يحدث للطفل الصغير عقب مولد أخ له ، أن يصاب بسلسلة من الأحلام المفزعة التى يرى فيها والده يضرب طفلاً آخر . . ومعنى ذلك أن الصغير يرى فى مولد الأخ أو الأخت مشاركة له فى حب والديه ،

فيسمى بمثل هذا الحلم إلى أن يقول لنفسه : « إن أبى لا يحب سوى .
 وإنه يكره الطفل الجديد ولذلك يضربه . . . » و . . . ومثل هذا الحلم
 يعبر عن الغيرة الشديدة التى تتأبه وتدفعه إلى أن يتمنى الأذى لمن تفضل
 على حياته ، واستأثر دونه بالحب الأبوى . .

وإذا كان الصغير طيباً حساساً بطبعه مثل « كارين » ، فقد
 يشعر فى قرارة نفسه بالندم الشديد على رغبته فى إيذاء أخيه أو أخيه ،
 والنتيجة أن يصاب بمركب الذنب فإذا بالحلم يتحول إلى العكس تماماً ،
 فيرى فى نومه أن أباه يضربه هو بعد أن كان يضرب غريمه عقاباً على
 سوء نواياه السابقة . . . ومما ساعد على تعميق شعورها بالذنب نحو أختها ،
 أن تلك الأخت الصغيرة التى كانت تحقد عليها لاستيلائها على مشاعر
 والديها دونها ، أصيبت أكثر من مرة بأمراض خطيرة كادت تودى بحياتها ،
 فتصور لها أنها السبب بنقمتها على وجود هذه الأخت وتمنياتها بأن يصيبها
 من الأذى ما يزيحها من طريقها . .

فإذا أضفنا إلى ذلك عقدة الذنب التى أصابت « كارين » حين
 أغرتها سداجة الطفولة بمحاولة اقتحام فراش أبيها لتعويضه عن زوجته
 الغائبة . فقد تبينت بعد هذه الفعلة أنها ارتكبت إثماً بمشاعرها الخاطئة ،
 وقد أذنت أمام ربها بالتجاءها إلى تعرية ساقها بقصد إغراء أبيها ،
 فنالت العقاب بالشلل الوهمى الذى أصابها . وجعلها تعتقد أنها مشلولة
 فتسير وهى تجر ساقها التى استعانت بها فى يوم من الأيام على تحقيق
 حماقاتها . . بل جزاء رغباتها الدفينة فى أن تنصرف فى حربها مع أمها من
 أجل الاستحواذ على أبيها . . فلقد كانت تحاول بعقلها الباطن أن تنتزعه

من أمها وتضمه إلى جانبها لكي تثبت لنفسها أنها حبيبة الوحيدة في الحياة ولا حبيبة له غيرها . . . وظلت هذه الرغبة الدفينة تسيطر عليها . . . بل كثيراً ما تجعلها تنمى لو أن هذه الأم تموت وتفسح لها مجال التنعم بعواطف أبيها . . . وهي بلا شك تمنيات ورغبات تعرف بعقلها الواعي أنها محرمة وعقاب الله عليها أمر لا بد منه . . . فكأن الأحلام المفرعة والساق العرجاء كانتا بمثابة العقاب الذي أرادت به « كارين » بعقلها الباطن دون عقلها الواعي أن تنزله بنفسها جزاء السيئات التي أرادت بها .

ويقول الطبيب إن المصابين بمثل هذه العقد تتغير أخلاقهم تحت وطأة متاعبهم النفسية . فيبتلون بالحساسية المفرطة التي تجعل معاملاتهم مع أى رجل ينتمى إلى طبقة آبائهم غير محتملة بسبب ما تنطبع عليه هذه المعاملة من أثقال وإلحاح ورذالة لا يمكن احتمالها . . . فكل كلمة تبدر من أولئك الناس ، أو أى تصرف برىء . يجرح مشاعر الإنسان المعقد ، ويثير في نفسه من الشجن والأحزان ، ما يدفع الآخرين إلى الهرب من صحبته والزهد في حبه أو صداقته . . .

وهذا ما ينطبق تماماً على « كارين » فلقد تسببت بإلحاحها وأثقالها من أجل اكتساب صداقة الناس ورضاهم . أن حرمت نفسها من فرص الصداقة والزواج ، ودفعت العاملين معها إلى استغلال ضعفها أمامهم ، فكانوا يلقون إليها بأعمالهم . ويأكلون حقها في المرتب الذي تستحقه والعلاوات التي كان ينبغي أن تنالها دون غيرها ممن هم أقل منها علماً وكفاءة . . .

فهى بتفوقها في دراستها القانونية وامتيازها في أداء عملها القانوني الذي

جلب لها الشهرة في جميع اتحادات العمال الأخرى . كانت تسعى إلى أن تثبت لنفسها وبحميع من حولها أنها مثل الفتى القدير الذي أتكره وألدها حين حرمتها من الاستمرار في دراستها الاجتماعية برغم تفوقها . وأمرها بقسوة أن تبحث لها عن عمل كي يدخر من المال ما يغطي نفقات دراسة أخيها لكسول بالجامعة . .

ثم إنها بتصرفاتها مع المعجبين بها . تلك التصرفات التي دفعتهم إلى الحرب منها . . ومع النساء اللواتي كانت تسعى إلى صداقتهن فكانت النتيجة أنها لم تنجح في الاحتفاظ بواحدة منهن . . ومع الزملاء الذين أحسنت معاملتهم فاستغلوها في القيام بأعمالهم المرهقة . . ومع الرؤساء الذين تفانت في إرضائهم فضنوا عليها بمرتبها وحرموها من العلاوات والترقيات المشروعة في كل هذه المجالات كانت تلعب دون أن تدري دورها مع والديها وإخوتها . . . دور الإبنة الوفية المحرومة من العطف . والأخت الضعيفة المظلومة . . فتثقل في ضغطها على الناس لكي تنتزع منهم أكبر قدر من العواطف التي افتقدتها في صغرها ، مما كان يحول حبها أو صداقتها أو زمايتها إلى عبء ثقل يثير الضيق والتذمر ويغري بالاستغلال . .

ويؤكد الطبيب أنه حين أفلح في الوصول إلى قرارة عقل « كارين » الملباطن ، ودفع العقد المخفية بين طياته إلى العقل الواعي ، تغيرت مريضته من حال إلى حال . . انقطعت عنها الأحلام المفزعة تماماً ، واستعادت ساقها قدرتها على السير القوى السليم . . كذلك اكتسبت ثقة بالنفس دفعتها إلى مواجهة رؤسائها بشجاعة ومطالبتهم بحقوقها الكاملة ، فإذا بهم - على غير ما كانت تتوقع - يرفعون مرتبها إلى المستوى اللائق ، ويكفون عن

تكليفها بالأعمال الاستثنائية ويحترمون كافة حقوقها المهنية والإنسانية . . .
ولم يمض على شفاؤها عام واحد إلا والتقت بالرجل المناسب ،
فتزوجته وبدأت بصحبته تستمتع بالحياة الأسرية السعيدة . . .
ويمكن تلخيص الأخطاء التي ارتكبتها والداه دون قصد فدمرت
نفسيتها بالنقط التالية :

١ - أنهما لم يعداها مسبقاً لتقبل فكرة مجيء المولود الجديد ، ولم
يحاولا أن يربطاها عاطفياً به ، فلما وجدتهما في شغل شاغل به اعتبرته
غريباً ومنافساً لها . .

٢ - أنها حين ركزت عواطفها كلها في أبيها لم تجد منه أدنى تجاوب
يروي عطشها الشديد إلى العطف والمحبة . .

٣ - أنها حين عمدت إلى العناد والعصيان والتمرد كتعبير عن رفضها
لوضعها العائلي بعد مولد أخيها ، لم يحاول أبوها أو أمها أن يفهما الدوافع
الحقيقية لتصرفاتها ، واعتبراها شقية شريرة ، ف لجأ إلى القسوة في تأديبها ،
وبذلك ضاعفا محنتها النفسية مما جعلها تعتبر نفسها إنسانة مسكينة يتيمة ،
مهجورة لا أحد يريد لها ولا إنسان يهتم بوجودها .

٤ - أنها حين وقعت فريسة للأحلام المخيفة وأصيبت بالشلل العصبي
لم يستطع أحد ممن حولها أن يدرك أنها محنة نفسية تحتاج إلى إحصائي نفسي
ينقذها منها . .

عند ما ينقم الابن على أمّه

- كيف تحوّل « بيلى » الهادئ المتدين إلى وحش مفترس يقتل أمه في شخص أخرى ؟
- ولماذا تحولت « تيريز » .. الفتاة الوديمة إلى أداة في يد صديقها .
- تساعد على قتل أمها ؟

يعتبر الجانب الشرقى من حي «مانهاتن» الواقع في قلب مدينة نيويورك البوتقة التي تنصهر فيها أنواع مختلفة من الأجانب النازحين إلى الولايات المتحدة هرباً من الفقر في بلادهم ، مثل اليهود والأيرلنديين والإيطاليين والصينيين والبولنديين وأهل پورتوريكو : .

وفي البداية كانت أحوال هذا الجانب من حي «مانهاتن» سيئة للغاية ، وتفاقم خطرهما على الأمن نتيجة لتجمع المجرمين ورجال العصابات في أزقتها ، واتخاذهم من أوكارها المظلمة قواعد للاعتداء على القانون : . وظل الأمر كذلك إلى أن قررت الحكومة الأمريكية أن تضع حداً للشرور التي تنبعث من هذه البقعة الموبوءة : وتحقيقاً لهذا الغرض قامت وزارة الإسكان هناك بهدم جميع المباني القديمة ، وشيدت مكانها عمارات حديثة مزودة بجميع أسباب الحياة الصحية الحديثة اللائقة بسكنى الطبقات المحترمة من الناس : . لكن هذا التغيير الجسيم لم يستطع أن يقضى تماماً على الجريمة بهذا الحى ، فما زالت أسباب الأمن هناك غير مستتبّة ، وبين حين وآخر تنفجر موجة من العنف يهتز لها المجتمع الأمريكى استنكاراً : .

ومن ذلك ما حدث ذات يوم من شهر مارس عام ١٩٥٦ بإحدى العمارات المحترمة القائمة بالحى المذكور . ففي إحدى الشقق الصغيرة بهذه العمارة كانت تسكن سيدة في الثالثة والأربعين من عمرها أسمها « مسز جريش » مع ابنتها الوحيدة « تيريز » وهى تلميذة في بداية المرحلة الثانوية لم تبلغ من العمر الخامسة عشرة بعد : .

وفي صباح اليوم المذكور ، بينما كان المشرف على المبنى يقوم بجولته

النصباحية ، اشم رائحة كريهة تفوح في ممرات الطابق الثالث ، وبتتبع مصدر هذه الرائحة تبين نه أنها تأتي بشدة وعنق من شقة « مسز جريش » التي تتألف من غرفة واحدة داخلها خزانة وخارجها مضبخ وحمام ، فأخذ المشرف يدق الجرس ليستطلع من الساكنة أو ابنتها أسباب هذا العفن الشديد ، لكن أحداً لم يجبه ، وبسؤال الجيران الذين يشغلون الشقق المجاورة : أجمعوا على أنهم لم يروا السيدة المذكورة وابنتها منذ أسبوعين على الأقل ، وأن غيابهما لم يثر اهتمامهم نظراً لتباعدهما عن الجميع منذ البداية ونفورهما الواضح من عقد أواصر الصداقة ، أو حتى المعرفة البسيطة مع أحد ممن يسكنون معهما في العمارة :

وإزاء هذا الكلام لم يبق للمشرف مفر من إبلاغ الشرطة ، فجاء ثلاثة منهم وفتحوا الباب بصحبة ومعونة المشرف ، فهاجمهم من داخلها رائحة عفن شديد ، غير أنهم لم يعثروا في البداية على ما يبرر الرائحة حتى دخلوا الحمام . وأدهشهم أن يجدوا المغطس - أو « البانيو » - مليئاً بالعلب الفارغة والكاسارولات وأدوات الطهو المختلفة ، وبإزالة هذه الأشياء فوجئوا بجثة متعفنة بلغت من التحلل درجة أخفت معالمها ، ولولا الثياب التي ترتديها ما أمكن التحقق من أنها « مسز جريش » . . وبالتشريح ثبت أن الجريمة وقعت قبل ثلاثة أسابيع من اكتشافها ، وأن « مسز جريش » القتيلة مصابة في مجموعتها بثلاث ضربات جبارة من آلة صلبة - مثل « شاكوش » - كما أنها طعنت في جسدها بعدة سكاكين كبيرة حادة ثمانياً وعشرين طعنة . ست منها أصابت القلب مباشرة وحولته إلى ما يشبه كتلة من اللحم المفروم : : على حد تعبير الطبيب الشرعي :

وكانت « مسز جريش » عند العثور عليها ترتدى معطفها وقبعتها .
 وتحيط رقبتها بملحنة صوفية خفيفة ، مما يدل على أنها قتلت عقب عودتها
 من عملها إلى البيت وقبل أن تخلع ثياب الخروج ، لكن التفتيش الدقيق
 لم يصل إلى أثر لحقبة يدها ، كذلك لم يعثر على أية نقود بالشقة . مما بدا
 كأنها راحت ضحية لص خطير شاء حظها التعس أن تفاجئه في أثناء
 سقوطه على بيتها ، الأمر الذي دفعه إلى قتلها تخلصاً من المأزق . . . غير أن
 هذا التفسير لم يلبث بعد دراسة الموضوع أن بدا غير مقنع بالمرة . فاللص
 لا يبتغي عادة سوى الحرب ، ولذلك تكفيه ضربة أو ضربتان لتعويق ضحيته .
 في حين أن « مسز جريش » مضروبة أربع مرات بالشاكوش على
 رأسها . ومطعونة بعدة سكاكين حادة ثمانية وعشرين طعنة في جسدها ،
 وهو إجراء ينم عن الحقد والرغبة المجنونة في الانتقام . . .

ومن هنا بدأ المحققون يتساءلون عن الشخص الذي يحمل لاسيده
 الكادحة المتباعدة كل هذه المشاعر الشريرة ، ثم « تيريز » .. الابنة
 الصغيرة الهادئة بشهادة صديقاتها الكثيرات .. أين هي الآن ياترى ؟ وماذا
 حل بها ؟

وظلت الشرطة تبحث وتنقب عن يستطيعون أن يمدوها بمعلومات
 تعينهم على كشف الستار عن هذه المجزرة البشعة ، إلى أن تم العثور على
 أخت مسز جريش تسكن في الجانب الآخر من مدينة نيويورك ،
 وتعيش وحدها في مسكن هادئ بعيداً عن ضجيج الحياة وعجيجها .
 وبسؤالها أخبرتهم أنها ليست على صلة وثيقة بأختها برغم المشاعر الطيبة
 التي يتبادلانها ، وكثيراً ما تمضى شهور دون أن تتصل الواحدة منهما

بالأخرى . لكن حدث منذ أسبوع أن جاءتها « تيريز » وهى تبكى بحرقة لأن أمها سافرت مع حبيب لها لقضاء عطلة غرامية فى فلوريدا ، وتركها بدون نقود تعيش منها . وأنها اضطرت لما اشتد بها الجوع أن تشول اللقمة من صديقاتها . . . وأكدت أخت « مسز جريش » أن الصبية كانت عند حضورها غاية فى الانفعال ، وهزال الجوع يبدو واضحاً عليها ، فأخذتها بها الشفقة ، واستضافتها عندها إلى أن تعود الأم الحقةاء من رحلتها لغرامية ، ويمكن محاسبتها على إهمالها الذريع لابنتها الوحيدة التى مات أبوها وهى لم تزل رضيعة وليس لها عائل فى الدنيا سواها .

ودهش رجال الشرطة لهذا الكلام ، وذلك أن الطبيب الشرعى الذى قام بتشريح الجثة . . أثبت أن الجريمة وقعت قبل ثلاثة أسابيع من اكتشافها ، كما أن الجثة ظلت طيلة هذه المدة راقدة فى المغطس ، فى حين أن « تيريز » لم تستجد بحالتها إلا منذ أسبوع ، فأين كانت تعيش خلال المدة السابقة لذلك ؟

وأقبلت « تيريز » من الخارج فى تلك اللحظة ، ولما سئلت عن أمها أعادت ما سبق أن قالته لحالتها بالحرف الواحد ، كما اعترفت بأن أمها ، برغم كفاحها المهنى المرموقة ب إحدى الشركات الكبرى ، كانت مسرفة فى علاقاتها الغرامية ، وكثيراً ما كانت تعود إلى البيت بصحبة رجل غريب . وبما أن الشقة لا تحتوى إلا على غرفة واحدة ، فقد كانت تأمر ابنتها بالخروج إلى الشارع وعدم العودة قبل الساعة الحادية عشرة مساء . . . وكثيراً ما تضطر الفتاة فى مثل هذه الحالات إلى التسكع فى الطرقات ، والتعرض لإهانات السكارى والفاسدين إلى أن يحين الوقت المسموح لها

بالعودة فيه : . وأحياناً ترفض الفتاة تنفيذ أوامر أمها . فتضطر . مسر جريش » تلافياً لتعكير صفو متعتها مع صديقتها . أن تحبس ابتها في الخزانة الواقعة خلف غرفة النوم . إلى أن ينتهى اللقاء ، فتطابق سراحها . وروت « تيريز » كيف أنها شعرت ذات مرة وهي محبوسة في الخزانة برغبة شديدة في الذهاب إلى دورة المياه . فظلت تطرق الباب من الداخل دون أن تعيرها أمها إهتماماً إلى أن انصرف الضيف ، فأخرجت الصبية من حبسها :

وبسؤالها عن مكان إقامتها خلال الأسبوعين السابقين لالتجائها إلى خالتها . أقرت بصراحة أنها لم تترك الشقة ، وأكدت أنها لم تشم رائحة عفنة ، كما أنها لم تدخل الحمام طيلة هذه المدة ، نظراً لقضاها معظم الوقت مع صديقاتها في بيوتهن حيث الحمامات الأنيقة المدفأة .

وبرغم الإشتاق الشديد الذى كان المحقق يشعر به نحو هذه الابنة المسكينة ، لم يجد مفرّاً من مكاشفتها بما حدث لأمها ، وكيف وجدوها في المغطس قتيلة متعفنة ، فصرخت « تيريز » باكية وظهر عليها الإنهيار الشديد مما استدعى نقلها إلى المستشفى لإسعافها . .

غير أن شفقة المحقق على « تيريز » لم تلبث أن أخذت في التضاؤل ، حين أعيد تفتيش الشقة الخاصة بمسر جريش ، وتم العثور على أدوات الجريمة موضوعة في الأدراج العادية دون أدنى محاولة لإخفائها . . وكانت آثار الدماء عالقة بها وجميعها من الممتلكات المنزلية ، وليس من المعقول بعد أن عاشت الفتاة في بيت الجريمة أسبوعين كاملين أن تكون قد فاتتها

رؤية هذه الأسلحة الدامية أو فاتها ملاحظة العفن الشديد الذى يملأ أجواء الشقة . .

كان واضحاً أن النصبية تكذب ، وأنها تعرف من الحقيقة أضعاف ما أدلت به للمحققين .

البت وصديقها

وبدأ البحث والاستقصاء من جديد فى أحوال « تيريز » وسلوكها ، فتكشفت أمور جديدة ، منها أنها كانت فى الشهر الأخير تصاحب صبياً فى السابعة عشرة من عمره على أكثر تقدير ، كان أصحابه يعرفونه دائماً باسم « بيللى سنايدر » ثم إذا به يفاجئهم بتغيير هذا الاسم إلى « بيللى بايرز » . . وأكد شباب البحيرة أن « تيريز » كانت تعيش معه فى شقتها خلال المدة السابقة لاكتشاف الجريمة ، بعد أن ادعت زواجها به وأرثهم الخاتم الماسى الذى اشتراه لها بهذه المناسبة . . وكثيراً ما كان العروسان يقيمان الحفلات الصاخبة فى المسكن المذكور ، ويقدمان لضيوفهما كميات هائلة من الخمور لا تتناسب مطلقاً مع إمكانياتهما المادية المحدودة ، وبطلقان لهم الحرية الكاملة فى السلوك والتصرف ، إنما بشرط ألا يقترب أحدهم من غرفة الحمام . . ولكم أبدى الضيوف المرحون نفورهم من رائحة العفن التى تملأ الشقة ، لكن « بيللى » و « تيريز » كانا دائماً يتهربان من هذا الموضوع ، وإذا ضيق عليهما الخناق يعطيان مبررات غير مقنعة بالمرّة :

وعاد المحققون إلى « تيريز » يضغطون بالسؤال حتى كشفت لهم عن الحقيقة ، واعترفت بأن صديقها « بيللى » هو الذى قتل أمها بعد أن كذبت عليه الفتاة وادعت أنها حامل منه ، كما قالت له إن أمها « مسز جريش » لن توافق على زواجهما نظراً لصغر سنها ، ولأنها سبق أن شكت فى علاقة الاثنين فأمرت « تيريز » بالابتعاد عنه . : ولقد حدث القتل فى وجود البنت وبمعونتها، إذ كانت هى التى تناول الشاكوش والسكاكين المختلفة : . وتعاون الاثنان على وضع الجثة فى المغطس ، وقاما معاً بتغطيتها بأدوات المطبخ ، وبعد ذلك أخذتا يلعبان لعبة العريس والعروس ، فلبست « تيريز » خاتم أمها فى أصبعها وأعادت ترتيب مفروشات البيت بما يلائم مزاجهما : . وإتماماً للعبة أقاما الولاثم الصاخبة للمراهقين والمراهقات من أهل الجيرة ، وأنفقوا على تلك الولاثم من النقود التى استولوا عليها بعد الجريمة ، احتفالاً بالزواج الوهمى . ثم التحق « بيللى بايوز » الذى كان يعرف من قبل باسم « بيللى سنايدر » بالبحرية الأمريكية ، وتركها خلفه على وعد بأن يعود للزواج منها عندما تسنح الفرصة . : ولما فرغ ما تبقى معها من نقود أمها ، لجأت إلى خالتها طلباً للمأوى والطعام مبررة ذلك بالقصة الخيالية لرحلة الغرام فى فلوريدا . كما قدمت الصبية للمحققين آخر رسالة وصلتها من صديقها وفيها يقول بالحرف الواحد : : : علمت من خطاب بعثت به أمى إلى أنك منذ اليوم الأول لغيابى وأنت تخونينى مع أبناء الجيرة ، فلنصح ذلك لأكون قد ارتكبت جريمة

القتل بلا أدنى مبرر

واستناداً إلى هذا الاعتراف الصريح قبض على « بيللى » وجيء به مكبلاً بالحديد من وحدته في البحرية . . . ولقد حاول في البداية أن ينكر الجريمة ، ولكنه لم يلبث أن اعترف حين علم بأن « تيريز » غدرت به وأدلت بالحقيقة . . . والعجيب أنه تكلم بغاية الصراحة . . . ولم يترك صغيرة أو كبيرة إلا أدلى بها تفصيلاً فيما عدا عدد الطعنات التي وجهها : إذ أصر بعناد على أنه ضربها بالسكين مرتين لا ثمانية وعشرين مرة كما جاء بتقرير الطبيب الشرعى ، وقال في دهشة واضحة حين اطلع على التقرير المذكور : « أذا أعرف أن أحداً لم يقتلها سوى ، ولكنى لا أتذكر غير الطعنتين الأوليين فقط . . . وعندما سئل : لماذا ترك الجثة في المغطس هكذا ولم يبذل أدنى جهد لإخفائها والتخلص منها ، أجاب مستنكراً بحدة : « إننى كاثوليكي متدين ، أخاف ربى وأحترم عقيدتى ، ولا يمكن أن يقبل ضميرى أن ألقى بها دون أن تنال حقها من الاحتفال الدينى اللائق بالدفن . . . » . ولما سئل لماذا لم يهرب عقب ارتكابه الجريمة لينجو من العقاب ، أجاب قائلاً بمنتهى البراءة : « لم تخطر لى هذه الفكرة على بال » . . . وعندما قيل له فى نهاية التحقيق إنه ارتكب جريمة قتل مع سبق الإصرار وعقاب مثل هذه الجريمة هو الإعدام ، هتف يقول فرحاً : « أرجو أن تسمحوا لأمى بأن تحضر التنفيذ ، لكى ترائى بعينها أحترق على الكرسي الكهربائى . . . » مع أنه ثبت فى التحقيق أنه الابن الوحيد لأمه ، وكان يعبدها مثلما كانت تعبده ، وقد ظل دائماً المثل الطيب للابن المطيع البار ، والطالب المجتهد الناجح مما يتنافى تماماً مع رغبته فى أن تحضر

إعدامه تشفياً فيها . . كذلك استوقف اهتمام المحققين أنه في جميع أحاديثه عن المخبي عليها ، لم ينطق مرة باسم « مسز جريش » ، إنما كان يذكرها دائماً بكلمة « أمى » : فيقول مثلاً : « وعندما دخلت أمى الشقة هاجمتها بالشاكوش والسكين ، ثم جررت أمى إلى الحمام ووضعتها في المغطس . . وبالنقود التي وجدها في حقيبة أمى ودولابها أقمنا لأصدقائنا الحفلات الصاخبة . . إلخ » وبالإضافة إلى هذا كله ظهر أيضاً أن الصبي ظل يعيش مع والديه « مستر ومسز سنايدر » إلى أن تقدم للالتحاق بالبحرية ، ورجوعه إلى الأوراق الرسمية المطلوبة في هذه المناسبة ومن بينها شهادة ميلاده ، اكتشف لأول مرة أنه ابن سفاح ، أنجبه أمه قبل سنوات من زواجها بسنايدر ، ذلك الرجل الطيب الذي احتضنه وأعطاه اسمه لكي يحبه عار مولده . . وكانت مفاجأة رهيبة دفعت الصبي إلى التخلي عن لقبه الذي ليس من حقه أن يحمله ، وأن يستبدل به لقب « بايرز » وهو اسم جده لأمه ، ثم ارتبكت أحواله السلوكية وانقلب من حمل وديع إلى شيطان رجيم ، وتم هذا التحول الرهيب خلال شهر واحد وهو الشهر الذي تصادف أن قابل فيه « تيريز » وصادقها .

وبعد كل هذه الاعترافات الصريحة لوحظ أن « بيللى » قد حل عليه هدوء عظيم ، فكان ينام في السجن طوال الليل ملء جفنيه ، ويتناول وجباته كاملة، وظلت الابتسامة مرتسمة على شفتيه خلال المحاكمة التي بدأت في شهر يناير عام ١٩٥٧ ، وكانت « تيريز » بالكاد قد بلغت الخامسة عشرة عندئذ، وهو ما زال في السابعة عشرة ، والاثنان أصغر من حوكم بجريمة القتل مع سبق الإصرار في تاريخ ولاية نيويورك السابق

غذه الحادثة . وتمشياً مع قانون هذه الولاية الذي يعتبر أن الخامسة عشرة هي الحد الم شروع لأعتبار المتهمين بالغين بحيث يخضعون لأحكام الإعدام إذا توافرت أركان سبق الإصرار في ارتكابهم للجرائم .

يريد الإعدام !

ومراعاة للعوامل الإنسانية التي تجيز للقاضي في تلك البلاد التمهيل على القانون رحمة بالأحداث . رأى القاضي أن القتاتلين أصغر سنًا من أن يصح إعدامهما ، فطلب إليهما إتمام استعدادده لتخفيف الحكم أن يعترفَا أمام المحكمة بالإدانة في التهمة الموجهة إليهما . . فقبلت « تيريز » عن طيب خاطر ، وبالفعل استبدل إعدامها بالسجن المؤبد . . أما « بيللى » فقد رفض ذلك بتاتاَ برغم إدراكه التام لتبعة هذا الرفض . . وبالرغم من رجاء أمه واستعطاف محاميه ظل على عناده معللا موقفه الانتحارى بأمله في أن يحصل على البراءة !

ولما فشلت جميع الجهود في إثناؤه عن موقفه ، لم يسع القاضي سوى أن يصدر عليه الحكم بالإعدام على الكرسي الكهربائى . وبمجرد أن نطق القاضي بالحكم دهش الحاضرون جميعاً عندما سمعوا « بيللى » يصرخ بأعلى صوته في أمه ويتهمها بالفسق والفجور والدعارة ، ويستنزل اللعنات على رأسها برغم ما كان يبدية نحوها من حب واحترام وإعزاز إلى ما قبل صدور الحكم بدقائق معدودات .

هكذا دخلت « تيريز » الصغيرة السجن لتقضى ما تبقى لها من الحياة بين جدرانها . .

أما « بيللى » فقد نفذ فيه الحكم بعد مضى عام على انتهاء محاكمته .
فكان أصغر من أعدم فى التاريخ الحديث لولاية نيويورك . .

وفى خلال العام الذى قضاه فى السجن قبل إعدامه . كلف طبيب
نفسانى كبير ببحث حالته . وكان الطبيب يلتقى به ثلاث مرات فى
الأسبوع الواحد : يناقشه ويستدرجه بوسائله العلمية إلى الإفشاء
بدخيلة نفسه بقصد الوصول إلى خفايا عقله الباطن ، وما يكمن بين
طيات اللاوعى من دوافع أدت إلى انقلابه المفاجئ من صبي كاثوليكي
متدين مذهب مطيع إلى سفاح رهيب لا يكتفى بالقتل فقط : بل يظل
يطعن ويطعن بالسكين مسدداً ضرباته إلى قلب المحنى عليها مباشرة . مما
حول ذلك القلب إلى كتلة من اللحم المفروم على حد تعبير الطبيب
الشرعى الذى قام بتشريح الجثة . .

ويؤكد الطبيب النفسى أن السر كله يكمن فى الصدمة التى تلقاها
حين اضطرته ظروف التحاقه بالبحرية إلى الاطلاع على شهادة ميلاده
لأول مرة فى حياته ، ومعرفته بسر مولده . . فاكتشافه أنه ابن سفاح
لا ينتمى بصلة إلى الرجل الذى ظل منذ بداية حياته يعتبره أباه ويحبه من
صميم قلبه . . قد هز الصبي من الأعماق ، وأطاح بحكمته ووقاره ،
وماداه بالحق على الدنيا ومن فيها من الناس والمبادئ والتقاليد . . ويدلل
الطبيب على ذلك بما جاء على لسانه حين علم بأنه عرضة لحكم الإعدام .
وقوله عندئذ : « . . أرجو أن يسمحووا لأمى بحضور التنفيذ كى ترى
بعينها كيف أحترق على الكرسي الكهربائى . . » ثم انفجاره فى شتم أمه
وتوجيه أقذع النعوت إليها عند صدور الحكم . . فلقد كان لشدة تعلقه

بها واحترامه لما يعتبرها خير الأميات وأشرف النساء .. امرأة ليس لها مثل في الفضل والأخلاق .. وبهذه الفكرة والتصور عاش إلى أن بلغ السادسة عشرة ثم إذا به فجأة يواجه العكس تماماً . فمن كان يتصورها سيدة النساء تحولت إلى زانية ، وإرضاء لنزواتها البهيمية الخاصة تأتى إلى هذه الدنيا بأبن برىء ، وتصمه بعار مولده مدى حياته . . تلقى به إلى رجل غريب يعوضها بكرمه عن قذارة ودناءة الآخر الذى استولدها الصبي المسكين ، ثم هجرها بلا رحمة ولا شفقة .

ولقد بلغت قمة هذه الأم في رأيه ، أن وجدت لديها المرأة - وهى التى فسقت بنفسها وجلت ابنها بالعار - أن تعارض فى صداقته بـ « تيريز » وتوافيه بأنباء خياناتها له مع أبناء الجيران . . وبذلك صورت نفسها فى صورة العاهرة التى تشى بعاهرة أخرى ، وترميها بما سبق أن فعلته وهى فى سن أكبر وفى ظروف تمكنها من التمييز بين الخطأ والصواب . .

وعندما أرادت « تيريز » أن تحضه على الإسراع بالزواج منها ، وكذبت عليه مدعية أنها تحمل جنيناً منه ، وعلم فى ذات الوقت أن أمها تأمرها بالابتعاد عنه . . تفجرت براكين الثورة فى نفسه ، فرأى فى الجنين المزعوم محنته تتكرر فى ابنه ، ومثلما ولد هو سفاحاً سيولد له ابن سفاح أيضاً . ويواجه مذلة احتقار المجتمع وازدراؤه . .

فأساة حياته التى صدمته بدون مقدمات ، عادت بكذبة « تيريز » - تتجسد أمامه من جديد ، فتهياً تماماً لارتكاب الجريمة . . لم يكن ما يخشاه هو احتمال معارضة « مسز جريش » : فكل أمريكى حتى الأبله يعلم أن موافقة الأهل على الزواج ليست حتمية فى الولايات المتحدة . وأنه

فى أية لحظة يختارها يستطيع أن يتزوج فتاته دون إذن من أهله وأهلها .
وبالزواج يصلح خطاه معها ، ويمنح طفله المنتظر الشرعية التى تحميه من
الإذلال . . لكنه لم يفكر فى ذلك ، إنما أقدم على الجريمة لكى ينتقم
من أمه ويقتلها فى شخص « مسز جريش » . . فحبه المتأصل لأمه
منعه - دون أن يشعر - من إيذاءها ، ودفعه إلى رؤيتها فى صورة « والدة
تيريز » .

وهو حين أقدم على الجريمة ونفذها كان يقتل جميع الأمهات
المخطئات المنحرفات المحرمات فى حق الأبناء الأبرياء .. بل هو قد أراد
أيضاً أن يعاقب « تيريز » ، وإشراكه لها فى فعلته البشعة جاء بدافع من
رغبته الدفينة فى أن تنال هى أيضاً - عند اكتشاف الجريمة - العقوبة التى
تستحقها على انحرافها وتساهلها فى نفسها بالصورة التى سبق أن فعلتها أمه
مع رجل آخر فأنجبته . . ومما يؤكد ذلك أنه ظل طوال التحقيق يسمى
« مسز جريش » أمى ، وبعد طعنتيه الأوليين غاب عن الوعى إلى اللاوعى ،
فظل يطعن ويطعن ويطعن دون أن يدرك أو يذكر فيها بعد . .

ومعروف أن الطفل غير الشرعى يأتى غير مرغوب فيه ، وأن المرأة
التي تصاب بهذه النكبة تتمنى فى قراره نفسها لو مات الطفل وأنقذها
بذلك من مواجهة المجتمع بخطيئة لا تغتفر . . ومهما بذلت الأم من
جانبا فى إخفاء مشاعرها هذه ، فالطفل يحس بها بطريقة غامضة ،
ويسير فى الطريق الذى تتمناه له أمه . . ولا بد أن هذه المشاعر كانت
تملاً صدر أم « بيللى » ومن غير جدال أن الصبي عرف بها بطريقة
الإيحاء ، فانتقم لنفسه منها بقتله لها فى شخص سيدة أخرى ، ثم ترك

البحث في المغطس لكي يسهل اكتشافها ؛ ويعرف مرتكبها فينال جزاءه الحق على فعلته الشنعاء . ويعدم هو . وبإعدامه يحقق لأمه رغبتها الأولى في أن يموت الطفل لكي تتخلص من عار مولده . .

وبدافع من رغبته اللاواعية في أن تفتضح جريمته ، ترك البحث في المغطس . مع أنه كان من السهل عليه أن يحملها في ظلام الليل إلى خارج البيت ويلقى بها في مكان ما . ثم يهرب بعيداً عن المنطقة بحيث لا يستطيع أحد أن يقرنه بالجريمة . . ولكنه برر للمحققين تركها في المغطس بأنه كاثوليكي متدين ولا يقبل ضميره الديني أن يحرم امرأة من الاحتفال الديني بالدفن . . وهو بطبيعة الحال قول هراء يخفى وراءه الحقيقة الكامنة في عقله الباطن : وهي رغبته في أن يكتشف أمره ، وتسهيله هذه المهمة بترك خيطاً طويلاً من الأدلة وراءه يرشد العدالة إليه بمنتهى السهولة ؛ كما أن رفضه للاعتراف بالإدانة أمام المحكمة برغم تأكده من أن هذا الرفض يفضي على كل أمل له في الحياة ، ويقوده إلى الإعدام مباشرة ، فلقد ظل على عناده لكي يحقق لأمه رغبتها في موته ، تلك الرغبة التي لا بد أن تكون قد تملكها طويلاً في أثناء حملها له ، ثم ولادته بدون عقد زواج شرعي يحل لها ذلك .

أما « تيريز » فيقول الطبيب النفسي الذي تولاه بعد المحاكمة إنها راحت هي الأخرى ضحية أمها ، فلقد تفتحت عينها هذه الصبية على أم تمارس الجنس في البيت تباعاً ، ولا تتورع برغم حبها لابنتها وتفانيها في توفير أسباب الحياة لها ، عن حبسها في الخزانة ، في أثناء وجود العشيق ، أو إخراجها إلى الشوارع حتى منتصف الليل . . ومثل هذا السلوك الأخرق

يوقظ في الأبناء المشاعر الجنسية قبل الأوان ، ويدفعهم إلى التشبه بهم وهم في سن أصغر من أن تسيطر الحكمة على الرغبات الجنسية وتوجهها إلى الطريق السوي . . فالإنسان . الناضج يتعلم بعقاه وتجربته كيف يحب ، ومن خلال الشعور الشريف بالحب يمارس الجنس في نطاقه المشروع . لكن الصغار يندفعون وراء اللذة البهيمية الكامنة في الجنس قبل أن يعرفوا سمو الحب أو يدركوا قيمته ، ولذلك تنتشر الرغبة الحيوانية فيهم على أحكام العقل والضمير ويدفعهم الخوف من فقد هذه اللذة إلى ارتكاب أبشع الأخطاء . . وهو ما حدث للصبية « تبريز » فالمثل الذي ضربته لها أمها بسلوكها ، أيقظ حيوان الجنس فيها قبل الأوان ، ودفعها إلى ممارسة مطالب هذا الحيوان وهي لم تبلغ الخامسة عشرة من عمرها بعد . . وعندما أمرها أمها بالابتعاد عن صديقها الشاب ، غلبها على أمرها الدعر من فكرة الحرمان من لذات الجنس وجردها من كل إرادة وشخصية ، فتحوّلت إلى أداة في يد حبيبها يوجهها كما يشاء .

عندما يحتقر الابن أباه

• إن طغيان شخصية الزوجة على شخصية الزوج يقلل من شأن الأب في نظر أبنه ، ويدفع الصبي إلى الاعتقاد بأن الأم هي العنصر الأقوى ، فيحاول التشبه بها بما يحوله إلى رجل مخنث

جرت حوادث هذه القصة في أسرة رجل أعمال معروف يعمل
وكيلاً لشركة ثلاجات كهربية . ويعيش بفضل دخله السخي في
مستوى اجتماعي مرموق .

وكان هذا الرجل قد تزوج قبل تسعة عشر عاماً بسيدة مثقفة
تكبره سنّاً بخمسة أعوام . واشدّة علاقتها بالتزامات الحياة العامة لم تشأ
أن تقيد حركتها بالأولاد ف اتخذت كافة الاحتياطات المانعة للحمل .
ومع أن زوجها كان يخالفها في الرأي ، غير أنه لم يستطع أن
يعارضها لضعف شخصيته الطبيعي . وانقياده التام لسيطرتها عليه . .
ثم حدث بعد خمس سنوات من الزواج أن حملت نتيجة غلطة ، ولم
يمنعها من إجهاض نفسها سوى إصرار أهل زوجها على رؤية أولاده . .
فقبلت فكرة الإنجاب على مضض . ولما ولد « كريستوفر » - أو « كريس »
كما كانوا يسمونه على سبيل التذليل - فرضت سلطانها عليه كما سبق أن
فعلت مع والده ، وأبعدته عن أطفال الحى وأبناء الجيران والأصدقاء خوفاً
عليه من الأمراض ، وترفعاً عن الاختلاط بمستويات اجتماعية تعتبرها
لفرط غرورها دون المستوى المناسب .

وجاء « كريس » على درجة ممتازة من الذكاء ، ولكن نموه الجسمي كان
يسبق عمره ، وأصبح حجمه دائماً أكبر من سنه بكثير مما كان يسبب له
أشد الإحراج بين زملائه الصغار .

وزاد المشكلة تعقيداً أن الأب لم يلعب دوراً في تربية ابنه ، نظراً
لسيطرة زوجته عليه ، وآثر أن يشغل نفسه عن مواجهة ضعفه إزاء زوجته
بتوزيع وقته كله بين العمل بالنهار والنادى بالليل .

وفى إطار هذه الأوضاع لم يعد فى استطاعة كريس الصغير أن يجد مجالاً لتحركه العاصف ونموه الإدراكى خارج إطار أمه المسيطرة التى تبسط عليه سلطانها . وتمنعه من الاختلاط بأبناء جيله وتقيم بينه وبين العالم الخارجى العامر بالخبرة والتجارب ستاراً حديدياً يشل قدرته على التواءم الاجتماعى الضرورى لربطه بعجلة الحياة ومده بالقدرة على التعامل مع الآخرين . . وظل كريس دائماً طبعاً مهذباً لا يجرؤ على أن يقول لأمه لا . . . مهما كانت الظروف . . .

ولكن نذر المتاعب لاحت فى الجو بعد مولد أخيه الأصغر روبرت الذى جاء بعده بخمس سنوات . فعلى أثر مولد هذا الأخ الثانى تعثرت فجأة قدرة « كريس » على النطق ، وبعد أن كان فصيحاً فى الكلام اعتراه تلثم جعله ينطق الكلمة الواحدة على دفعتين أو ثلاث دفعات . وصاحب هذه العلة المفاجئة ميل إلى سرقة بعض الأشياء التافهة التى تقع فى متناول يده ، مع رخاوة فى التصرفات كانت تثير غضب الأم المسيطرة وتدفعتها دائماً إلى أن تصرخ قائلة : « استرجل يا ولد ولا تكن بنوته ! » .

ولما ازدادت هذه المشاكل وضوحاً ، ووجدت الأم نفسها عاجزة عن حلها . لجأت إلى الطبيب النفسانى الذى اكتشف أن المشكلة كلها تعود إلى انصراف الأم إلى رعاية روبرت الصغير وانشغالها به عن كريس ، مما أشعره بالحرمان من مصدر الاهتمام الوحيد الذى عرفه فى حياته وأربك نفسيته إلى الحد الذى دفعه إلى السرقة وعطل قدرته على النطق السليم . وبفضل علاج الطبيب النفسى اختفى التلثم تماماً وكف « كريس » عن

السرقه ولكنه ظل على خجله وحيائه لا يعرف كيف يتكلم أو يتعامل مع زملائه تلاميذ المدرسة البنين منهم والبنات فعاش بعيداً عنهم . وازدادت عزله بخجله من الازدياد المستمر في حجمه . ذلك الازدياد الذى جعله وهو لا يزال فى الرابعة عشرة من عمره يفوق الرجال طولاً وعرضاً .

ومع اشتداد المتاعب النفسية المكبوتة ظل « كريس » فى الظاهر مثلاً يحتذى به فى الطاعة والهدوء والأخلاق . . إلى أن حدث ذات يوم أن دعت أمه إحدى صديقاتها لتقضى معهم عطلة نهاية الأسبوع ، ولم تكن هذه الصديقة جميلة أو شابة ، ومع ، ذلك انتظر « كريس » فى فراشه حتى نام الجميع وأظلم البيت . ثم تسال إلى سرير الضيفة وانهاى على رأسها بضربة واحدة بشعة من تمثال برونزى وجده أمامه على المائدة المجاورة ، ثم عاد يجرى على أطراف أظافره إلى فراشه واختفى حتى قمة رأسه تحت الأغطية السميكه .

الزوجة المسيطرة

ولحسن الحظ أن الضيفة لم تمت برغم إصابتها بالخطيرة ، لكن الوالدين حاراً فيمن يكون قد اقترف الجريمة . فأبواب البيت وجدت كلها مغلقة من الداخل مما ينفي التهمة تماماً عن أى غريب يحتمل أن يكون قد أتى من الخارج . . والإنسان الوحيد الذى قد تتجه إليه الأنظار فى ارتكاب التهمة هو « كريس » ولكنه أمر غير معقول بل مستحيل ، نظراً لأن الصبي كان دائماً رقيقاً وديعاً لا يؤذى ذبابة .

غير أن الحقيقة لم تلبث أن اتضحت حين رأوا الصبي فى الصباح

يأتى إلى أمه متهاكاً منهزماً ، ويعترف لها - وقد عاد إليه داء التلعثم فجأة وبشكل غاية في العنف - أنه الخائن ، وأنه لا يدرى ماذا فعل ذلك .

ولقد رفضت الضيفة أن تبلغ الأمر بنشرة مراعاة لصداقة التي تربطها بأسرة « كريس » ، فاكثرت والداد بعرضه على طبيب نفسي .

ويقول الطبيب لدى تولى علاجه إن الثقي - أى فى - يحتاج فى مرحلة نموه الأولى إلى السند الذى يمنحه القوة النفسية مدى الحياة ، وهذا السند هو الأب القوي الحازم الذى يقف دائماً بجانب ابنه ، وفى ظل عطفه عليه وحبه له يتقوّمه ويؤججه ويعوده النظام .

كذلك يحتاج إلى الأم التى تقوم بدورها كاملاً دون أن تنافس زوجها على سلطته أو تمحو بسيطرتها شخصية . . لأن طغيان شخصية الزوجة على شخصية الزوج يقلل من شأن الأب فى نظر ابنه ، ويجرد من خصائص الرجولة المعروفة فى الآباء الآخرين . ويدفع الصبي إلى الاعتقاد بأن الأم هى العنصر الأقوى ، فيشعر بالرغبة فى أن يتشبه بها مما يحوله إلى رجل مخنث .

وهو ما حدث لـ « كريس » فطغيان شخصية أمه على شخصية أبيه ، واستسلام الأب للضعف ، وتخليه عن مسؤولياته نحو الابن ، فجعل الصبي فى أبيه ، ودفع به من حيث لا يدرى إلى محاولة الاقتداء بالعنصر الأقوى وهو الأم ، فنشأ رخواً ناعماً فى تصرفاته برغم ضخامة حجمه . . وبدل أن تتنبه السيدة إلى حقيقة الوضع ، وتحاول من جانبها أن تعالج الموقف بإعادة الثقة إلى نفسه ، قست عليه وعيرته بالتخنث ، فتضاعف الداء .

كذلك يقول الطبيب إن الطفل يحتاج أيضاً في مرحلة نموه المبكرة إلى الاختلاط بأبناء جيله من الجنسين ، فعن طريق تعامله معهم يتعلم التعامل مع الحياة ، وينضج إدراكه في ظل الروابط الجماعية . . . وهو ما لم يتأت له « كريس » الذي أبعدته أمه عن الاختلاط بالأطفال الآخرين ، فسلبته القدرة على التعامل الاجتماعي ، وسلبته موهبة التعبير عما يحول بخاطره ، وتركته في معركة ضارية مع نفسه القاصرة ، التي تجسم له عجزه وتفاهته ، وتغريه بمحاولة القيام بعمل - أى عمل - يثبت به رجولته ، ويسترد به احترامه لنفسه . ذلك الاحترام الذي دمرته أمه بسيطرتها عليه ، واحتقارها لتمخنته ، وأضاع عليه فرصة الشعور بهذا الاحترام بتخلي أبيه عنه ، وضعفه المحزى أمام زوجته ، التي تكبره بخمسة سنوات ، وتصر على معاملته معاملة الابن لا الزوج . . .

وانفجر بركان المتاعب حين نزلت ببيتهم صديقة أمه ، فبرغم سنها المتقدمة وشكاها المجرد من الإغراء ، بدت في نظره المنحرف رسول العالم الخارجي الذي يتمنى أن يثبت فيه رجولته وقوته ، فقرر أن يعتدى عليها لكي يقوم بما يقوم به الرجال في نشاطهم الجنسي . . . ولما وجد نفسه عاجزاً عن إتمام مهمته ثارت كوامن الشر في نفسه فقرر أن يقتلها . . . وكان في استطاعته أن يقضى عليها بضربة واحدة من ذراعه القوية ، أما لماذا لم يحدث ذلك ، ولأى سبب جاءت الضربة خفيفة ، فنتيجة لتحرك بقايا الخير الكامنة في صدره ، فهذه البقايا سلبت ذراعه قوتها ، فجاءت الضربة هينة لحسن الحظ .

مسئولية الأم

وقد نساء: لماذا طغت نوازع الغرائز الحيوانية على هذا النصبى الوديع فجأة؟ ويوجب الطبيب على هذا السؤال بإلقاء التبعة كلها على الأم، فالتربية الجنسية السليمة تنصح الأم عادة ألا تتخرج عن خلع ثيابها أمام ابنها خلال السنوات الخمس الأولى من عمره ، ففي هذه المرحلة المبكرة من عمر النصبى تستبد به الرغبة الشديدة في حب الاستطلاع ، ولكي تنتهى هذه الفترة بالأسلوب الطبيعى ينبغى على الأم ألا تحرمه من رؤية جسدها وهى تغير ثيابها أو تغتسل فى الحمام ، حتى يعتاد رؤية أجسام الجنس الآخر ، ويتحرر من حب الاستطلاع الذى كثيراً ما يتحول بالكبت إلى خيالات جنسية تكبر مع الزمن وتصيب صاحبها بالضرر .

ولكن التربية الجنسية السليمة تنصح بالعكس تماماً مع الابن بعد أن يتخطى مرحلة الطفولة . . فابتداء من سن التاسعة ينبغى على الأم أن تأخذ حذرهما وتغطى جسدها أمام ابنها . ومن الخطر الشديد على أخلاقه أن تتيح له رؤيتها وهى عارية فى مرحلة المراهقة ، أو الفترة السابقة لها ، فهذا التصرف فى مثل هذا الوقت يعتبر تحريضاً جنسياً يوقظ رغباته قبل الأوان ، ويجسم خيالات الغرائز فى ذهنه ، مما يؤدى إلى انفجار قد يكشف عن طبيعته بصراحة ، أو قد يعبر عن نفسه بصور أخرى من الانحراف مثل الكذب أو السرقة أو التمرد أو التفريط أو القتل .

وهذا ما حدث لـ « كريس » فقد اعترف لطبيبته بمنتهى الصراحة

أن أمه كانت لا تتحرج عن الظهور عارية أمامه ، وكثيراً ما تطوف
 بغرف البيت في الصيف وليس على جسدها سوى أقل الثقل . . .
 ويقول الطبيب إن الأم أضرت بابنها من حيث أرادت الخير أو عن
 جهل بالتربية الصحيحة ، فظهورها أمامه عارية وهو اتقى المحرم
 من التعامل الاجتماعي بأنواعه ، أثاره جنسياً . . . واكونه يعرف في قرارة
 عقله الباطن أن أمه محرمة عليه ، ومجرد التمكنير فيها داخل الإطار الجنسي
 يعتبر خطيئة بشعة ، ثار غضبه عليها ، وأراد أن يعاقبها على ما تفعله به :
 فتهجم على صديقتها التي بدت أمامه في آخر لحظة بديلاً لأمه . . .
 لكن حبه الدفين لأمه أفقده القدرة على إتمام جريمته واكتفى بالضربة
 الخفيفة التي أنقذت حياة الضيفة من موت محقق . . . وفجأة عاد إلى
 طفولته فجربى إلى فراشه واختفى تحت أغطية السرير كما كان يفعل في
 صغره عندما يخاف من الظلام وهو في الغرفة وحده . وترجم الشعور
 بالذنب عن نفسه باللعثمة التي عادت إليه فجأة وبغاية الحدة صباح
 اليوم التالي للجريمة . كذلك يحذر الطبيب الأمهات والآباء من السماح
 لأبنائهم الصغار بمشاركتهم غرفة النوم ، فالطفل حتى في نومه لديه
 القدرة على الإحساس بحقيقة ما يجري حوله ، والعلاقات الجنسية الزوجية
 تبدو لذهنه الغرير في تلك المرحلة نوعاً من التهجم أو الاعتداء الصارخ ،
 الأمر الذي لا يوقف الغرائز قبل أوانها فقط ، بل هو أيضاً يطبع
 العلاقات الجنسية في نظر الصغير بطابع العنف والإجرام .

ولقد أمكن شفاء « كريس » بالعلاج النفسي ، فاستطاع أن يتم
 دراسته الثانوية بنجاح ، ثم دخل الجامعة وانتظم في صفوفها موفقاً وكان

ذلك بفضل أمرين هامين : أولاً ببقاها الخير الكامنة في نفسه ؛ والثامر
 الثاني أسلوب الطبيب في علاجه ؛ فالضبيب لم يصدر عليه حكماً
 بالإدانة ، ولم يشعره بأنه مجرم ، بل أقنعه بأنه مريض وسوف يشفى
 بالعلاج تماماً . . . فيالحب لصحيح والعطف والتقدير والعزم والصراحة .
 استطاع العلاج النفسي أن يكشف لمصبي عن أصول علمه ؛ ويرشده
 إلى طريق السلامة . . .

عندما تنكر الأم لأُمومتها ..

« كيف استطاعت التربية الخاطئة أن تحول « إيدا » الرقيقة
الخلوة إلى فتاة منحرفة تتزوج بطريقة غير شرعية ، وتلق
بابنها إلى أحد الملاجئ ؟ ! . . .

إنها قصة التزمت في معاملة البنات وكيف يولد الانفجار الرهيب ،
وبطلة هذه القصة فتاة أمريكية اسمها « إيدا » في السابعة عشرة من عمرها
صغيرة الحجم تبدو من حيث الشكل أقل من عمرها الحقيقي ، ولكنها جميلة
بدرجة تلفت الأنظار، بيضاء البشرة فاحمة الشعر خضراء العينين ، رقيقة وديعة
مثقفة مهذبة ، تتكلم بصوت هادئ خفيض ليس فيه لفظ واحد خشن
أو جرىء أو مبتذل ، وتتصرف في غير تصنع أو افتعال بوقار أكبر من
عمرها بكثير ، لا تميل للمرح ولا الضجيج ولا تحب الخروج من البيت
إلا لزيارة المكتبات العامة وممارسة رياضة المشي .

ولقد التقى الطبيب النفسى بهذه المخلوقة الجميلة المهذبة بواسطة صديقة
لأسرتها ، اسمها « مسز درايفرز » كانت « إيدا » قد التحقت بخدمة قبل
ذلك بشهور كمرربة لأولادها الصغار الثلاثة ، وأبدت في رعايتها لأولئك
الأطفال من الحنان والإخلاص والأمانة مالم تعهده مخدومتها في أى مربية
سابقة لهم ، واكتسبت بأدبها واستقامتها مضافاً إلى ذلك تعلقها الجنونى
بالأطفال حب « مسز درايفرز » وزوجها ، حتى اعتبرها بمثابة الأخت
الشقيقة لهما ، وأحاطاها بكل ما يملكانه من القدرة على الرعاية والاهتمام .

ولما عرفا منها أن أملها الأكبر في الحياة أن تصبح مدرسة برياض
الأطفال ، وكانت بعد إتمامها من دراستها الثانوية قد تلقت تدريباً يؤهلها
لهذه المهنة ، وجدا من واجبهما نحو هذه المربية الصغيرة العزيزة أن يعيناها
بنفوذهما الاجتماعى على تحقيق أملها والاشتغال بمدرسة للأطفال قريبة من
منزلهما . . ولكن العجيب في أمر « إيدا » أنها بمجرد أن عرفت بأن

الموضوع قد أخذ يدخل في حيز التنفيذ ، غيرت رأيها فجأة وراحت تعارض دون إبداء أى أسباب .

وبالإلحاح على « إيدا » في قبول التوضيعة تدهورت صحتها بشكل ملحوظ ، فكانت تنتابها حالات إغماء عنيفة وبلا أدنى داع ، بجانب الصداع القاتل الذى يرفض أن يتركها . ثم انغص الشديداً الذى يصيبها بعنف يكاد يفقدها عقلها ، وكثيراً ما يدفعها إلى أن تصرخ وتصرخ كأنها قد أصيبت بالجنون . . . وكان يخيل « مسز درايفرز » أن مربية أولادها يتيمة الأبوين محرومة من الأهل والأقارب ، بدليل وحدتها الشديدة وعدم اتصالها بأى إنسان خارج البيت الذى تعمل فيه حتى ولو بالمراسلة ، كذلك كانت تعرف أنها لا تملك من المال إلا المرتب الضئيل الذى تتقاضاه منها ، لذلك اضطجبتها إلى الأطباء على نفقتها ، ولم تبخل عليها بالمال وإن كثر فى سبيل علاجها . . . غير أن الأطباء أجمعوا على أنها سليمة من جميع الأمراض العضوية . . . ونصحوا بعرضها على الطبيب النفسى .

ولقد اختارت « مسز درايفرز » هذا الطبيب الذى تعرفه وثق به ، وطلبت إليه أن يتولى بحث حالتها ولا يرضن بجهد أو وقت فى سبيل الوصول إلى حقيقة علمها ، وتعهدت أن تقوم هى بجميع النفقات المطلوبة لهذا العلاج .

ومن حسن الحظ أن « إيدا » قبلت عن طيب خاطر أن تلجأ إلى الطبيب المذكور ، ولم تتخل ، ولو مرة واحدة ، عن مواعيد الجلسات التى يقررها لها ، وهذا فى حد ذاته عامل مساعد على نجاح العلاج النفسى ،

ولكنها برغم ما كان يبدو في سلوكها من ثقة تامة به ظلت تقاوم العلاج النفسى مدة طويلة : وتعاند في فتح قلبها لطبيها سنتين كاملتين قبل أن يتمكن من معرفة قصتها الحقيقية بكاملها ، وينجح في العثور على جذور العقدة النفسية التى أرشكت أن تقضى على عقل « إيدا » وهى ما زالت فى السابعة عشرة من عمرها .

« طغولة قاسية »

كانت « إيدا » الابنة الوحيدة لأبوين يتمتعان بقدر وافر من الجاه والمال ، ولكنهما مفرطان فى تدينهما لدرجة التزمت الشديد . . لا يؤمنان إلا بحرفية النصوص الدينية ، ولا يسمحان لتفكيرهما وتصرفهما بأن يسايرا روح العصر ويتطورا بتطور مقتضيات الحياة المتجددة . . ولما لم يكن لهما من الذرية سوى « إيدا » فقد ركزا عليها فلسفتهم وأحاطاها منذ بداية حياتهما بنطاق حديدى من الصلابة والحمود .

ومنذ تفتحت عيناها على الحياة وهى تجده نفسها ممنوعة تماماً من الضحك بصوت عال والإفراط فى المرح والجرى بحجة أنه سلوك مايجب لا يتمشى مع وقار التدين .

وفى صباح الأحد من كل أسبوع اعتادا أن يقوداها معهما إلى الكنيسة لتحضر القداس كله من بدايته إلى نهايته ، ثم يعودا بها إلى البيت لتقضى بقية النهار حبيسة بين الجدران ، ولا تخرج منه إلى حديقة المبنى حيث يقضى أطفال الحى يوم عطلتهم الأسبوعية فى مرح جماعى لذيد . . ولا تشرك فى أى رحلة ترفيهية ، لأن الأحد هو اليوم المقدس فى نظر والديها

وينبغي أن يخلو من جميع الأنشطة الترفيية . . وحتى الطعام كان دائماً بسيطاً متمشياً ، لا لأن الوالدين لا يملكان القدرة على الإنفاق ، ولا بسبب البخل والتقتير ، بل لإيمانها بأن التنوع فيه وصنع اللذيذ منه يتعارض تماماً مع روح التقشف التي تبني الشخصية الأصيلة في تدينها .

وانقضت السنوات الأولى من حياتها — أي حياة (إيدا) — تحت هذه الضغوط المخالفة تماماً لطبائع الطفولة السليمة ومتطلباتها . . وكان يحدث أحياناً أن يفرغ صبرها فتتذرع بالشجاعة وتسأل عن الحكمة في أن تحرم هي وحدها دون أبناء الحى من لذاتها من المتع البريئة ، فيكون الجواب دائماً بأن الأحد يوم له قداسه الدينية وينبغي على المؤمنين الحقيقيين من أحباب الله وخلصائه أن يقضوه في التأمل الهادئ الوقور . . ثم إن كثيراً من الأطفال الذين تراهم يرحلون في حديقة المبنى شريرون ينقضهم الضمير الحى والأخلاق الكريمة ، ومن الخطر على أية فتاة فاضلة أن تصاحبهم أو تتمثل بهم في تصرفاتهم :

وتدهش (إيدا) لهذا الكلام وتتساءل فيما بينها وبين نفسها عن كنه الخطر الذى يكمن في صحبة أولئك الصغار المرحين الظرفاء ، وما هو نوع الشر الذى يحتمل أن يضمروه لمثلها ؟ . . :

وتطوف بذهنها مثل هذه الأسئلة مراراً وتكراراً ولكنها لا تجرؤ على الإفصاح عنها ، لأن أهلها الحريصين دائماً على حبها وسعادتها قد علموها أن تقبل أوامرهم قضية لا تحتمل الجدل ، وأن تسلم لهم قيادة حياتها ينظموها لها بلا مناقشة أو اعتراض . .

(ومراهقة بائسة)

وكبرت (إيدا) واشتد عودها على هذا النحو.. وأصبحت يمضي السنين صبية ذكية جميلة متفوقة على زميلاتها وزميلاتها في المدرسة بدرجة تبشر بمستقبل علمي عظيم.. غير أن سياسة والديها لم تتغير كما كان ينبغي أن يحدث.. بالعكس، فدخل (إيدا) في مرحلة انصبا والمراهقة دفع بوالديها إلى مزيد من التشدد حماية لها من الجموح المألوف في فترة العمر التي تمر بها.. وبقدر ما كانا يحبها ويهبران على اختها كانا في الوقت نفسه يقسوان عليها من حيث لا يدريان، ومن ذلك مثلاً أنهما كانا يحرمان عليها ارتداء الملابس الحديثة المناسبة التي تلبسها مثيلاتها من البنات.. ويفرضان عليها الفساتين المضمخضة التي تصل أطرافها إلى ما تحت الركبتين، وبذلك تبدو بين الأخريات غريبة شاذة وتقاسى من زملاء وزميلات دراستها لواذع السخرية، وتحتل كل هذا العذاب وهي راضية بحرماتها من ممارسة جميع الأنشطة المدرسية التي تجري عادة في نطاق الدراسة وخارجها، مثل الرحلات والمعسكرات الصيفية والحفلات الجماعية، فكان زملاؤها وزميلاتها يستمتعون بوقتهم في حين تبقى هي في البيت أو يصطحبها والداها معهما برفقة واحدة أو اثنتين من بنات الأصدقاء المؤثوق بتدينهم إلى الشاطئ أو السينما، الأمر الذي يختلف في أثره تماماً عن استمتاع الشباب بدون الحرج والضيق والتكلف التي تفرضها عليهم صحة الكبار.

وبدخول «إيدا» مرحلة الشباب أصبحت لديها القدرة أحياناً على

مقاومة الاتجاهات الدينية المتطرفة مفروضة عليها ، فكانت تجمع شجاعتهما في بعض الأوقات لتوجيه وديهما بامتعضهم وتناقشتهما بحكمة القيود التي يكبلانها بها . فيخيل إليهما أن ابنتهما العزيزة الوحيدة التي بذلا غاية جهدهما في تربيتها تطوى صدرها على إلحاد شرير ، ولا بد أن يكون ذلك لأن الله قد أراد أن يعاقبهما على أخطاء ارتكباها دون قصد . . وبعد أن يستغفرا ربهما ألف مرة على ما تقدم منهما وما تأخر يعمدان إلى بث الذعر في نفوسهما بما يقصانه عليهما من أبشع القصص عن الرجال وما جبلوا عليه من النوايا القذرة الشريرة ، وكيف أنهم يتظاهرون بالخير ويتسلحون بالعواطف النبيلة الكاذبة لكي يوقعوا بالساذجات الطيبات من مثيلاتهما ، ثم يلتقون بهن في أسواق الرقيق الأبيض حيث يبيعونهن لتجار البغاء وملوك الرذيلة . . فنشأت « إيدا » على الاعتقاد بأن الرجل ذئب شرير ، وأن الاتصال به دمار أكيد ، وأن طريق السلامة في الابتعاد عنه والانعزال التام عن أي فرصة للاتصال به في أي مجال كان .

« وبدأت المتاعب »

وكانت (إيدا) إلى هذه اللحظة قد ضربت بسهمه وفور في التفوق العلمي ، وحان الوقت لأن تفكر في العمل الذي تحب أن تعيش منه في المستقبل . . . غير أن والديها تناسيا حقها في اختيار المجال المناسب لميولها ، وقررا — دون العودة إلى رأيها — أن يلحقاها بعد انتهاء الدراسة الثانوية بمعهد معلمات مدارس رياض الأطفال ، لكي تقضي ما تبقى من حياتها برفقة الصغار الأبرياء ، بعيداً عن المجالات الأخرى العامرة بأخطار الكبار .

ومن هنا بدأت المشاكل تنذر بالانفجار القريب
 فـ (إيدا) لم تكن تفكر مطلقاً في هذا الطريق الممّنى ، ولا تحب أن
 تسلكه على الإطلاق . وأملها الوحيد أن تتمخصص في شؤون المكتبات حيث
 الأعمال الأدبية والفنية التي تلائم مواهبها الطبيعية وتشبع ميولها التواقية إلى
 الارتقاء في عالم القلم والفكر وكانت البادرة الأولى لعصيانها أن
 رفعت رأسها في مواجهة أهلها وأبت بكل عناد أن تعد نفسها لمهنة
 تدريس الأطفال . وظلت متمسكة برأيها لا تحيد عنه برغم طول
 المناقشات والمحاولات في الإقناع ولم يمض وقت حتى اكتمل
 الانفجار .

إذ التقت (إيدا) ذات يوم وعلى حين فجأت بشاب ممتاز من كافة
 الوجوه على خلق عظيم وكفاءة طيبة ، متعلم مهذب وقور ، وكانت
 تعرف به بدون علم أهلها لدى بعض الأصدقاء الذين تردد
 عليهم خفية ، فارتاحت إليه مثلما ارتاحت نفسه إليها ثم
 تطورت المعرفة إلى حب شديد لكنه حب شريف لا يخرج
 مطلقاً عن حدود الوقار - ولا يستهدف سوى أقدس روابط الحياة وهو
 الزواج بدون أى تفريط سابق ، أو ممارسة جريات مما اعتادها الشباب
 الأمريكي .

وقدمت (إيدا) (جورج) إلى والديها ، وطلبت موافقتهما على
 زواجهما به لكنهما رفضا بمنتهى الإصرار وركبا رأسيهما بغاية
 العناد لا لنقائص في الشاب تعيبه وتقلل من أهليته لمشاركة هذه
 الفتاة الطيبة الحياة . . . بل لأنه ينتمى إلى مذهب مسيحي يختلف عن

أسرتهم : ويؤدى فرائضه الدينية فى كنيسة غير كنيستهم ، وطال انقشاش
والخوار حول هذا الموضوع ، وحاولت (إيدا) من جانبها أن تقنعهم بما بعضاً
تشرقة بين مؤمن ومؤمنة فأنكل أمام الله سواء ، ومن التزمت الأعمى أن
يحكم عليها بالحرمان من السعادة مع شاب بهذا الامتياز مجرد اختلاف
مذهبه . . . لكن الكلام ذهب هباء ، وظل الأبوان على عنادهما
ومعارضتهما غير المنطقية ولا المستساغة .

وبدون أى سبب أو مبرر بدأت تظهر على الفتاة التى عاشت حياتها
كلها مثلاً للصحة والعافية أعراض مرضية ، حار الأطباء فى تشخيصها ،
وخابت العقاقير المختلفة فى علاجها . . . من ذلك الصداع الرهيب
الذى لا يرحم رأسها لا بالليل ولا بالنهار . . . وأرق عنيف يحرمها لذة
النوم . . . وتقلصات فى أحشائها تسبب لها ما لا قبل لها به من الأوجاع
الشديدة

وبتأثير هذه المتاعب فقدت (إيدا) شهيتها للطعام وامتنعت عن
الأكل ، فأصابها اذلال والضعف ونحل جسدها فوق نحواه الأصلى .
وذات صباح استيقظ الأب والأم ليجدا أن ابنتهما المطيعة دائماً
قد جمعت حوائجها بالليل وهربت من البيت ، ومن رسالة مقتضبة تركتها
عرفا أنها ذهبت مع صديقها الشاب إلى غير رجعة ، وطلبت إلى والديها ألا
يبحثا عنها إذ ليس فى نيتها أن تعود إليهما أو تبقى على أية صلة بهما .
ومع ذلك حاول الأب والأم أن يبحثا عن ابنتهما الوحيدة العزيزة ،
ولم يتركا وسيلة للاهتمام إليها ، لكن جهودهما خابت تماماً واختفت
(إيدا) كما تختفى الإبرة فى أكوام ضخمة من القش .

« الانتقام »

وبعد أن أفضت (إيدا) إلى طبيبتها انفسى بقصة حياتها كاملة صارحته أيضاً بما فعلته بعد أن هربت مع (جورج) من بيت أسرتها
فبالرغم من أنهما اتفقا على الزواج بعد ثلاثة أيام واستخرجا الرخص والتصاريح الرسمية الضرورية لذلك . وجدت . . . أنها لسبب لا تدريه تغرى خطيبتها . وتقدم له نفسها ملحة فى الاتصال الجنسي به ، قبل أن يجمع القوس بينهما فى إطار الدين والحلال . . . وضعف (جورج) بدافع من حبه . وحقق لـ (إيدا) رغبتها . ولكنه فوجئ فى صباح اليوم التالى بهربها منه . واختفائها من حياته دون أن تترك كلمة ترشده إلى سبب هجرها المفاجئ . ولا المكان الذى يمكن أن يجدها فيه
وبعد تسعة أشهر وضعت (إيدا) صبيّاً صغيراً فى أحد المستشفيات الخيرية ، ورفضت أن تفضى لإدارة المستشفى بأسم والده أو بمكان أسرتها وأسرته .

كما أنها أبدت نفوراً شديداً من الطفل لدرجة أنها أبت أن تراه أو ترضعه بعد الولادة . وكتبت تنازلاً عنه لإحدى مؤسسات التبني ، وطلبت أن يخفوا عنها الأسرة التى تتبناه لكي تقطع الطريق بينها وبينه إلى الأبد . . .
ولقد حاول الباحث الاجتماعى للمؤسسة أن يقنعها بغير ذلك ، كما ألح فى معرفة الأسباب التى تدعوها إلى التمسك بهذه الشروط ، ولكنها إختارت الصمت التام ، ولم تشأ أن تنطق بكلمة واحدة فى هذا الموضوع . . .
وكان من عجيب التغيرات التى أصابتها بعد ذلك أنها بعد أن كانت

تكروه تربية الأطفال وتعليمهم راحته تبحث عن وظيفة مربية لهم حتى
عثرت على أسرة (مزرعوايغرز) ، وأبدت في عطفها على الأطفال
وشغقتها بهم ما يتعارض تماماً مع اتجاهها نحو طفتها .
والأعجب من ذلك أنها أبدت نخوة ومهابة ورغبة في احتراف مهنة
التدريس بمدرسة الأطفال ، على عكس ما كانت تريد أيام وجودها
مع أسرتها . ومعارضتها العنيفة لرغبة والديها في احتراف مهنة تدريس
الأطفال .

« أصل العقدة »

ويقول الطبيب النفسي الذي تولى علاجها : إن (إيدا) مثل
واضح لضحايا الصراعات النفسية التي تصيب الفتيات في مستقبل حياتهن
فتبدأ صدورهن بالعنف الذي يلقي بهن في أتون الإجرام والخطيئة . . .
فهذه الفتاة — مثل غيرها من ضحايا ترمت الأهل — لجأت بدافع من الرغبة
في التحدي إلى تحطيم نفسها متصورة أنها بذلك تحطم قيود الاستبداد التي
كبلها بها والداها ، وتنتقم منهما لحرمانها إياها من الاستمتاع بطفولتها
وصباها ومسيرة روح العصر الذي يعيش فيه زملائها وزميلاتها .
ففيال (إيدا) من البناات الطيبات لا يخطئ رغبة في الخطيئة ، ولكن
بدافع التحدي والانتقام وتأثير الصراع النفسي الدفين . . أصابتها الأمراض
الغامضة أولاً ، ثم هربت مع خطيبها . . . مع أنه كان من السهل عليها أن
تتبع (چورج) بتغيير مذهبه ، وما كان ليرفض ذلك على الإطلاق نظراً
لسماحته وتعلقه الشديد بها .

ولكن العقد المتمكنة من عقلها الباطن دفعتها إلى عدم الالتجاء إلى هذا الأسلوب العادى الأخلاقى ، وزينت لها دون أن تدرك أن تنتقم من والديها بإبقائه على مذهبه الدينى وبتقديم نفسها له قبل الارتباط الشرعى .

ويقول الطبيب أيضاً : إن (إيدا) بمجرد أن حققت انتقامها ، أفاق صباح اليوم التالى فجأة على قبح ما فعلته وتحركت مشاعر التدين الأصيلة فى نفسها ، ودفعها الندم الشديد إلى كراهية الرجل الذى انصاع لرغبتها حين أرادت أن تتخذه للانتقام ، واعتبرت هذا الرجل الخائى عليها ، ورغبة فى أن تعاقبه بالمثل على الاشتراك معها فيما لا يرضى الله هربت من حياته وقطعت كل صلة به وضيعت عليه فرصة الزواج منها لإصلاح الخطأ

واتسع حقد (إيدا) على نفسها وشمل الطفل أيضاً ، فرأت من خلال ثورة الندم التى انتابتها أن تعاقبه هو الآخر بالتخلى عنه نهائياً باعتباره رمز الخطيئة التى ارتكبتها فى ساعة حقد ومرارة ، وتمسكت بضرورة تركه لمؤسسات التبئى لكى يكون حرمانها منه هو العقاب الذى تستحقه ، بل العقاب الذى يستحقه أبوه أيضاً ، الذى تحول فى ذهنها من أداة لانتقامها إلى شريك بغيض فى الجريمة المتنافية تماماً ، مع تعاليم الدين وأصول الأخلاق ، وغلبها إحساسها بالذنب نحو والديها ، واختلط بمشاعر الأمومة القوية فى نفسها فلجأت إلى الرغبة فى تربية الأطفال الآخرين وتعليمهم . . . أولاد الحلال الذين جاءوا إلى هذه الدنيا مطهرين من وصمة الخطيئة التى تلوث ابنها . . . فكان موقف (إيدا) من نفسها ذا شقين : موقف

المذنب المؤمن بخصته . وموقف القاضى الملزم بنزول أقصى العقاب على المذنبين

ويؤكد الطبيب أنه عندما أفلح فى الوصول إلى عقدة (إيدا) وأمكنه بالعلاج الطويل أن يظنوا بهذه العقدة من أغوار العقل الباطن إلى أنوار العقل الواعى ، رأت الفتاة الحقيقة أمامها سافرة واضحة وفهمت أصول الدوافع والتصرفات التى أتتها ، فمادت إلى طريق العقل والحكمة .

وكان أول ما فعلته مغتبطة أن اتصلت بوالديها لتصل ما انقطع بينها وبينهما من وء ، ثم كتبت إلى (جورج) ترشده إلى مكانها ، وتزوجت به نفورها كما أنها استردت طفلها من المؤسسة وأغدقت عليه كل ما يطوبه صدرها من حنان وحب ورحمة ، وعاشت معه ومع أبيه وكأنها تحلق فى سماء الحناء اللانهائى وذهبت عنها جميع أمراضها واستعادت صحتها ، كما أبدت نفورها من تعليم الأطفال والتحقت بعمل فى إحدى المكتبات العامة لتحقيق من خلاله طموحها إلى مستقبل أدبى مرموق ويمكننا أن نلخص أخطاء الوالدين فى النقاط التالية :

أولاً - أنهما فرضا عليها منذ البداية فى حياتها قيوداً دينية وأخلاقية لا تسير روح العصر ، وبذلك حرماها من أن تعيش مثل غيرها من أبناء جيلها ، وأفسدا حياتها بمشاعر أقوى من أن تحتملها .

ثانياً - أنهما رسما لها الرجل فى صورة الوحش الأنانى الذى يعيش ليهدم حياة الفتاة البريئة ويورثها الحزى ، مما دفعها إلى التوحش هى أيضاً فى الانتقام من خطيبتها والإساءة إلى طفلها منه .

ثالثًا - أنهما لم يراعيا ميولها الخاصة في الدراسة فصمدا على أن
تتخصص في تعليم الأطفال ، الأمر الذي كانت تكرهه وترغب في طريق
منهى آخر يختلف عنه تمامًا .

ويختم الطبيب النفسي كلامه بأن (إيدا) كانت سعيدة لخط . لأنها
صادفت امرأة فاضلة مثل (مسز درايفرز) التي ساعدتها بالمال والحب
والرعاية على التخلص من مرضها النفسي ، على عكس آلاف غيرها من
تعرضن لنفس المتاعب ولم يجدن العون ، فتحطمن نهائياً ، إما بالتدهور
في دهاوى الرذيلة أو قضاء بقيمة حياتهن بين أسوار المستشفيات العقلية .

سلفادور يُعلن الحرب على الظلم .

* إن الحب هو عماد الحياة الإنسانية . . . ومن الضروري
أن يتناول الإنسان جرعاته المشبعة من بداية حياته ، ولو
أن سلفادور ذال حقه من هذا الغذاء لما تحول إلى ذاك السفاح
الذي هز المجتمع الأميركي ببشاعة فعلته . . .

إنها جريمة بشعة ارتكبها صبي منحرف بدأت مأساته مع بداية حياته نتيجة لحرمانه من حنان أمه في أشد أوقاته احتياجاً إليه . . . وانتصه المذبحة حدثت ذات مساء من شهر أغسطس بإحدى ساحات اللعب المعدة لأبناء الأحياء السكنية بمدينة نيويورك ، ولقد قتل في هذه المذبحة ثلاثة صبيان صغار لا يتجاوز عمر أكبرهم أربعة عشر عاماً ، كما أصيب ثلاثة آخرون بجراح بالغة الخطورة. ولقد اهتز المجتمع الأمريكي من الأعماق عندما علم أن « القصاب » الذي تولى القيام بهذه المذبحة لم يكن سوى صبي صغير في السادسة عشرة من عمره . والأبشع من ذلك أنه لم يكن يعرف ضحاياه ولم يسبق له أن قابل واحداً منهم ، وقد أمكن للشرطة الاهتمام إليه من الأوصاف التي أدلى بها الجرحى من ضحاياه . وعند القبض عليه ذهل الحاضرون حين صاح بينهم يقول صارخاً : « أرجو أن يحكموا على بالإعدام كي تتفرج أمي على وأنا أحترق أمامها في الكرسي الكهربائي ! »

وكانت أمه تعرف فيه ميله إلى التدين ، فبعثت إليه في السجن بنسخة من الإنجيل يتسلى بها في وحدته ، لكنه فاجأ الجميع مرة أخرى بإلقاء الإنجيل خارج زنزانه رافضاً أن يبقيه معه . . .

وكان القصاب الصغير هو صبي أمريكي من أصل إسباني اسمه « سلثادور أرجون » . . . صغير الحجم . . . وسيم الشكل . . . يميل إلى التدين يبدو دائماً هادئاً طبعاً ، لا يعاند ولا يكابر ولا يخالف التوجيهات إلا مضطراً . وقد ثبت في أثناء المحاكمة أنه في الليلة المشؤومة غطى رأسه بقلنسوة مثل « دراكيولا » — الشخصية السينمائية المعروفة اصصاص الدماء —

ثم تسلح بخنجر طويل حاد ومضلة لها طرف منيب كالخربة ، وتسلك إلى ساحة النعب بالليل ، وانتهال على الشتيان طعناً بالخنجر وطرف المنصة ، فقتل ثلاثة وترك ثلاثة آخرين بين الحياة والموت !

مأساة حياته :

وكشفت محاكمة « سلثمادور » عن مأساة حياته ، فقد ولد الصبي من أم في الثامنة عشرة من عمرها وأب في السادسة والثلاثين . وبعد مولده بمدة وجيزة ضاق الأب بقمود الأسرة ، فانطلق على هواه يعب من الخمر عباً ثم يعود في آخر الليل إلى بيته مخموراً لينكل بزوجه الصغيرة المسكينة . واحتملت المرأة صنوف العذاب ، إلى أن فاضت بها الكأس يوماً فحملت طفلها وهربت من البيت إلى غير عودة . وتلفتت حولها فلم تجد مكاناً تلوذ به سوى ملجأ للفقراء تديره مجموعة من الراهبات الكاثوليكيات بقصد معونة العجزة والشيوخ والمجانين . وقد قبلت إدارة الملجأ أن تؤوى الطفل الصغير بين نزلاتها مقابل أن تعمل أمه خادماً في المكان ، وبشرط أن تقطع صلتها تداماً بابنها فلا ترعاه أو تقرب منه . وقضى « سلثمادور » بهذا الملجأ أول ثمانى سنوات من عمره . .

وفي خلال هذه الفترة الخطيرة في أثرها النفسى والتربوى على الحدث ، خاض أقسى التجارب وأمرها في الحياة ، إذ كانت الراهبات ينكلن به لأبسط هفوة تصدر منه ، ولا يعطينه من الطعام ما يكفى لسد رمقه ، ويتركه ينام بالليل في الظلام الدامى يرتعد وحده لصراخ المجانين المقيمين معه بالملجأ .

وخوفًا من أن يتبول على نفسه كن يتركه على « القصرية » بالساعات ،
وإذا بال فراشه بعد ذلك يعاقبه بالضرب المبرح . . .

ولقد أتت هذه المعاملة القاسية بعكس النتيجة : إذ ظل « سلفادور »
يتبول على نفسه إلى أن اشتد عوده وكبر . وكانت الراهبة حينئذ تأمره
بتغطية رأسه بالملاءة المبللة بالبول . وتعطوف به على العجزة والشيوخ
والجبانين والمعاتية مخرصة لهم على إهانتهم والتنكيل به . . . كل هذا والأم
تري ابنها يحترق بلهب العذاب والحزى والحربان ، فلا تجرؤ على
الافتراب منه والتخفيف عنه ولو بقبلة أو ضمة أو كلمة حانية .

وكلما نمد صبرها لا تجد أمامها سوى طريق السلبية ، فتهرب من الملجأ
تاركة ابنها وحده في أتون العذاب . . . وتختفي أسابيع أو شهرًا ،
ثم لا تلبث أن تعود لترقب ابنها مرة أخرى في أثناء قيامها بالعمل
من بعيد . . .

ولقد أدى تكرار اختفاء الأم إلى أن أصيب « سلفادور » بحالة من
الرعب الدائم الذي يلازمه بالليل والنهار ، خشية أن تذهب أمه يومًا ولا
تعود . . . وخوفًا من أن يحدث ذلك دأب على انتظارها كل مساء عند
انتهاء موعد عملها ، ويظل يصرخ ويبكي راجيًا أن تصحبه معها حتى
يصل صوته إلى آذان الراهبات ، فيسرعن إليه ويفصلنه عنها ، وينزلن به
العقاب اللازم جزاء عصيانه . . .

وبدت بارقة من الأمل في أفق « سلفادور » عندما تزوجت أمه
بمبشر لأحد المذاهب الدينية النادرة في أمريكا ، ورضى هذا الزوج
أن يعيش الابن معهما ، فخرج الصبي من الملجأ ليستنشق نسيم الحرية

لأول مرة في حياته . لكن النحس الذى لازمه منذ مولده أبى إلا أن يتبعه في حياته الجديدة ، فقد ظهر بعد وقت قصير أن الميشر يكره « سلفادور » من كل قلبه ، وأن الندين الذى يبشر به لم يستطع أن يروض قسوته البائغة ، فكان يقتل على الطعام — حتى الخبز — بالفتاح حتى لا تصل يد الصبي إليه إذا استبد به الجوع . . يهينه ويضربه ويضرده من البيت بالليل لأبسط هفوة لا تستحق العقاب ، فلا يجد المسكين مكاناً لميسته سوى أرصفة الشوارع أو مداخل العسارات أو مقاعد الخدائق العامة .

وترى الأم هذا الحميم المستعر الذى يحترق فيه ابنها ، فتتعذب في صمت ولا تمد يدها لمعاونته ، خوفاً من أن تنضب زوجها فتفقده . وحدث ذات مساء أن انهال زوج الأم على « سلفادور » ضرباً ، فخرج الصبي ولم يعد ، وبعد أيام ارتكب جريمته البشعة .

النشأة الصالحة

ويقول الطبيب النفسى وكل إليه دراسة حالته قبل تقديمه للمحاكمة : إن الإنسان لكى ينشأ نشأة تربوية صالحة تساعد على الامتثال بخصيصة قوية سليمة يحتاج بالضرورة إلى أن يعيش طفولته الأولى بكل أبعادها دون أى قيد خارجى يشكل ضغطاً نفسية أو جثمانية عليه .

ولكى يعيش طفولته بكل أبعادها ينبغى أن يترك — خصوصاً خلال العامين الأولين من عمره — على سجيته يمارس الحريات الطبيعية التى

تقتضيها طبيعة هذه الفترة المبكرة من العمر ، ومعنى ذلك أن يأكل عندما يجوع ، ويتبول حينما يشاء .

ومحاولة منع الطعام عنه وحرمانه من حرية التبول على نفسه بفرض نظام صارم لا يستطيع الطفل أن يدرك معناه ، ولا تقوى طبيعته على اتباعه ، يؤدي إلى حرمانه من حقه في التمتع بطفولته التي هي غذاء روحي يبنى الأساس القوي لشخصيته ، ويدفعه بفعل الضغط عندما يكبر إلى العودة إلى الطفولة في أثناء نموه وهي حالة اللاوعي في حياة الإنسان لممارسة الحريات الطبيعية التي حرمنها .

لذلك ينبغي على الأم الواعية العاقلة أن تتجنب تنظيم تبول الطفل خلال السنتين الأوليين من حياته ، وأن تبدأ في تنظيمه بالتدريج بعد ذلك ؛ فتبول الطفل على نفسه بعد السن المعقولة لذلك هو بمثابة الاحتجاج الشديد على الضغط الظالم الذي فرض عليه في بداية حياته ويحرمه حقه في الاستمتاع بطفولته . وهذا ما حدث لـ « سلفادور » فقد حرمته الراهبات بمسوتهن البالغة من أن يعيش الفترة الأولى من حياته على سجيته ، وبذلك سلبته طفولته وسلبن معها فرصته في أن يبنى شخصية سليمة . ولقد أضفن إلى هذه الجريمة جريمة أخرى وهي^١ التنكيل به لاستدراجه في التبول بعد أن شب عن الطريق وكبر ، فدفعته بذلك إلى أن يرى نفسه في صورة الوحش الكاسر الذي خلق لارتكاب أبشع الأخطاء ، وأن يمارس حياة هذا الوحش وهو في السادسة عشرة^٢ من عمره .

ولم تكن مصادفة أن ارتكب « سلفادور » جريمة الوحشية وهو

يغطي رأسه بقميصه حمراء ويتدثر بعباءة سوداء فضفاضة ، فالقميصوة ترمز إلى غضبه اخائل المكبوت لما عاناه من ظلم بلا مبرر ، والعباءة ترمز إلى ملابس الراهبات اللاتي أسرفن في تعذيب حياتهن .

فالعالم الذي تعامل معه في طفولته وصباه صور أنه نفسه في شكل « دراكيولا » مصاص الدماء ، فلما أفلت منه زمام نفسه اختار أن يتحدى المجتمع الإنساني بالشكل والمنظر ذاتهما . . .

ويؤكد العلم أيضاً أن أهم عنصر في بناء الشخصية السليمة أن يحس الإنسان ، خصوصاً في بداية حياته ، بأنه مرغوب فيه خصوصاً من قرب الأقربين إليه ، فهل أعطى « سلفادور » فرصة الإحساس بذلك ؟ الجواب طبعاً بالنفي ، فأبوه لم يكن يريد له منذ مولده بدليل قسوته على زوجته وتخليه نهائياً عن ابنه ، كذلك تخلت أمه عنه أيضاً عندما وضعت في الملجأ راضية بشروط الراهبات التي تنص على فصله التام عنها . ولقد أمعنت الأم في تخليها عنه بهربها المستمر من الملجأ ، ثم عودتها بعد أسابيع كثيرة أو شهور طويلة . . . كذلك زوج الأم ، فقد أثبت هو الآخر عدم رغبته في الصبي ، بمواصلته ضربه وإهانته وتجويعه وطرده بالنيل إلى ظلام الشارع ، حيث لا فراش ولا أنيس ولا مأوى .

فكان الظروف تكاثفت لتقنع « سلفادور » في جميع مراحل حياته بأنه مجنون تعس لا يريد له أحد . وما دام الجميع لا يريدونه فهم يتمنون القضاء عليه دون ذنب جناه .

هذه الأوهام البشعة والمشاعر الحزينة التي أوجدتها ظروفه المثقلة

بالعذاب والحرمات ، هي التي دفعته إلى انقضاء على صبيان آخرين أبرياء لم يسيء أحدهم إليه . مثلاً لم يسيء هو إلى أحد . ومع ذلك نجرح من العذاب أنواعاً مختلفة .

فالطفل - كى يتحول إلى إنسان كبير ساهم النفس والأخلاق - يحتاج أكثر ما يحتاج إلى الشعور برغبة الآخرين فيه ، لا بالكلام المقتعل ، بل بالعطف والحنان والرفق والتسامح ، لا بتسامة الحلاوة وتقرباة الرقيقة والضمة الحانية والاستعداد لحبه بكل أخطائه ومساوئه .

أكبر الجرائم

لقد عاش « سلتادور » حياته كلها خائفاً نتيجة لفصله عن أمه وهو في أشد الأوقات احتياجاً إليها ، عندما كان ينام بالذبل بعيداً عنها في الملبأ يطوقه الظلام الملىء بأسباب الرعب للأطفال . . . تطارده صرخات المحبطين من النزلاء . . . يهدده الجوع الذى لم يجد مطلقاً من يعمل على إسكات وجيعته فى بطنه . . . ويربص به بطش الراهبات لكل هفوة تصدر منه دون قصد .

هذا الخوف الدائم كان سبباً رئيسياً فيما أصابه من انحراف انتهى بارتكاب هذه الجريمة البشعة . نتيجة لانهايار جميع القيم التي كان يتوكل عليها . . . ويتمثل ذلك فى رفضه الإنجيل مع كونه صبيياً يميل بطبعه إلى التدين ، وفى قوله عند القبض عليه : « أرجو أن يحكم علىّ بالإعدام كى تستمتع أمى برؤيتي وأنا أحترق فى الكرسي الكهربائي » ؛ فقد صدرت

هذه لصرخة بصورة تلقائية مبررة عما يضيق به صدره من الاحتجاج الشديد على تخلى أمه عنه في الضيقة . . . فالحب هو عماد الحياة الإنسانية ، ومن الضروري أن يتذوق الإنسان منه جرعات مشبعة من بداية حياته . فالحرمات من الحب كثيراً ما يلوث بنفسه بالقسوة الحيوانية . ويدفع المحروم إلى ارتكاب أبشع الجرائم .

والحب يبدو في عطف الأم على طفلها وحرصها على البقاء بجانبه دائماً حتى لا يفترقها عندما يحتاج إليها ؛ وهو إذا جاع فعلى أمه أن تسرع بإطعامه . وإذا صرخ بالليل منادياً فعليها أن تأخذه فوراً بين أحضانها تهدئته وتدنيه حتى تعيد إليه هدوء نفسه واضمئنانها . . وإذا كان يخاف من الظلام فمن الضروري أن تضاء غرفته بنور بسيط يبدد الظلام من حوله .

فالطفل في بداية حياته لا يخاف إلا من الموت ؛ إذا جاع ولم يجد الطعام في تناوله يخاف أن يموت ؛ وإذا سمع أصواتاً مزعجة ولم يجد الصدر الحنون الذي يضمه ويهدئه يخاف أن يموت ؛ وإذا فُرض عليه أن يفعل شيئاً لا يستطيع القيام به يخاف أن يموت . . . والخوف من الموت هو العدو الأول للشخصية السليمة . وإذا لم يعالج بالحب والفهم والحنان والعطف يؤدي إلى إغراء الشخص بقتل الآخرين تخلصاً من رعبه . . .

أما عن مصير « سلقادور » فلقد عجز التحليل النفسي عن إفادته ، لأن الضرر كان قد توغل وتخطى مرحلة العلاج . ولما كان في السادسة عشرة

من عمره فقد اعتبر بحكم القانون بالغاً ، فصدر الحكم عليه بالإعدام ، ولكن نظراً لظروفه الخاصة شمله وزير العدل برأفته ، وبُدِلَ الإعدام بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وبذلك أضاع عليه الأمل في الانتقام من أمه التي تخلت عنه ، وتعذبت برؤيته يحترق على الكرسي الكهربائي .

بَيْتٌ " يَنْتَقِمُ مِنْ أَبِيِّهِ "

• إنَّ المثل الأعلى للصَّبِّ في سن الطفولة هو أبوه ، وهو
يَعْلَمُ الكثير من هذا الأب عن طريق تَقْلِيدِهِ . .
فإذا لم ير منه سوى القسوة ، اختار لعقَابِ أَبِيهِ
الأسلوب نفسه .

القاتل الصغير

هو صبي في الحادية عشرة من عمره اسمه « بيل » . ينتمي إلى أسرة طيبة لديها من أسباب المال والجاه والمعرفة ما كان ينبغي أن يؤدي للأطفال كافة فرص النجاح في الحياة ، لو أن الأهل عنوا في تنشئتهم باتباع الأساليب التربوي السليم . . . وكان « بيل » وأخته الصغرى « جينيفر » هما الطفلان الوحيدان لوالدهما رجل الأعمال الجبار المسيطر . ومن سوء الحظ أن الأم كانت أضعف شخصية من أن تستطيع الحد من جبروت زوجها ومعالجة آثار أخطائه التربوية في أولاده ، مما أدى إلى دمار « بيل » وهو مازال في بداية العمر . .

فقد شاء القدر أن يأتي هذا الصبي إلى الحياة متوسطاً في كل شيء . الذكاء والشكل وخفة الروح ، وأن تأتي « جينيفر » بعده بستين على العكس تماماً : جميلة شيطنة لماحة .

والظاهر أن الأب شعر في قرارة نفسه بأن ابنه البكر قد خذله بتوسطه في كل شيء ، فصب نقمته عليه ، وآثر « جينيفر » بكل ما يملك من أرق المشاعر والأحاسيس ، فكان يدللها بإفراط ، ويتقبل بمنتهى السماحة والرضا جميع ما يصدر عنها من أخطاء ومخالفات ، وينصرها دائماً على أخيها « بيل » بالحق والباطل . . . في حين أن « بيل » لا يذكر أنه رأى والده ولو مرة واحدة يبتسم في وجهه أو يربت بيده على رأسه أو يطوق جسده الصغير بذراعيه القويتين كما يفعل دائماً

مع أخته . . . مضافاً إلى ذلك القسوة في العقاب بالضرب أو انتسفيه
أو السب الموجه للنفس أكثر من التأديب البدني كلما جاءت الشهادة
المدرسية بدرجات أقل مما يريد الأب ، أو يتأخر الصبي ولو دقائق
معدودات عن الموعد المقرر لعودته من المدرسة . . .

وعاش « بيل » إلى أن بلغ الحادية عشرة من عمره في حالة من الغليان
النفسى المكبوت ، وظلت حرارة هذا الغليان ترتفع دون أن يظهر لها أثر
في وجهه أو تصرفاته ، حتى بلغ الضغط أقصاه وأصبحت المحنة في انتظار
الشرارة المولدة للانفجار . .

ولقد وقع المحذور ذات مساء وعلى غير انتظار ، عندما عاد الأب
إلى بيته من رحلة اقتضت غيابه أياماً ، وهرع « بيل » و « جينيفر »
لاستقباله عند الباب فرحين بلقائه فإذا بالأب يفتح ذراعيه على سعتيها
لابنته . ويضمها إلى صدره ، وهو يطررها بقبلاته ويناجيها بأرق ألفاظ
التدليل . . وعز على « بيل » أن يظل منسياً في مكانه فقال لأبيه كي
يحتذب بعض اهتمامه إليه : « أهلاً يا بابا ! » فأجاب الأب بمنتهى الجفاف
والاقتضاب قائلاً : « أهلاً ! » دون أن يذكر اسمه أو يدير وجهه عن
ابنته الحبيبة المفضلة . عندئذ لم ير بيل مفراً من أن ينسحب إلى غرفته
ليعالج وجيعة قلبه بأداء واجباته المدرسية ، واستذكار دروسه ، عليه
ينجح في الحصول على درجات طيبة في نهاية الشهر ترضى والده عنه
وتلين مشاعره نحوه . . وانكب « بيل » على كتبه . وانهمك في دروسه .
ولكن لم تكد تمضي دقائق معدودات حتى انفتح باب الغرفة ودخلت
« جينيفر » كالإعصار لكي تدعوه إلى تسليتها بمشاركتها في

اللعب بعد أن نالت كفايتها من تدليل « بابا » وتناقت نفسها إلى التغيير . .

وكانت الواجبات المدرسية كثيرة ومعقدة . فرفض « بيل » أن يلعب مع أخته . فإذا بها تخطف الكتب والكراسات من أمامه وتجري بها حول الغرفة . ولما لم يغير ذلك من موقف « بيل » قالت له مهددة « إذا لم تلعب معي فسوف أذهب إلى أبي وأدعي أنك ضربتني كي يؤذيك . فأنت تعرف كم يحبني ويفضلني عليك ! » .

وجاء هذا التهديد الموجه بمثابة الشرارة التي ولدت الانفجار . فقد طاش عقل « بيل » لما سمعه من أخته . وخرج من الغرفة جريئاً ، وعاد لفوره يحمل بندقيته والده ، فأفرغ رصاصها في جسدها ثم ألقي بالبندقية فوق الجسد الصغير المسجى على الأرض وسط بركة من الدم . وجلس على المقعد يتنفس الصعداء . .

واهتز المجتمع الأمريكي من الأعماق لهذه الجريمة البشعة . وزاد الموقف قبحاً ما ورد على لسان المحققين من أن الصبي القاتل يرفض بعناد وإصرار أن يبدي الندم على ما فعل . . . ولما كان « بيل » ما زال حدثاً . والقوانين لا تسمح بمحاكمته كالكبار ، فقد أحيل عن طريق المحكمة إلى مؤسسة طبية متخصصة في علاج أمراض النفس المؤدية إلى الانحراف ، وعهد إلى طبيب مشهور ببحث حالته وعلاجها إن أمكن .

ويقول الطبيب في أسباب وظروف الانحراف المدمر للأبناء والبنات إن الأهل يتصورون أن البراءة التامة هي طابع الطفولة ، وهي غلطة شائعة

فَتَدَهَا الْعَالَمُ ، فَرَوَيْد ، حِينَ أُثْبِتَ بِالْأَسْرَانِيدِ الْعِلْمِيَّةِ أَنَّ الطَّفْوَلةَ تُسْتَبْرِئُةً كَمَا يَسُودُ الْاِعْتِقَادُ . . فَنَوَازِعُ الشَّرِّ تَوْجَدُ فِي نَفْسِ الْاِنْصِغَارِ مِنَ الْبَدَايَةِ وَبِصُورَةٍ أَشَدَّ عَنَفًا مِنَ الْكِبَارِ . ذَلِكَ أَنَّ الْكِبَارَ لَدَيْهِمْ مِنَ الْإِدْرَاكِ وَالنُّضْجِ وَالْفَهْمِ مَا يُمْكِنُهُمْ مِنَ السَّيْطَرَةِ عَلَى مَشَاعِرِهِمْ . فِي حِينَ أَنَّ الطَّفْوَلةَ مُحَرَّومَةٌ مِنْ هَذِهِ الْعَوَامِلِ الْمُهْدِئَةِ . . وَنَوَازِعُ الشَّرِّ فِي الْاِطْفَالِ يُمْكِنُ بِكُلِّ سَهُولَةٍ أَنْ تَمُوتَ مِنْ تَنَقُّاءِ نَفْسِهَا وَلَا يَبْقَى ذَا أَذًى أَثَرَ إِذَا احْتَوَتْهَا بَيْئَةٌ تَرْبُويَةً صَحِيحَةً يَتَوَفَّرُ لِلصَّغِيرِ فِيهَا كَافَةٌ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْغِذَاءِ الْعَاطِفِيِّ لِنَفْسِهِ الْمَتَحَرِّقَةِ إِلَى الْحُبِّ وَالْحَنَانِ وَالتَّسَامُحِ وَالتَّقْدِيرِ لظُرُوفِهِ . . وَلَكِنَّهَا تَنْتَعِشُ وَتَكْبُرُ وَتَتَفَرَّعُ بِالتَّرْبِيَةِ الْخَاطِئَةِ ، أَيْ بِالصَّرَامَةِ وَالْخَفَاءِ وَالْقَسْوَةِ وَالظُّلْمِ فِي الْمَعَامَلَةِ ، وَحَتَّى إِذَا عَمِلَ الْوَالِدَانِ عَلَى كَبْتِ نَفْوَهِمَا مِنَ الطِّفْلِ أَوْ أَخْفَايَا احْتِقَارِهِمَا لِمَوَاجِبِهِ الْمَتَوَسِّطَةِ أَوْ الْخَزِيلَةِ ، وَحِرْصًا عَلَى عَدَمِ النُّطْقِ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ تَدُلُّ عَلَى شَعُورِهِمَا الْحَقِيقِيِّ نَحْوِهِ : فَلَا جَدْوَى مِنْ ذَلِكَ ، لِأَنَّ الطِّفْلَ بَغْرِيزَتَهُ الْفَطْرِيَّةَ مَزُودَ بِالْقُدْرَةِ عَلَى قِرَاءَةِ الْمَشَاعِرِ وَالْأَفْكَارِ مِنْ خِلَالِ النُّظُرَاتِ الْمَوْجِهَةِ إِلَيْهِ . إِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْأَصَالَةِ وَالْإِخْلَاصِ ، وَالتَّظَاهَرِ وَالْإِدْعَاءِ فِي مَعَامَلَةِ الْوَالِدِيَّةِ لَهُ . . وَإِذَا فَطِنَ الطِّفْلُ إِلَى أَنَّهُ غَيْرُ مَرْغُوبٍ فِيهِ أَوْ أَنَّهُ مُحْتَقَرٌ مِنْ أَهَمِّ شَخْصِينَ بِالنِّسْبَةِ لَهُ فِي هَذَا الْعَالَمِ الْكَبِيرِ وَهُمَا الْوَالِدَاءُ ، تَتَوَرَّقُ شَيَاطِينُ الْحَقْدِ فِي صَدْرِهِ ، وَتَكْبُرُ مَعَ الْأَيَّامِ وَيَتَسَّعُ شَرُّهَا إِلَى أَنْ تَأْتِيَ اللَّحْظَةُ الْمُنَاسِبَةُ الَّتِي يَزِيدُ فِيهَا الضَّغْطُ عَلَى قُوَّةِ الْاِحْتِمَالِ فَيَحْدُثُ الْاِنْفِجَارُ بِشَكْلِ مِنْ أَشْكَالِ الْاِنْخِرَافِ الْعَنِيفِ .

وَبِنَاءً عَلَيْهِ فَالْاِنْخِرَافُ لَا يَهْبِطُ عَلَى الصَّغِيرِ فَجْأَةً ، وَلَا يَأْتِي بِعَشْرَةِ

السوء كما يظن البعض ، إنما تتجمع عناصره ذرة ذرة بالحرمان من التقدير والحب والعطف ؛ وحتى إذا أتى الانفجار في سن العشرين أو الثلاثين فالأصل فيه يعود دائماً إلى مشاعر الغضب والحقمد والشعور بالظلم في مرحلة الطفولة الأولى .

ومن طبيعة الطفل أنه يريد دائماً أن يكون محبوباً من والديه لنفسه فقط . لا لأنه جميل الشكل أو خفيف الروح أو ذكي أو مجتهد في دراسته .

فلكى تموت نوازع الشر في صدره ينبغي أن ينال هذا الحب من والديه دون مقابل وأن يجد مكانه الفسيح في قلوبهما الكبيرين مهما كانت عيوبه . فليست غلطته أنه جاء إلى الحياة غيباً . . . أو بليداً . . . أو متوسط الذكاء أو دميم الشكل . . أو ثقیل الدم . . بل إن الطفل الفقير في مواهبه أحوج إلى الحب والعطف والتقدير من أخيه الذي أكرمته الطبيعة بمواهب فائقة تأتيه بالحب والتقدير دون جهد من ناحيته ، ولو حاولنا تطبيق هذه المبادئ على حالة « بيل » لوجدناها واضحة للغاية .

فلقد جاء إلى الحياة ولا ذنب له في نصيبه المحدود من المواهب ، وبدل أن يُغْمَرَ بالعطف والحنان لكي يعوض بهما ما ينقصه ، استبد به والده وضغط عليه أكثر مما تحتمل مشاعره : فقد طالبه في دراسته بأضعاف ما يستطيع ، وقسا في زجره وتأديبه على أمور لا حيلة له فيها ، والأبشع من هذا كله أنه ميز « جينفير » عليه . . أحبها أضعاف ما أحبه . .

تسامح معها في الأخطاء التي يجرمها عليه . . أعطاه كل شيء وحرمه كل شيء ، فيما عدا المهانة والاحتقار والاستهانة بوجوده .

حب الوالدين

ويقول الطبيب النفسي إن الطفل لكي يشب طيب الأخلاق سليم النفس والمشاعر ، يطيع والديه ويحترمهما كما يحترم المجتمع الذي يعيش فيه ، ينبغي أن يحصل على قدر مذكور من الحماية والقوة ، وهو يستمد هذه الحماية وهذه القوة من عطف والديه عليه وحبهما له ولينهما في معاملته وتقديرهما لاحتياجاته وتسامحهما عن أخطائه وعدلهما التام في الحكم على تصرفاته .

فإذا شغلت الأم عن الطفل بمتاعبها الخاصة أو التزاماتها المختلفة أو إذا قسا قلبها عليه ، تكون النتيجة أن يحرم من الغذاء النفسي والعاطفي الذي يحتاج إليه ، ويفقد الشعور بالحماية والقوة ، فيشب قلقاً خائفاً متمرداً ناقماً حاقداً .

وهذه الصفات كفيلة بأن تفقده احترامه لنفسه ، وتدفعه في طريق الانحراف ، وتنمي بذرة الشر الكامنة في طيات تكوينه النفسي نمواً لا بد أن يدمره بصورة من الصور .

إن المثل الأعلى لأي صبي في سن الطفولة هو أبوه ، وهو يتألم الكثير من هذا الأب عن طريق مراقبته الدقيقة لأفعاله وتصرفاته ، وإذا تعلم قلد واقتبس . . فماذا رأى « بيل » في رقابته لأبيه ؟ لم ير سوى مخلوق قاس بارد العاطفة عدائي في سلوكه نحوه ، لا يعرف الرحمة في

معاملته . وبهذه الصفات المقيمة أثر الأب في شخصية ابنه دون أن يدرى . وطبعها بطابعه .

فالمصبي « ببل » لم يجد أمامه ما يحتديه في مثله الأعلى سوى القسوة البالغة . لذلك اختار لعقاب أبيه نفس الأسلوب . . أى القسوة . وعمد في التنفيس عن غضبه المكبوت بحرمان أبيه من البنت الصغيرة التي منحها كل حبه . والتي عذب أخاها المسكين إكراماً لما ودون ذنب جناه . أراد أن يؤلم والده مثلهما آلمه مراراً . فاختر له أشد أنواع الإيلام في غمرة انفجار نفساني مذاجى أعشى ضميره عن التمييز بين الخير والشر . والتفرقة بين الصواب والخطأ .

والسؤال الذى يدور فى أذهاننا الآن هو : هل من الممكن علاج الانحراف الخطير العنيف الذى يصيب طفلاً مثل « ببل » ويدفعه إلى الردى فى أحضان السقطات الأخلاقية البشعة نتيجة لتقصير والديه فى معاملته بالأساليب التربوية السليمة ؟

ويجب الطبيب عن هذا السؤال بأن إنقاذ المنحرف الصغير وتقويمه لا يكون بالضرب ولا بالسجن ولا بالإيداع فى مؤسسات تأديبية مثل الإصلاحيات . . إنما يكون الإنقاذ والتقويم بالعلاج النفسى ، وقد ينجح هذا العلاج مائة فى المائة إذا كان المنحرف الصغير مازال يحتفظ بقدر من الثقة بالآخرين ، ويشعر بعطف الطبيب عليه ، فيسلم له قيادته كى يتيح له فرصة تطهيره من أدران الحقد والكراهية . ويعيد إليه القدرة على التمييز بين الخير والشر . . . وقد لا ينجح العلاج إذا كان الضرر قد استفحل وتوغل فى النفس وترك آثاراً لا تمحى ، ففى مثل هذه الحالة

يسجن الطفل نفسه بين جدران الحقد والكراهية ويغلق أبواب عقله الباطن في وجه الطبيب بحيث يعجزه عن الوصول إلى قراره . . .

ومثل هذا الصبي . حتى إذا أُلْغِيَ عن الإجرام فيما بعد : لا يفعل ذلك ندماً على ما فعل . أو تقديراً لقبح غلطته . بل تلافياً للمتاعب المستقبلية . . ومعنى ذلك أن يعيش ما تبقى له من الحياة بشخصية هزيلة غير قادرة على التجاوب مع المشاعر النبيلة . . .

كارولين "تنتقم لطفولتها"

هـ لماذا كانت ليلة عيد الميلاد قنبلة فجرت أحزان كارولين
ومتاعبها ودفعتها إلى ارتكاب جريمةها البشعة ؟

وقعت حوادث هذه المأساة في ليلة الرابع والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٩٦١ م وهي ليلة عيد الميلاد المجيد الذي اعتاد العالم المسيحي كله أن يحتفل به ، كل بطريقته المميزة . . فعلى عكس ما يحدث عندنا في « الكريسماس » من صخب وهرج ومرج . يحرص الناس هناك على ملازمة بيوتهم بعيداً عن الأماكن العامة . . ويتركون الشرب والرقص واللهو ليلة رأس السنة التي يطلقون فيها لأنفسهم حبل المرح على غاربه . أما في « الكريسماس » أو عيد الميلاد فيضفون عليه طابعاً عائلياً وقوراً يجمع شمل الأسرة حول مائدة عميدها بعد العودة من الكنيسة والانهاء من أداء الشعائر الدينية الواجبة . .

والمسيحيون في أمريكا وأستراليا وغيرها من قارات العالم يعتبرون الاجتماع بالوالدين والإخوة في هذه المناسبة سنة مقدسة ، وكثيراً ما يأتون من بلاد بعيدة لقضاء هذا العيد مع أهليهم وإخوانهم من ذوى القربى . . لذلك تجد الأماكن العامة هناك تكاد تكون خالية من روادها ، فيما عدا البائسين الذين شاعت ظروفهم التعمسة أن تمزق روابط انتمائهم العائلي وتلقى بهم في أحضان الوحدة المريرة . فمثل أولئك البائسين لا يجدون في « الكريسماس » من يلوذون به ، فيلجأون إلى الحانات ليغرقوا في كئوس الخمر همومهم . .

وفي تلك الليلة من العام المذكور دخلت « كارولين » برفقة صديقتها « جين » إحدى الحانات الواقعة في قلب مدينة « نيويورك » المصاحبة دائماً بالناس والأحداث . .

وكانت « كارولين » في الثامنة عشرة على أكثر تقدير ، جميلة الوجه ،

غزيرة الشعر ، وشيقة القوام . . ترتدى ثوباً رخيص الثمن ، لكنه غاية في البساطة وسلامة الذوق .

لكنها كانت عند دخولها الحانة محتقنة الوجه حادة النظرات سريعة الخطوات ، تدب بقدميها على الأرض في عصبية واضحة ، على عكس رفيقتها « چين » التي كانت تسير بجوارها بادية الهدوء والمسالمة كأنها منقادة لها واقعة تحت تأثيرها . .

وألقت « كارولين » نظرة سريعة على الجالسين في الحانة . فلما رأت القاعة مليئة بهم على غير المعتاد ، في مثل تلك الليلة المباركة ، وكان معظمهم من الكبار الناضجين الذين ينم مظهرهم على أنهم من أرباب الأسر ، ولا بد أن يكونوا أزواجاً وآباء . . ازداد وجهها حثقاناً وهمست تقول لصاحبتها في عنف ومرارة : « هكذا الرجال دائماً . . خنازير قذرة ، لا قلب لها ولا ضمير . . يتركون ذويهم يصارعون الوحدة والحرمان في ليلة كهذه ، من أجل أن يملأوا بطونهم بالخمير ، و ينفقوا حصيلة دخلهم الأسبوعي في إرضاء نزواتهم الحقيرة . . » .

وهزت « چين » رأسها مصدقة على كلام صاحبتها دون أن تنطق بكلمة ، وسارت بجوارها في استسلام إلى أن وصلت إلى « البار » فجلست على مقعدين عاليين وسط الرجال المجتمعين حول الساقى . وبصوت مرتفع عامر بالتحدى طلبت « كارولين » كأسين من أقوى أنواع الخمر ، أعطت إحداهما لصاحبتها ورفعت الثانية إلى فمها وابتلعها دفعة واحدة ، ثم أمرت بدورة ثانية وهي تحض « چين » على الإسراع في الشرب .

ولم يكن من المألوف أن يتراد الحانات في ليلة عيد الميلاد سوى نساء الليل المحترفات. وكانت الخمر قد لعبت برؤوس المجتمعين حول « البار » ، فأخذوا يتغامزون على الفتاتين . واجترأ بعضهم على رفع صوته بعبارات تغدش الحياء . .

وازدادت براكين الغضب تأججاً في صدر « كارولين » . وقد اعترفت فيما بعد في أثناء التحقيق أنها كانت تصرخ بأعلى صوتها احتجاجاً على قحة هذا الرجل . . الذي يمثل أبناء جنسه من الخنازير البشرية القمرة الذين لا يعرفون في تعاملهم مع النساء سوى استغلالهن في إرضاء شهواتهم الحيوانية، وبمجرد أن يقضوا حاجتهم منهن يديرون لهن ظهورهم، وينبذونهن بلا رحمة أو شفقة . .

لكن « كارولين » استطاعت حتى هذه اللحظة أن تسيطر على ثورتها النفسية ، فازمت الصمت برهة ثم لم تلبث أن قفزت من مقعدها واقفة ، وبعد أن ألقت إلى الساقى بشن الشراب أسرع بالخروج من الحانة وهي تجذب « چين » من ذراعها . :

سألها « چين » بمنتهى الهدوء والبراعة : هل نعود إلى البيت في هذه الساعة المبكرة ؟

أجابت في حدة وعنف : أتسمين الغرفة القذرة التي نسكنها بيتاً ؟ والله إنني لأفضل أن أقضي الليل في الشوارع على العودة إلى جحرننا العفن . .

واستوقفت سيارة تاكسي تصادف أن مرت بهما في تلك اللحظة ،

وطلبت من سائقها أن يحمئها إلى حانة أخرى تقع في إحدى ضواحي مدينة نيويورك . .

وجلس في مقعدها جامدة وقد تسمرت عيناها على حذاء صغير لطفل رضيع يعلقه السائق على المرأة الموضوعة أمامه . .

وحاولت « چين » مراراً أن تجاذبها الحديث عليها تخرجها من حالة الانفعال النفسى المسيطرة عليها ، لكنها لم ترد أو تتحرك . إذ كانت بقلبها ومشاعرها وسمعتها وبصرها مع الحذاء الصغير المدلى من المرأة . . حذاء الطفل الذى لا بد أن يكون الآن نائماً بفراشه في انتظار عودة أبيه من العمل . .

قال السائق في نظرف : لا بد أنكما تعتزمان قضاء ليلة حمراء في الحانة البعيدة ، ولكن ألستما أصغر سنّاً من أن تمارسا مثل هذه الحياة ؟ !

ولقد ذكرت « چين » في التحقيق أن « كارولين » التى ظلت منذ ركبت السيارة مسمرة النظرات على الحذاء الصغير المعلق أمامها ، انتفضت فجأة حين سمعت سخريّة السائق وتعريضه بهما . وعلى غير انتظار فتحت حقيبة يدها ، وأخرجت منها غدارة صوبتها إلى رأس الرجل وهى تأمره بالوقوف . . وعندما اضطره الخوف إلى تنفيذ أمرها ، طلبت إليه أن يعطيها كل ما معه من النقود ، وهى تقول في صوت كأنه يأتى من العالم الآخر : « أسرع بنقودك قبل أن أهب رأسك برصاصة تطيح بأفكارك القذرة . . »

قال في غضب : ليس من حقك أن تفعل ذلك !

أجابت . وقد ازدادت حدة وانفعالا : « إياك أن تنطق بهذه العبارة مرة أخرى . فلقد عشت طوال عمري أسمعها كلما أردت أن أفعل شيئاً ! »

قال وهو يمد يده إلى جيبه ليخرج حافظة نقوده : أيها البغي ! ولم يتم كلامه ، فقبل أن تصل يده إلى جيبه كانت الغدارة قد انطلقت وأصابته في جمجمته ، فهاوى الرجل على عجلة القيادة صامتاً والدماغ تنفجر من رأسه . .

صرخت « چين » في رعب مميت : لقد قتلته يا « كارولين » ! أجابت الفتاة الشابة وكأنها تستقيظ فجأة من كابوس مخيف : والله ما أردت أن أقتله ، لكنه سبني ، فطار صواي ولم أعد أشعر بما أفعل . . لم أكن أبتغي سوى نقوده !

قالت « چين » : لماذا تريدني نقوده ومعنا كفايتنا وأكثر ؟ ! أجابت في ذهول : لست أدري . شيء ما أهابني فجأة أن أفعل ذلك . .

قالت « چين » وهي تبكي بحرقه : من أين أتيت بهذه الغدارة ؟ فعلى طول معرفتي بك لم أرك يوماً تملكين سلاحاً أو تحملينه ؟ ! أجابت في همس كأنها لا تقوى على النطق : سرقها قبل أيام من زميل لنا في المعهد . . كان يحتفظ بها في درجه بحجة الدفاع عن نفسه وقت اللزوم ، لكن الرجال يعيشون في أمان وليسوا في احتياج إلى حماية أنفسهم بالأسلحة . . نحن أولى بها منهم ، لأننا نتعرض لإهازات الرعاع والسكراري واعتداءات الذئاب البشرية التي ترصد بالوحيدات مثلنا . .

قالت « جين » : وما العمل الآن ؟

أجابت : علينا أولاً أن نسرّع بالابتعاد عن السيارة والتخلص من الغدارة . ثم نترك الباقي إلى الصباح .

وفزلت الفتاتان من السيارة . وسارتا مسرعتين بعيداً عن مكان الجريمة . وعند أول صندوق قمامة قابلهما ألقت فيه القاتلة بالغدارة ، ثم عادت الاثنتان لتقضيا البقية الباقية من ليلة عيد الميلاد في غرفتهما الحقيرة : أو الجحر العفن على حد تعبير « كارولين » . .

ومرت بهما ليلة ليلاء . لم يغمض لهما جفن فيها . . وفي الصباح المبكر خرجتا إلى الطريق مرة أخرى للبحث عن إحدى الجرائد اليومية . . وفي الصفحة الأولى وجدتا قصة مصرع السائق ، وكيف عثر عليه رجل الشرطة مقتولاً بالرصاص في منطقة زائفة من طريق الضواحي . . وجاء في سياق الخبر أن الجريمة لم تكن للسرقة بدليل العثور على نقوده كلها سليمة في جيبه ، كما فشل البحث والتقصي في الاهتداء إلى شاهد يستطيع أن يدلي بمعلومات تفيد في الإرشاد إلى القاتل . .

كانت « كارولين » في أمان ، وليس من المحتمل أن نخوم حولها الشبهات .

لكنها أصرت على تقديم نفسها للشرطة . وقالت في تبرير تمسكها بضرورة هذه الخطوة الكفيلة بتدميرها : « لقد قتلت رجلاً ، وحرمت إنساناً من حياته دون وجه حق ، وما دامت العين بالعين والسن بالسن ، فعلى أن أعترف بجريمتي وأكفر عنها . . » .

وسارت بخطوات جادة إلى مركز الشرطة ، وتقدمت إلى الضابط
النوبتجي باعترافها . :

ولم يصدق الضابط لأول وهلة أن فتاة صغيرة جملة مثلها تقترف
جريمة دموية رهينة كهذه دون مبرر معقول . :

وتصور أنها من المجانين الذين كلما قرأوا في الصحف عن جريمة
يتقدمون إلى الشرطة زاعمين أنهم مرتكبوها ثم لا يلبث التحقيق أن يثبت
براءتهم الكاملة . :

وهذا النوع من الجنون مألوف في أمريكا ، والمصابون به يسببون
للشرطة متاعب كثيرة . .

أكن الفتاة أصرت على أنها القتالة ، وأدلت بمعلومات وتفاصيل
لا يعرفها سوى القاتل ، كما أرشدت إلى مكان الغدارة حيث أُلقت بها في
صندوق القمامة ، فلم يبق مفر من اتخاذ الإجراءات القانونية ضدها .
ونظراً لصغر سنها ثم عجزها التام عن إعطاء مبررات مقنعة لجرمتها ،
أمر القاضي بإحالتها إلى طبيب نفسي للتأكد من سلامة عقلها قبل
تقديمها للمحاكمة .

وقضى الطبيب النفسي ستة أشهر في مجالستها بحثاً عما يخترزه عقلها
الباطن من الدوافع إلى الجريمة .

ولقد لقي منها في البداية مقاومة شديدة في فتح عقلها الباطن ، لكنه
لم يلبث أن نجح بوسائله العلمية في الوصول إلى قصة حياتها ، وما اكتنفها
من مأس قذفت بها بعيداً عن طريق السلامة .

فقد ولدت كارولين بمدينة ديترويت ، وهرب أبوها قبل مولدها أو بعده بشهور ، فالحقيقة لا يعرفها أحد . والمعلومات الوحيدة التي توصلت إليها الفتاة عن نفسها وجدتها في ملف خاص بحالتها مودع لدى محكمة الأحداث . . . ففي ذلك الملف عرفت ما يفيد بأن أباهما أثر أن يهرب من بيته تخلصاً من أعبائه العائلية ، تاركاً خلفه زوجته وبناته الثلاث بلا عائل أو معين . . . وقبل أن تبلغ كارولين الشهر الثامن من عمرها ، ماتت أمها وأختها الكبرى بالتسمم إثر تناولن وجبة من الطعام الفاسد . . . ولم تتمكن الجهات المسؤولة من العثور على أهل « كارولين » الرضيعة ولا على أقارب أو أصدقاء ، فصدرت الأوامر بإيداعها أحد الملاجئ إلى أن تحين لها فرصة المعيشة في أسرة بديلة . :

وبعد أيام من دخولها الملجأ تقدمت سيدة في منتصف العمر اسمها مسز « ديمنج » وأبدت استعدادها لتربيته لقاء أجر تتلقاه من إدارة رعاية الطفولة ، فأجيب طلبها بلا أدنى تردد نظراً لأنها سبق أن تعهدت برعاية فتاة يتيمة أخرى اسمها « بتي » ، وثبت بالبحث والتقصي أنها أحسنت القيام بمهمتها وما زالت ربيبتها الأولى تعيش معها في هدوء وسلام . . . غير أن « بتي » كانت في العاشرة من عمرها ، وفي مقدورها أن تقوم بخدمة نفسها ، ومساعدة أمها البديلة كذلك في أداء الواجبات المنزلية . . . على عكس « كارولين » الرضيعة التي كانت بحكم سنها الصغيرة تعتمد في كل لحظة من حياتها على جهود أمها البديلة . فهي التي ترضعها وتنظفها وتغير لها ثيابها وتغسلها ، هذا غير السهر عليها بالليل وحملها بالنهار ، مما حول الطفلة إلى عبء رهيب أثار عليها نقمة المرأة ،

(٨)

وجرحها من الحب الذي كانت تغدقه على بيتي ذات الفوائد الكثيرة .
 والمعروف علمياً أن الأطفال في بداية حياتهم يكونون بالغى الحساسية
 لمشاعر أمهاتهم نحوهم . أو مشاعر من يقمن منهم مقام الأمهات . :
 فانعكست نقمة مسز « ديمنج » على الرضيعة المسكينة ، ودفعها طوال المرحلة
 الأولى من عمرها إلى أن تكون مصدراً لتعكير صفو أمها البديلة بالبكاء
 المستمر ليلاً ونهاراً ، وبالتبول . على نفسها إلى ما بعد السن التي تسمح
 بذلك . .

ولقد ضاعفت هذه المضايقات من نقمة المرأة على « كارولين »
 حتى بلغت المسألة مبلغ العداوة السافرة . ومن آيات ذلك أن حرمت على
 الفتاة مناداتها بلقب أمي ، كما تفعل بيتي . وإذا أفلمت هذه الكلمة من
 فمها عفواً تزجرها قائلة : « لاتناديني هكذا مرة أخرى ، فلست أملك
 ولا أحب أن أكون كذلك » . وكانت « كارولين » ترد العدوان بالمثل ،
 فإذا ضربتها مسز « ديمنج » لسبب من الأسباب - . وكثيراً ما كانت
 تفعل ذلك - تصرخ الفتاة في وجهها قائلة : « لست أمي كي تضربيني
 هكذا » !

ومضت السنوات الأولى من حياة الفتاة في وحدة نفسية قاتلة : تشعر
 في هذا العالم الكبير المليء بالناس أنها وحيدة . . لا تنتمي إلى أحد . .
 ولا أحد ينتمي إليها . على عكس جميع من تعرفهم من الأطفال الآخرين
 سواء أكانوا من زملائها في المدرسة أم من أبناء الحيوة ، فقد كانوا - حتى
 الأيتام منهم - يعيشون في كنف أسر سعيدة مترابطة تدفئ حياتهم بالحب
 والحنان والرعاية : : فيما عدا القلة من مثيلاتها المحرومات من الروابط

الأسرية ، فيؤلاء المنبرذون يقضون أجمل سنى عمرهم بين جدران الملاجئ دون هدف أو أمل أو احترام اجتماعي . وهو المصير الذى كانت « كارولين » تترهبه ، وتفضل عليه الموت ألف مرة . . . فمسز « ديمنج » — برغم قسوتها البالغة — تمنحها على الأقل حياة أسرية ولو فى شكلها الظاهر ، وهذا أكرم من المعيشة فى الملاجئ وما يكتنفها من تحقير وخزى وإذلال . . . ولما بلغت « كارولين » السادسة من عمرها قررت مسز « ديمنج » أن تترك ديترويت وتعيش فى نيويورك ، فأودعتها مؤسسة للأيتام وسافرت بصحبة « بنى » إلى مقرها الجديد ، بعد أن وعدت بالإرسال فى استدعاء الصغيرة عندما تعثر على المسكن الملائم وتنظم أحوالها فيه . . .

غير أن « كارولين » بطفولتها البريئة تصورت أن أمها البديلة قد انتهزت الفرصة للتخلص منها نهائياً ، وليس فى نيتها أن تبعث فى استدعائها كما وعدت ، ومعنى ذلك أنها فقدت جميع الروابط الاجتماعية التى تصلها بهذه الدنيا ، وأن مسز « ديمنج » هجرتها مثلاً ، سبق أن هجرها أبوها بالحرب ، وهجرتها أمها وأختاها بالموت .

وإزاء شعورها بأن العالم أجمع قد تخلى عنها تملكها ذعر شديد من الخطر المجهول الذى يتربص بها ، فأصببت بانهايار عنيف انقطعت معه عن الأكل والنوم ، وعادت مرة أخرى تتبول على نفسها وتمص أصبعها ، مما أثار عليها موظفات المؤسسة ودفع بالبنات إلى معايرتها والسخرية منها : جزاء هذه التصرفات التى كانت تأتيها برغم إرادتها . . .

ولم تكن مسز « ديمنج » تنوى التخلص منها كما توهمت ، وقد وفّت بوعداها فأرسلت فى استدعاء الفتاة بعد أن نظمت أحوالها بمدينة نيويورك .

غير أن الضرر النفسى كان قد وقع وانتهى الأمر ، وأصبحت « كارولين » فى حالة خوف مستمر من أخطار مجهولة يعجز عقلها الواعى عن توضيحها لها . .

وكانت فى العاشرة من عمرها عندما اضطرتها الأنشطة المدرسية ذات مساء إلى العودة إلى البيت متأخرة ، واختصارا للوقت تركت الطريق الذى تسلكه كل يوم وفضلت الرجوع عبر حديقة تقع بين المدرسة والبيت . . وبينما كانت تسير فى ظلام المساء بتلك الحديقة ، فوجئت برجل من الذئاب البشرية يخرج إليها من بين الأشجار بقصد افتراسها . . فإذا بالخوف الشديد يمنحها قوة مضاعفة ، وراحت تقاومه وتصرخ بأعلى صوتها حتى أثارت اهتمام من تصادف مرورهم بالحديقة حينئذ ، فخاف الرجل ولاذ بالهرب بعد أن تمزقت ثيابها ، وأصيبت فى وجهها وعنقها وذراعيها بجروح وخدوش كثيرة . .

وعادت إلى البيت فى حال يرثى له . :

وأسرعت وهى تلهث وترتجف إلى أمها البديلة تحدثها بما أصابها ، غير أن السيدة لم تبد أدنى اهتمام أو شفقة ، وكل ما فعلته أن نظرت إلى ثيابها وجروحها وقالت فى سخرية واضحة : « أى حمار هذا الذى تجتذبه فتاة مثلك ؟ ! » .

ومنذ ذاك الحادث تغيرت أحوال « كارولين » ، ولوحظ عليها نفورها من الرجال ، وميلها الشديد للاحتماء دائماً بالنساء ، حتى ولو كانت مسر « ديمنج » التى تعرف حق المعرفة أنها تكرهها وتفضل « بتي » عليها . .

وتمتد شمرعت الفتاة في الانتحار ثلاث مرات : أولاً ، وهي في الثالثة عشرة من عمرها ، عندما دعته إحدى زميلاتهن بالمدرسة إلى حفل عيد ميلادها ، وهو حدث عظيم في حياتها المنجردة من كافة أنواع الترفيه والمتعة . ثم ونظراً إلى أن ثيابها كانت جميعها عتيقة وليس بينها ما يليق لهذه المناسبة ، فقد طلبت من أمها البديلة أن تصنع لها ثوباً بسيطاً جديداً يحفظ لها كرامتها بين المدعووات الأخريات . . غير أن طلبها قوبل بالرفض القاطع ، فطاش عقل الفتاة . ولفرط يأسها جرت إلى زجاجة حامض الفتيك وشربت منها جرعات كبيرة أملاً في أن يريحها الموت من مذلة الحياة التي قدر عليها أن تعيشها ، لكنها أسعفت بالعلاج ، وكتب لها أن تبقى على قيد الحياة برغم إرادتها . .

وتكررت المأساة بعدها بسنتين ، عقب مشادة عنيفة قامت بينها وبين مسز « ديمنج » بسبب شكوى ظالمة تقدمت بها « بتي » ضدها ، فانهالت السيدة على الفتاة ضرباً دون أن تبحث في الموضوع أو تتحقق من صدق ربيبها المفضلة .

ومرة أخرى قررت « كارولين » أن تضع حداً لحياتها ، فابتلعت محتويات زجاجة الأسبرين ، ونقلت إلى المستشفى في حالة سيئة ، لكنها أسعفت بالعلاج مثلما حدث في انتحارها الماضي . وكتب لها أن تعيش لتجرع ما تبقى لها من كتوس العذاب المترعة . .

غير أن مسز « ديمنج » وجدت في هذه الميول الانتحارية انحرافاً خلقياً لا يصح السكوت عليه ، فرفعت أمرها إلى إدارة رعاية الأحداث ، فصدر عليها الحكم بسنة تأديبية تقضيها في إصلاحية الأحداث . وبعد

انقضاء العقوبة عادت مرة أخرى إلى أمها البديلة. ولكن بعد أن تعلمت درساً لا ينسى . وهو ضرورة الاحتمال في صمت حتى لا تتعرض مرة أخرى لتجربة الإذلال في الإصلاحية . .

وأحسست مسر « ديمنج » بما يحتاج في ذهن الفتاة . فاستغلت الموقف أسوأ استغلال ، وأخذت تتحين الفرص لتهددها بإعادتها إلى الإصلاحية . حتى إذا لم تأت بما يدعو لهذا العقاب . .

لكن شيئاً حدث خلال مدة عقوبتها ترك أثراً عميقاً في نفسها ، وغير اتجاه ميراثا ورغباتها ، فلقد تنهت في أثناء وجودها بالإصلاحية إلى أنها رائعة الجمال . لديها من الإمكانيات النسوية ما يتيح لها فرص الحياة المحترمة . . إذ كانت زميلات صريحات في امتداح شكائهن وقوامهن وجمال شعرهن . وكثيراً ما كن ينصحنها باستغلال هذه الميزات في الاشتغال كعارضات للأزياء . . وتقبلت « كارولين » هذه النصيحة بلهفة . بعد أن وجدت فيها وسيلة الوحيدة إلى الارتقاء بنفسها إلى مستوى اجتماعي أفضل . . وبمجرد خروجها من الإصلاحية التحقت بمعهد لعارضات الأزياء وعارضاته ، حيث قابلت « جين » - وكانت يتيمة مثلها لا أهل لها ولا أصدقاء - فتوثقت عرى الصداقة بينهما . . وبعد فترة قصيرة من التحاقها بالمعهد أخذ طريق الحياة يتسع أمامها . وأثار جمالها اهتمام المعلنين من مصممي الأزياء ، فكانوا يلبسونها أجمل ما لديهم ، ويصورونها في أشكال مختلفة ، ثم ينشرون الصور بالصحف والمجلات لقاء أجر طيب يفي باحتياجاتها . .

- ومع أن اسمها لم يكن ينشر على الإطلاق ، فقد كانت تجد في ظهور

صورها على صفحات نجمات قرضية تمسية بهيعة . ونقرط اعتوازيها
بذلك كانت تنص الصور وتجمع في كراسات كبيرة أعدها هذا
الغرض . .

وأخذ نفودها من الرجال يتضاعف عندما وقعت في حب زميل لها
بالمعهد اسمه « بوب » . وكان شاباً وسيماً من أسرة ضيقة وبنات المعهد
كلهن يتمنين رضاه ، غير أنه اختار كارولين من دونهن جميعاً ، فأغرقها
بفيض حبه وحنانه إلى أن سلمته نفسها مطمئنة إلى صدقه وإخلاصه . .
لكنه سدد إلى كرامتها طعنة نجلاء حين تخلى عنها فجأة بعد أن قال منها
وطره ، وتحول إلى فتاة أخرى من زميلاتة . .

كانت الصدمة أشد من أن تحتملها . وخيل إليها كأن السماء بكاملها
انطبقت فوق رأسها ، فابتلعت حبوراً مذومة بقصد الانتحار ، لكنها أنقذت
لسوء الحظ مرة ثالثة . .

ومرت بها شهور في شقاء ما بعده شقاء . .

ثم بدأت زهرة الأمل تنبت في قلبها من جديد، حين تعرفت بمصور
للأزياء اسمه « إيدى » يبدو -- فوق ذكائه ومهارته -- ناضجاً مثقفاً ينظر إلى
الحياة من جانبها الرصين . ويتعامل مع الآخرين بغاية الأدب والتهذيب . .
وقد أظهر غاية المهارة والكياسة في اجتذابها إليه . وعندما أحبته متصورة
أن القدر قد أصدر عفوه عنها . دعاها إلى قضاء ليلة معه في أحد الفنادق
الرفيعة ، وفي الصباح اعترف لها بأنه متزوج وله ولدان وليس في نيته

أن يطلق زوجته أو يهجر ابنه . فكانت ضربة أخرى ألقت بها في أحضان اليأس دون شفقة أو رحمة . .

وبلغت « كارولين » الثامنة عشرة من عمرها ، وأصبحت بحكم القانون ولية أمر نفسها ، فتركت مسز « ديتنج » إلى غير رجعة ، واستقلت بمعيشتها في غرفة تقاسمتها هي و « چين » صديقتها الوحيدة في الحياة . .
وتصورت أنها باستقلالها في المعيشة ونجاحها في عملها قد تخلصت نهائياً من عبودية اليم الذي عذب حياتها منذ بدايتها ، وساعدها ذلك على قهر محنتها مع « إيدى » فأشرق وجهها بالبشر ، وتحسنت نظرتها إلى الدنيا ومن فيها ، ثم لاح لها بريق السعادة حين جمعتها الصدق بمحام شاب اسمه « چو » يعمل مع والده في مكتب قانوني ذائع الصيت ، ويعيش مع والديه في قصر منيف . . ولم يكن كغيره من الرجال الذين مروا بطريق حياتها ، إذ أكد لها رغبته في الزواج منها ، ولم يطلب الثمن مقدماً . . وبعد أن استوثق الاثنان من صدق شعورهما ، اصطحبا « چو » إلى بيتهم ليقدمها لأمه وأبيه قبل إعلان الخطبة . .

وذابت مع « چو » وحى تكاد تطير لفرط السعادة والرضا . . وبذلت غاية جهدها في العناية بأناقته وجمالها لكي تنال إعجاب والدي الرجل الذي تحبه ويحبها . .

لكن الأب والأم قابلاها بصداقة وعجرفة ، وأخذوا يستجوبانها عن أصلها وعملها ، فلما اعترفت لهما بأنها يتيمة نشأت في أحضان أم بديلة ، والآن تعمل عارضة للأزياء ، بدا عليهما الذعر والاستنكار ، وانتهت الجلسة بالفشل الذريع مضافاً إلى المزيد من الإحساس بالمدلة والمهانة . .

وفي اليوم التالي جاءها « جو » يبلغها معارضة ولديها في زواجه بها ،
واقتراعه برأيهما ، ثم أولاها ظهره ، وذهب إلى حال سبيله بعد أن
رفضت اقتراحه بأن تقبل معاشرته في الخفاء دون زواج أو أمل في زواج .
وكان ذلك قبل أسبوع من ليلة عيد الميلاد التي ارتكبت فيها جريمة
القتل دون مبرر :

ويقول الطبيب النفسى في التقرير الذى رفعه إلى المحكمة ، إن ليلة
عيد الميلاد بما تحمله من معان وذكريات جاءت بمثابة القنبلة التى فجرت
جميع أحزانها ومتاعبها ، ودفعت بمشاكل عقلها الباطن وعقده إلى التغلب
على عقلها الواعى بهذه الصورة الدموية العنيفة :

فليلة عيد الميلاد هى ليلة الأسرة والأهل والأحباب ، حيث يجلس
الأب ومن حوله أهل بيته يتسامرون ويتبادلون آيات المودة حول الشجرة
التقليدية التى تحمل الهدايا والزينات .. فوالد « كارولين » - الذى عرفت
من سجلات محكمة الأحداث أنه هرب وتخلّى عن أسرته ، وكان بأنانيته
السبب فى موت أمها وأختها بالتسمم - حرّمها من حقها فى الانتماء .. فى
الاستمتاع بالعيد المبارك ، ووصمها بعار اليم والفقر ، وتركها تذوق
وحدها مذلة الحياة منذ البداية .. ولم تكن هناك ليلة أنسب من عيد الميلاد
لتفجير أحقاد الطفلة المهجورة على الرجال فى شخص أبيها ، الذى لا بد
أن يكون على قيد الحياة الآن ، يعيش سعيداً مرحاً ناسياً أنه بأنانيته البشعة
قد ترك خلفه قطعة منه تتمرغ فى مهاوى الحرمان والإذلال والمهانة :

كان والدها - فى حكم عقلها الباطن - أول نذل يمر بحياتها ..
ومن بعده توالى مرور الأندال من بنى جنسه .. الرجل الذى أراد

أن يفتنرسمها في الخديقة . . . ثم يهوب . . . ويأيدى . . . و . . . و . . .
 فهذا الموكب الطويل من الأندال ، الذي شاء حفظها النكد ألا تعرف من
 الرجال سواهم ، أثار نغمتها على الجنس كله . وأيقظ ذيب آلامها النفسية
 المحرقة ، ورددها وهي في الثامنة عشرة من عمرها إلى الطفلة الرضيعة التي
 عاشت عمرها محرومة من الأهل والأقارب والروابط الإنسانية المشروعة . .
 ولقد أكد سوء ظنها بالرجال كونها لم تتصل برجل طيب عن قرب . فقد
 اختفى أبوها من حياتها قبل أن تصل إلى سن الوعي . وتصادف أن قامت
 برعايتها مسر « ديمنج » الأرملة . وقد كان من الممكن أن يتغير شعور
 « كارولين » نحو الرجال ، لو كان لأمها البديلة زوج أو أخ يعيش معهم
 في البيت ، ويعطى بأخلاقه وتصرفاته صورة مختلفة عن التي وجدتتها في
 الأندال الآخرين .

ويؤكد الطبيب النفسي ما سبق أن قرره العالم النفسي « فرويد »
 من أن الطفولة ليست بالبراءة التي نراها ، فالحقيقة أنها أبعد ما تكون عن
 هذه البراءة ، لأن جميع المشاعر الوحشية التي نجدها في الكبار البالغين
 تدور رحاها في صدر الصغير ، وهي تعمل في ذلك الصدر بشدة مضاعفة
 بسبب قصور تفكير الطفل في هذه المرحلة المبكرة من عمره . . والدلائل
 على ذلك واضحة ، فالطفل حين يغضب يضرب بيده أو بما في يده
 غير عابئ أو مقدر أن يلقي بنفسه في موارد التهلكة ، وليس بغريب عليه
 أن يتمنى الموت لمن يضايقه من أقرب الناس إليه ولو كانت أمه . . والمهمة
 الأولى في تربية الطفل تحتم علينا أن نعمل على تحويله من مرتبة العنف
 الوحشي التي يولد بها . إلى مرتبة الإنسان المتحضر القدير على التحكم في

غضبه وقهر مخاوفه ، واستثناس مشاعر كراهية واختلال التي تنتابه في بعض الظروف . .

وإذا كان الطفل العادى يحتاج في عملية التحويل هذه إلى قدر كبير من التعطف والحنان والمسايسة ، فالطفل اليتيم المحروم من الأهل والروابط الأسرية يحتاج في ترويض نوازعه البدائية العنيفة إلى قدر مضاعف من الحنان والحب والرفق والرعاية . . لأن متاعبه النفسية تكون عادة أعمق بكثير من حيث تغاغلها بين طيات عقله الباطن . وبناء عليه يكون من الضروري جداً أن يسند بربته إلى أم بديلة معروفة بالإفراط في الحنان والطيبة مملئة بحقيقة أحواله النفسية ، حتى يمكنها أن تمنحه جو الاطمئنان والاستقرار والشعور بالانذاء ، وتمحو من نفسه فكرة أنه غير محبوب ولا مرغوب فيه ، فترقى به فوق حدة نوازعه الانفعالية التي كثيراً ما تدفعه دون سبب أو مبرر إلى تصرفات عنيفة . تبدو في نظر من يعايشونه — إذا كانوا غير ملمين بقواعد علم النفس — أنها أخطاء فظيعة ، وتدفعهم إلى العمل على تأديبه بمزيد من التشدد ، وهو عكس المطلوب تماماً . .

من الضروري جداً أن تكون الأم البديلة لليتيم على بينة تامة بهذه الحقائق العلمية ، حتى يتسع صدرها لعنفه ، وتتوخى منتهى العطف في إزالة مخاوفه وتهديته . . لكن مسر « ديمينج » لم تكن من هذا النوع ، بل لم تكن لديها أى فكرة عن علم النفس ، فسلكت الطريق غير الصحيح على طول الخط ، وحرمت الفتاة من كل ما تحتاج إليه لتنشئتها تنشئة سليمة آمنة : . ولو كانت مسر « ديمينج » طيبة فاهمة مقدرة لظروف اليتيم واحتياجاته ، لما تعقدت « كارولين » بهذه الصورة ، ولا اقترفت

جريمة القتل ، أو حتى فكرت فيها . :

لكن . لسوء حظ الرضيعة المسكينة . أن ألقى بها في رعاية امرأة قاسية القلب مجردة من الرحمة والشفقة . وبالرغم من المحاولات الكثيرة التي بذلتها الفتاة في التقرب إليها واسترضائها ، ظلت المرأة على قسوتها ، وبذلك غرست في نفسها أولاً بذور عدم الانتماء ، وأيقظت مشاعر العنف والتوحش في صدرها . ثم جاءت الضربة العنيفة بتخليها عنها وسفرها مع « بنى » إلى نيويورك ، فالعذاب النفسى الذى لقيته الفتاة في مؤسسة الأيتام إبان تلك المدة ، والخوف الذى تملكها حين توهمت أنها هجرت ولم يبق في حياتها إنسان تربطها به أدنى رابطة ، أحدثا في نفسها دماراً دائماً أعمق من أن يصحح باستدعاء أمها البداية لها بعد استقرارها في نيويورك ، وقد ظهر أثر ذلك في عودتها إلى التبول على نفسها ومص أصابعها بعد أن كانت قد تخطت هذه المرحلة .

أما لماذا لم تقتل « كارولين » مسز « ديمنج » بدل السائق ، بل لم تخطر ببالها هذه الفكرة مطلقاً برغم العداوة السافرة بينهما ، فذلك لأن الفتاة كانت بعقلها الباطن تعتبرها البديل لأمها المسكينة التى هجرها زوجها دون وجه حق ، ثم ماتت بالتسمم إثر تناولها وجبة من الطعام الفاسد . ففسز « ديمنج » - برغم إساءاتها المتعددة - ظلت في نظر ربيبتها الوجه الآخر للأم ، التى عرفت قصتها المحزنة من سجلات محكمة الأحداث . ولهذا نجت السيدة من نقمة « كارولين » ، وانحصر حقدتها في الرجال ، الجنس الذى عرفته بتجربتها المريرة في موكب الأنذال الطويل ، وأصبح الرجل هو عدوها الحقيقى الوحيد . ولقد انفجرت مراجل حقدتها

الأسود على هذا نعدو حين رأيت الخانة في ليلة عيد ميلاد تعج بالرجال البالغين الذين يبدو بوضوح عليهم أنهم أرباب أسر . . آباء وأزواج . . مكانهم في مثل هذا اليوم المبارك في بيوتهم بجوار أهليهم . . يسعدونهم ويعمرون حياتهم بالحنان والألفة والمحبة . . لكنهم - لفرط أغانيتهم - انساقوا وراء نزواتهم الحيوانية العابرة ، فتركوا أحبائهم يعانون الوحدة والألم ، من أجل أن يملأوا هم بطونهم بالخمير ، وينفقوا نقودهم في متعهم الشخصية . . ولقد رأيت في كل رجل يجلس بالخانة صورة مكررة لأبيها ، وبديلاً مشابهاً للأندال الذين خدعوها وتحلوا عنها . .

ويؤكد الطبيب النفسى أن سرقة الغدادة كانت استعداداً نفسياً مسبقاً لارتكاب كارولين جريمة تنتقم بها لعذابها الطويل . . وكان خروجها المفاجئ من الخانة محاولة منها للهرب من الحقد الأسود الذى استولى فى تلك اللحظة على عقلها ومشاعرها . . ولقد شاء سوء حظ سائق السيارة أن تطاول فى حديثه على الفتاتين ، ورغم أنه أب بدليل الخذاء الصغير المعلق أمامه . . فأطاح تطاوله هذا بما بقى لها من قوة الإرادة فقتلته ، انتقاماً فى شخصه من والدها وجميع الآباء القساة وكافة الرجال الأندال . . لقد قتلت « كارولين » فى شخص سائق التاكسى أباه والذئب الذى أراد أن يفترسها فى أثناء رجوعها من المدرسة . . قتلت "بوب" . . وإيدى . . وجو ، بل جنس الرجال بأكمله . . ورغبة فى تبرير فعلتها لنفسها ، أوحى إليها عقلها الباطن بفكرة سرقة النقود مع أنها كانت تحمل هى وصديقتها « جين » ما يكفى لجميع نفقاتهما خلال تلك الليلة . . ولم تكن فكرة الموت بجديدة عليها بدليل شروعها فى الانتحار ثلاث

مرات خلال حياتها القصيرة . وبما أن « رغبات الانتحارية قد تكون في بعض الأحيان مادية وفي بعضها الآخر معنوية . فقد اختارت كارولين — بعد أن نجت من الموت برغم إرادتها — أن تقتل إنساناً غيرها مما يؤدي إلى القبض عليها ومحاكمتها فيتم انتحارها أديماً . .

فجريمة القتل جاءت بديلاً للانتحار ، ووسيلة لإعلان احتجاجها على المجتمع الظالم وما ينزله بالأبرياء من ألوان التعذيب والتنكيل . .

ولقد تحقق المهدف الذي كانت « كارولين » تسعى إليه بواعز من عقلها الباطن ، وذلك عندما صدر حكم المحكمة عليها بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وما زالت بين جدران السجن إلى يومنا هذا .

جريمة ابن ..

• إن الشذوذ الجنسي في الرجال هو صرخة الاحتجاج على ما حرموه في طفولتهم من القدوة الحسنة للشخصية السوية ، وما سلبته منهم أمهاتهم من فرص ممارسة سيادة الرجل .

فى صباح اليوم الحادى والعشرين من شهر أغسطس عام ١٩٥٤ : دق جرس التليفون بمركز الشرطة الرئيسى فى مدينة برونكس بالولايات المتحدة ، وكان المتحدث هو المشرف على إحدى العمارات الأنيقة القائمة بالحى الشرقى من المدينة ، وأبلغ أن أحد سكان العمارة ، وهو دكتور فرايدون الطبيب المعروف قد وُجد هو وزوجته ميتين داخل الشقة التى يستأجرانها ، وأنه تلقى هذا الخبر من ابنيهما الوحيد « هارلو » الذى حضر لزيارة والديه قبل دقائق من هذا البلاغ ، وفوجئ برؤيتهما على الأرض فاقدى الحياة : ولم تَمُضْ نصف ساعة على وصول هذا البلاغ حتى كان ضابط الشرطة يقف أمام باب مسكن دكتور فرايدون ، وبعد أن دق الجرس مراراً ، فتح الباب بمنتهى الحذر ، ووقف فيه شاب فى العشرين من عمره تقريباً . : فارع الطول . : شديد النحف . : أحمر الشعر . : يضع على عينيه نظارة غاية فى السمك مما يدل على ضعف نظره . .

قال يقدم نفسه للشرطى : أنا « هارلو » فرايدون الابن الوحيد للدكتور وليام فرايدون وزوجته ، ثم تقدم إلى الأمام خطوة ، فظهر خلفه شاب آخر فى مثل سنه لكنه أقصر قامه وأكثر وسامة :

قال « هارلو » هذا صديقى العزيز « دينيس ويمان » ، ولقد استدعيته حين فوجئت بالمصاب ليكون بجوارى . :

ثم انفجر فى بكاء عنيف جداً ، وأخذ يشهق ويشهق ، وبين كل شهقة وأخرى يستنشق من زجاجة نوشادر يمسكها بيده ، ويعتذر عن ذلك

بأنه مريض بالقلب ، وهو يحتاج إلى هذا الدواء مقاومة أثر الصدمة :
 وأفسح « هارلو » الطريق لضابط الشرطة ، ودعاه إلى دخول الشقة ،
 وقال وهو يقوده إلى مكان الجثتين : يشاء حظى التعس أن أمتنى بأربع
 نكبات خلال هذين الأسبوعين الأخيرين ، وأفقد أعز أربعة أشخاص
 في حياتي ، وأنا إنسان مريض القلب وهذه الأحزان فوق احتمالي :
 وإجابة على سؤال ضابط الشرطة عنهم بأعز أربعة أشخاص
 في حياته ، روى كيف ماتت خالته وزوجها بالاختناق قبل عشرة أيام
 في منزلهما الصيفي نتيجة لتسرب الغاز من المدفأة في أثناء نومهما ، وكيف
 وجدتهما الجيران صريعين بفراسخهما في اليوم التالي . . ولما كان والداه شديدي
 التعلق بهذين الشخصين ، فقد أصابتهما النكبة بهزة نفسية شديدة آثرا
 معها الانتحار تخلصاً من ألم الحياة بدونهما . : ثم أكد في حديثه على
 اعتقاده بأنه حادث انتحار ، ولا يمكن أن يكون مصرعهما نتيجة لحادث
 آخر ، فوالده ووالدته محبوبان جداً من كل من يعرفهما ولو معرفة بسيطة ،
 والاحتياطات التي يتخذونها من الدقة بحيث تجعل من المستحيل على إنسان
 غريب أن يقتحم عليهما بينهما . .

كذلك حدث الشرطي بأنه يسكن منذ دخوله الجامعة إلى حين تخرجه
 في ذلك الصيف بمنزل مستقل يشاركه فيه صديقه « دينيس » ، وأنه
 لم ير والديه منذ أيام ، ولما حاول الاتصال بهما تليفونياً صباح اليوم ولم يجبه
 أحد انتابه بعض القلق فجاء بنفسه يستطلع الخبر ، وفتح الباب بواسطة
 المفتاح الذي اعتاد أن يحتفظ به معه دائماً ليسهل عليه دخول بيت الأسرة
 وقتما يشاء . .

وطاف الشرطى بأرجاء الشقة منتقياً ، فوجد على منصدة غرفة المعيشة كأسين نصف ممتلئين بجوارهما زجاجة شمبانيا مفتوحة بجانبها علبة من مسحوق سيانور البوتاسيوم - وهو أبشع وأسرع أنواع السم - داخلها ملعقة صغيرة .. أما القتيلان فكانا يرقدان على أرض المطبخ : الأب بملابس النوم والأم بمعطف الخروج ، مما يوحي بأنها كانت عندما لقيت مصرعها عائداً من الخارج لتوها . .

واستدعى الطبيب الشرعى لفحص الجثتين ، فقرر أنهما ماتا قبل اكتشافهما بأربع وعشرين ساعة على الأقل ، وأكد أن الموت قد حدث نتيجة لتناولهما كمية هائلة من سيانور البوتاسيوم المذاب فى الشمبانيا . . وساورت ضابط الشرطة بعض الشكوك بسبب ثياب القتيلين ورقدتهم المهينة على أرض المطبخ ، فلقد تعلم من خلال خبرته الطويلة فى حوادث الانتحار أن المتحررين يحرصون دائماً قبل إقدامهم على فعلتهم على المحافظة على حسن منظرهم بعد الموت ، فيتأنقون فى ثيابهم ويجلسون بطريقة مريحة ، ثم يقضون على حياتهم بالأسلوب الذى يختارونه . . وأنه لا يذكر مطلقاً ، فى الآلاف من حالات الانتحار التى مرت به ، أن وجد زوجين وفيين ينتحران على أرض المطبخ هكذا . . ثم لماذا يختاران الموت فى هذا المكان المهين مع وجود كؤوس السم المذاب فى الشمبانيا على منصدة غرفة الجلوس حيث المقاعد المريحة والمكان اللائق برجل وامرأة فى مكانة دكتور وليام فرايدون وزوجته ؟

وازدادت الشكوك بالبحث والاستقصاء ، فقد ظهر أن القتيل يملك بوليصة تأمين بمائة ألف دولار ، ويتقاضى من وظيفته بوزارة الصحة سبعة

آلاف دولار في العام . كما تقتضي زوجته المدرسة بإحدى المدارس الخاصة
الأنثوية ما لا يقل عن هذا المبلغ . وهو دخل مشترك يوفر لهما جميع أسباب
الرخاء . . فضلا عن أنهما يتحركان في دائرة اجتماعية واسعة عامرة بالأنشطة
المسلية والأصدقاء الأوفياء ، فليس من المعقول والأمر كذلك أن يؤدي
حزنهما على وفاة القرابين إلى الانتحار بهذه الصورة البشعة . .

وبرغم هذه الشكوك القوية لم يجد المحقق دليلا على ارتكاب جريمة ،
فأقفل التحقيق على أنه حادث انتحار ، وترك الباقي للزمن .

وحانت الفرصة بعد أسبوع واحد من وفاة دكتور وليام فرايدون
وزوجته ، حين وصلت إلى مسامع الشرطة أنباء سهرة حمراء أقامها الابن
الوحيد « هارلو » بمسكنه الخاص ، دعا إليها مجموعة كبيرة من البحارة
والشبان المستهترين ، وقد ترتب على مجيئهم الجنون أن أنكسرت ماسورة
المياه بغرفة الاستحمام ، وتدفقت المياه على الشقق السفلية . فثار غضب
المالك على الساكن الأحمق ، وأمره بالخروج فوراً من مسكنه باعتباره
مستأجراً غير مرغوب فيه . .

ولقد وجد المحقق منتهى الغرابة في أن يقيم « هارلو » سهرة ماجنة كهذه
قبل مضي أسبوع واحد على موت والديه العزيزين وبكائه الشديد على
فقدتهما ، فالخزين الحقيقي لا يجد المزاج لمثل هذا المرح المجنون ومصابه
ما زال قريب العهد هكذا ! . . وبناء عليه بعث المحقق في استدعاء « هارلو »
وصديقه « دينيس » . وعند حضورهما بدا القلق واضحاً على الفتى ، وأخذ
يلح في السؤال عن أسباب استدعائه ، ويجيب على الأسئلة بعبارات
فلسفية ، ويستعين في توضيح أقواله بأبيات من وضع أعظم شعراء إنجلترا

وأمریکا . مما يدل على ارتفاع مستواه الثقافي ، وتضلعه برغم صغر سنه في الآداب القديمة والحديثة . .

لكن عندما ضيق المحقق الحناق عليه ، فهم « هارلو » أن الشكوك تتجه إليه ، فتثار ثورة عارمة ، وقال صارخاً : أبلغت بكم القحة أن تهموني بجريمة حيوانية كهذه . . لو كان لساني بقذارة تفكيركم لأجبت بما تستحقونه ، لكني مع الأسف شاب مثقف مهذب ، لذلك أكتفي بتأكيد براءتي من دم والدي الحبيبين . .

أما صديقه الوسيم « دينيس » فقد ظل طول الوقت هادئاً تماماً يتابع المحقق بنظرات نفاذة قوية ، ويستمع إلى الأسئلة والأجوبة جامد الوجه صامتاً كأن الأمر لا يعنيه . :

ومرة أخرى اضطر المحقق إلى الاكتفاء بهذا الحد من متابعة القضية ، وأقلل التحقيق ثانية على أنه حادث انتحار . .
غير أن الأمور أخذت تتكشف فجأة بعد مضي أربعة شهور من الحادث . :

ففي ذات صباح من شهر ديسمبر علمت الشرطة من إحدى المضيفات بهيئة الأمم المتحدة ، وكانت تعرف « دينيس » منذ أيام الدراسة ، أنه قابلها في الطريق مصادفة ، ودعاها إلى تناول العشاء معه . . وكان يلف رأسه بضمادات كبيرة ، فلما سألته في أثناء الأكل عما به ، اعترف لها بمنتهى الصراحة أنه يهوى كتابة قصص العنف ، وقد نشرت له بعض المجلات أكثر من قصة بوليسية . . ورغبة في رؤية جريمة على الطبيعة رضى أن يشترك مع صديقه في قتل والديه مقابل نصف الميراث الذي يؤول إليه بعد

وفاتهما : : لكن « هارلو » لم يلبث أن أدخل بشروط الاتفاق بعد أن آلت إليه الثروة ، ورفض أن يعطيه شيئاً من نقوده كما امتنع عن إعالته مثلما كان يفعل في الماضي برغم سفاخته في إنفاق المال ، وتبديده خلال الشهور الثلاثة الأخيرة ما يزيد على نصف ميراثه . ولقد ساءت العلاقة بين الصديقين بسبب ذلك ثم حدث ذات يوم أن فوجئ « دينيس » بـ « هارلو » يهجم عليه وفي يده قضيب من الحديد ، ويصرخ وهو يهوى به على رأسه : « إنهم يطاردونني » . ونشبت بينهما معركة دموية انتهت بأصابة الاثنين ، وخروج « دينيس » من بيت صديقه نهائياً . .

وبهذه الأقوال دبت الحياة في عجلة العدالة مرة أخرى : :

وقبض على « دينيس » أولاً ، ومن خلال اعترافاته ظهر أن الصديقين مصابان بالشذوذ الجنسي ، لذلك اختارا أن يعيشا معاً في مسكن واحد كي يتيسر لهما الاستمتاع بانحرافهما بعيداً عن الأهل والأقارب : : . وبرغم أن والد « دينيس » كان محامياً كبيراً فقد توقف عن الإنفاق على ابنه بعد معرفته بانحرافه ، مما اضطره إلى المعيشة على نفقة « هارلو » الذي كان أبوه وأمه يقدان المال عليه دون حساب . .

وقبل وقوع الجريمة بشهرين تخرج « هارلو » في الجامعة بتفوق ، ورفض أن يبحث عن عمل يعيش منه ، ولما كان قد بلغ الحادية والعشرين من عمره ، وهى سن الرشد ، وأصبحت في يده شهادة قيمة تمكنه من إعالة نفسه ، رأى دكتور وليام فرايدون وزوجته أن المصلحة تقضى بإجباره على الاعتماد على نفسه ، فأعلناه بعزمهما على قطع المال عنه ، وحددا له شهر أغسطس كنهاية للمهلة التي يمنحانها له ، فإذا وجد العمل كان بها ،

وإذا بقي على تعطله فهو حر في نفسه . :

ومن هنا بدأ التفكير في الجريمة . .

فقد أثار الإنذار نفمة الابن المدلل على والديه . ولما تأكد له أنهما جادان في عزومهما على حرمانه من المعونة المالية ، استقر رأيه على ضرورة قتلهما للاستمتاع بالثروة التي تؤول إليه بموتهما . . وبعد أن استعرض مع صديقه جميع وسائل القتل وناقشها . انتهى إلى اختيار سيانور البوتاسيوم تأكيداً لخدعة الانتحار . .

وأسرع « هارلو » في إعداد العدة لارتكاب جريمته . فاشترى السم كما اشترى زجاجة الشمبانيا ، ثم اتصل بوالديه تليفونياً يزعم لهما أنه وفق إلى عمل ممتاز ، واحتفالاً بهذه المناسبة يرجو أن يأذنا له بزيارتهما ليشرب الثلاثة معاً نخب بداية توفيقه في الحياة العملية . .

ويقول « دينيس » في وصف ما حدث بعد ذلك ، إن « هارلو » اصططحبه إلى مسكن والديه ، ولكنه تركه في الخارج خشية أن يثير وجوده شكوكهما . . وبعد نحو نصف ساعة فتح له الباب ، ودعاه إلى الدخول فكانت صدمة شديدة له حين فوجئ بالزوجين راقيدين على أرض المطبخ . . وكانت الأم ميتة والأب يختضر ، غير أن « هارلو » لم يستطع الصبر دقائق حتى يلفظ فرايدون أنفاسه الأخيرة ، ورغبة في التعجيل بموته فتح فيه وصب فيه جرعة كبيرة من السم ، كذلك فعل بأمه مع أنها كانت جثة هامدة . :

وبهذه الاعترافات أصبح من المحتم إلقاء القبض على الابن القاتل . . ولقد عثر رجال الشرطة عليه في أحد الفنادق الفاخرة ، وكان يرقد

في سريره يثقب رأسه بضربات ويقرأ في ديوان شعر . .
وعندما اقتيد إلى مركز الشرطة صمم على أخذ ديوان الشعر معه :
وظل متشبثاً به على مضي أيام التحقيق وفي ثناء اخفا كمة . . وكان كلما
تناول الحديث وصف ما فعله في تنفيذ جريمته . يفتح الكتاب ويتشغل
عما يقال بتلاوة الشعر . . ولقد لزم الصمت معظم الوقت : والكلام الوحيد
الذي رضى بأن يذنب به هو أنه قتل أمه عقاباً ذا على جبروتها وتعنتها : كما قتل
أباه لضعف شخصيته ووقوعه تحت سيطرة زوجته . .

ونظراً لوحشية الجريمة وتفاداة الأسباب الدافعة إليها : قررت النيابة
إحالة الشابين المجرمين إلى مستشفى الأمراض النفسية للتثبت من صحة
قواهما العقلية قبل تقديمهما للمحاكمة . . وحتى في المستشفى لم تفلح الخيل في
إقناع « هارلو » بترك ديوان الشعر . وظل يتشبث به ليل نهار : وعند النوم
يضعه تحت وسادته خشية أن تمتد يده إليه . .

وجاء قرار الأطباء مؤكداً سلامة عقل « دوينيس » وضرورة اعتباره
مسئولاً مسؤولية كاملة عن دوره في الجريمة . وبناء عليه قدم للمحاكمة :
وتقديرًا لاعترافاته التي ساعدت العدالة على أن تأخذ مجراها : أعفى من
الإعدام : وصدر الحكم عليه بالسجن المؤبد . .

أما « هارلو » فقد أجمع الأطباء على أنه برغم تنويع العلمى وذكائه
العظيم وقدرته الفائقة على التعبير عن نفسه ببلاغة نادرة . مصاب بنوع
خطير من الجنون يخلق به في عالم الأوهام والخيالات . وينحرف
بذهنه بعيداً عن مسالك التنكير السليم . نتيجة لإصابته باضطراب عاطفي
عتيف حرمه فرصة التضييق الذهني والنفسي . ودفع به إلى طريق العنف

والشذوذ الجنسي . . . ومن ثم فهو مريض ولا يمكن أن يعتبر مسؤولاً عن جريمته . . . فصادر الحكم على « هارلو » بإيداعه في مستشفى للأمراض العقلية . كما عين حارس قضائي على ما تبقى من ثروته لكي يتولى تدبير شئونها إلى حين يشفى - إذا قدر له الشفاء - فيقدم للمحاكمة ثانية . أو يموت فيئول المال لمن يلمه في خط الوراثية . . .

ولقد كشف التحليل النفسي الذي استند شهوراً متتالية عن مأساة « هارلو » : فقد كان الابن الوحيد لزوجين يختلفان تمام الاختلاف في شخصيتهما ونظرتيهما إلى الحياة . . . فالدكتور فرايدون كان طبيباً غاية في الامتياز ، ومن السهل عليه أن يقتنى المال والشهرة بممارسته لمهنته ، لكن زهده الأصيل في الطموح ، وميله إلى حياة الراحة والمسالة ، دفعه إلى الاكتفاء بوظيفة حكومية تأتيه بمرتب طيب وتعفيه من المشقة والمسئولية . . . ولقد قدر لهذا الرجل الطبيب المسلم أن يتزوج بمدرسة مسيطرة جبارة ، فجعت بعد زواجها منه في ضعفه وزهده في الطموح ، فاستبدت به ومحت شخصيته ، الأمر الذي دفع به إلى اختيار الوظائف التي تبعده عن البيت ، وتريحه من سيطرة زوجته معظم الوقت . . .

وولد « هارلو » في هذا البيت غير المتوازن . . .

وكانت أمه شديدة التعلق به ، إنما بطريقتها الجبارة المسيطرة ، فاعتيادها التحكم في تلاميذها وإجبارهم على النظام ، دفعها إلى السكوك ذاته مع ابنها الصغير ، فكانت في صغره تتركه يبكي الساعات في فراشه معتقدة أنها ما دامت قد أطعمته وغيّرت ثيابه فعليه أن يلزم الهدوء في سريره ، ولا يطمع في أن تحمله أو تدله بلا داع . . . وعندما يحين وقت تبوله

أو تبرزه تضعه على . انقصية . فإن أخرج ما في جوفه كان بها .
 وإذا لم يخرج تتركه في مكانه مهما طال الوقت إلى أن يفعل ذلك .
 . . . ولتفرض ارتباطها بعملها حرمة نعمة الرضاعة من ثديها . فحرم
 بالتبعية من حقوقه الطبيعية في الاكتفاء العاطفي الذي يشبعه نفسياً ويمنحه
 الشعور بالاطمئنان الذي يحده الطفل عادة وهو راقد في أحضان أمه . .
 ولشدة لهما عليها منعتة من الاختلاط بالأطفال الآخرين ، ولكي تعوضه
 عن هذا النقص غمرته باللعب المختلفة التي يعالج بها وحدته . . وكانت
 في غضبها عليه تضربه بيدها على عجزه ، وإذا رضيت عنه تربت
 بختان على هذا الجزء من جسمه ، وبذلك جعلت من هذه البقعة مركز
 العواطف المختلفة ، الطيب منها والردى . فأصبح يشعر باللذة والألم عن
 طريقها . .

ولقد كان «هارلو» منذ بداية حياته إنساناً غاية في رقة المشاعر وشفافية
 الأحاسيس والخيالات . . . يحب الزهور والعصافير ويطرب
 بالأنغام الحلوة ، ولما شب عن الطوق ظهر تعاقبه بالشعر ، فكان يقبل
 على قراءته بشغف ، لكن هذه الظواهر الرقيقة لم ترق الأم الجامدة
 المسيطرة ، ودفعها غضبها عليه إلى اتهامه في رجولته حتى خلال طفولته
 وقبل أن يعرف أى شيء يسمونه الجنس . . فكلما رأته يحدو على طير
 أو يعجب بزهرة أو يتلذذ بقراءة أغنية أو قصيدة ، تصرخ في
 وجهه قائلة :

«والله إنك لمتخنث ، وبالنكبتى فيك إن كنت حقيقة كذلك» . .

وعندما وصل إلى مرحلة الصبا ، ولم يبد عليه اهتمام ملحوظ بالجرى وراء

الفتيات تسبه قائلة : أيتها المافون متى تكف عن هذا التخذت . وتخرج من البيت لتفعل ما ينعبه المذكور الآخرون ؟ ! ومع رغبتها الشديدة في أن تجعله رجلا . ظلت تعامله معاملة الطفل . فتحميه بنفسها بعد تخطيه السن التي يجوز اللأم أن تفعل فيها ذلك . . وتطوف بالبيت شبه عارية أمامه . . وإذا حاول مرة أن يرضيها بعقد صداقة مع فتاة في مثل سنه . تتملكها الغيرة الشديدة . وتظل تنتقد هذه الفتاة وتسخر من شكلها وتصرفاتها . إلى أن تزده فيها وتبعده عنها لكي لا تشاركها أخرى في مشاعره واهتماماته .

وعاش « هارلو » حياته على هذه الصورة المحزنة . يتألمت حوله بخشاً عن القدوة التي تساعد على بناء رجولته فلا يجد لها . . ذلك أن الإنسان الوحيد الذي كان بمقدوره أن ينقذه من محنته ويعالج آثار سيطرة أمه عليه . . وهو والده . . . اختار بضعف شخصيته أن يسلك سبيل السلامة بالابتعاد عن البيت أطول مدة ممكنة . وعندما كان يأتي لقضاء عطااة نهاية الأسبوع مع زوجته وابنه . ياود بالنادى معظم الوقت ، وبالليل يدفن وجهه في كتاب يتلوهى بقراءته عن كل ما يجري حوله ، وكأنه ضيف ليس من حقه أن يتدخل في شئون الأسرة أو يشترك ولو بدور صغير في تدبير أمور من فيها . .

ويقول الطبيب النفسى الذى تولى بحث حالة الابن القاتل بعد ارتكابه الجريمة : إن ظروف حياة « هارلو » حالت دون نموه الطبيعى العاطفى ، فمع أنه كان فى الحادية والعشرين من عمره عندما ارتكب جريمة البشعة غير أنه ظل حتى هذه المرحلة المتقدمة طفلا من حيث عواطفه

وأحاسيسه وتفسيراته التي لم تجد بسبب سياسة لأمه والذبح في تشييده فرصة
الارتقاء فوق مستوى الطفولة فيمارنون كأن رجلا من حيث تكوينه
الجنسي والبيولوجي . ولكنه لم يخرج عن نطاق الطفولة في أفكاره ومعقداته
وتصوراته وآماله والأمر كذلك فيما يتصل بسلوكه الجنسي ،
فالمصابون بالشدوذ الجنسي - خصوصاً المختون منهم - هم في حقيقة أمرهم
أطفال في تصرفاتهم الجنسية . فلهيئط خوفهم من مواجهة مسؤوليات
الاتصال بالجنس الآخر . يتجهون إلى إشباع لذاته مع الجنس المماثل . .
ولقد كشف التحليل النفسي أيضاً على أن كان محتمل
العقل منذ الصغر . فقد كان يكثر من البكاء خصوصاً في أثناء تناول
الطعام وبعده . وهذا أكبر دليل على الاضطراب النفسي . فالأكل
هو أول وأكبر خطوة في استئناس الطفل وترويض نوازعه البدائية . .
والأطفال الذين يقتلون هم الذين لم يستأنسوا ولم تروض نوازعهم البدائية ،
فالوسيلة الأولى السليمة هي تزويدهم بمن يطعمهم بعطف وحب
وحنان وصبر . وإذا أبدت الأم في أثناء إطعام طفلها قلقاً وعصبية ،
فإنها بذلك تعكس مشاعرها الدفينة عليه ، وتضيع عليه فرصة الاستئناس
والترويض والطفل الذي يبكي في أى وقت من الليل أو النهار ،
حتى لو لم تكن هناك أسباب لبكائه . يحتاج بشدة إلى أن تخرج إليه
أمه . وتأخذه بين أحضانها لتهدئته وبعث الطمأنينة في نفسه . لأن
الطفل الذي تركه يصرخ في طفولته يظل طول حياته يصرخ بطرق
مختلفة ، منها ارتكاب الجرائم أو الخروج عن المألوف في السلوك
الجنسي . . .

ومع أن الظواهر كلها كانت تنفذ على اضطراب « هارلو » العنقلى والنفسى منذ البداية فإن أحداً من حوله وأولهم أمه لم يتنبه للأمر ويعطى حقه من العلاج . . . ولقد ثبت أيضاً من خلال البحث الذى قام به الطبيب النفسى فى حياة « هارلو » أنه بعد أن بلغ الثامنة من عمره أخذت أسرته تعاني من نشوب حرائق فى أما كن مختلفة من البيت . . . والعجيب أن هذه الحرائق لم تكن تحدث إلا فى أثناء وجود الابن فى المنزل مع أسرته . . . ولهذا مغزاه الواضح . . . غير أن الزوجين التزما الصمت إزاء ذلك مما اضطر الشرطة إلى مواجهتهما بمنتهى الحزم ، عن اقتناع بأن ابنيهما هو الناعلى . وأنهما يعرفان ذلك ويتستران عليه ، فيحرمانه فرصة معاونة القانون لهما بإبداعه إحدى المصحات للعلاج من هذه الظاهرة الإجرامية التى تنبئ بأخطار كثيرة قادمة . . .

ويؤكد الطبيب النفسى أن مسر فرایدون هى التى أدت إلى دمار ابنها بأسلوبها التربوى معه . . . فقد ظلت طول الوقت تعتبره طفلاً ، وتعامله كأنه عمل أو مهنة . والأمهات المفرطات فى رعاية أولادهن الصغار يسببن لهم منتهى الشقاء . . . فالطفل يخضع فى الظاهر للسيطرة والمبالغة فى الرعاية . لكنه فى قرارة نفسه يكون ثائراً غاضباً حائفاً على هذا الوضع . . . والعلم لا يعتبر مثل هذه السياسة دليلاً على حب الأم لابنها . بل يؤكد أنه تعبير للعداء الذى تشعر به نتيجة لعجزها الحقيقى عن مسايرة مطالب الحياة ومواجهتها . . . فهى بشدة تضيقها على ابنها : وإصرارها على تسييره وفق هواها ، ترى إلى أن تخدع نفسها بتصورها أنها تفعل ذلك بدافع من الحب الشديد ، فى حين أن سلوكها الاستبدادى بالطفل

هو الترجمة الصادقة لخوفها واضطرابها أمام مسؤوليات الحياة :
والنتيجة أنها تعطل النمو العاطفي لصغيرها : وتحرمه القدرة على التمييز
بين المشاعر المختلفة : مما يؤدي به إلى فوضى كاملة في مداركه وتفكيره . .
والأمهات اللواتي يفرضن في التعلق بأولادهن منذ مولدهم وخلال
المراحل التالية من حياتهم : يدفعن أولادهن الذكور إلى الشذوذ
الجنسي . . لأنهن في قرارة قلوبهن لا يرون أن تشاركهن أخرى فيهم ،
وبالإيجاء ودون قصد تنتقل هذه الرسالة إلى الفتيان : فيميلون جنسياً
إلى الذكور أمثالهم ويعاشرونهم ، زهداً في النساء . .

ويقول علماء النفس إن الإنسان لا يولد شاذاً جنسياً ، وإنما يكتسب
هذا السلوك المنحرف عن العديد من التجارب والأحاسيس والمشاعر التي
تمر بحياتهم . والمثل الواضح لذلك نجده في « هارلو » ، فقد عاش عمره
أسيراً لأمه واقعاً تماماً تحت سيطرتها ، وكان يشعر برأسه السادسة
أنها لا تريد منه الاتصال بالنساء على عكس ما تقول ، ولقد ثبت
بالبحث أنها كانت تضربه في غضبها وتربت عليه في رضاها عنه على
عجزه وبذلك تجعل من هذه البقعة مركز إحساسه بالمشاعر المختلفة . . .
كما كانت تتركه يبكي بالساعات . وإذا ضاق صدرها تتصور أنه مصاب
بـ « تلبك » معوى فتسرع بإعطائه حقنة شرجية . . فإذا أضفنا إلى ذلك كله
إصرارها على السير أمامه عارية الجسد بعد السن المناسبة للملك نجد أنها
إلى جانب إثارتها الجنسية له قد أعدته نفسياً لمعاشرة أبناء جنسه ،
وأبعدته كل البعد عن الجنس الآخر الذي يتمثل فيه الأسلوب الطبيعي
لممارسة الجنس . .

والمنحرفون جنسياً يكرهون عادة أمهاتهم أشد الكراهية وأعنفها بدفع
من شعورهم الباطن بأنها اتخذتهم أداة لتسليتها وإرضاء لغرورها وعلاجاً
لنشأتها . . مع أن الطفل لكي تضمن سلامة سلوكه الجنسي يجب
أن ينشأ على حب أمه . فمن خلال عاطفته الطاهرة النقية نحوها . .
عاطفته الخالية من أودام الجنس وشياطينه . . يتعلم كيف يحب غيرها
من النساء غير المحرمات عليه . وأن يمارس معهن العلاقات الطبيعية بين
الرجل والمرأة :

ومع ما عرف من كراهية المنحرفين جنسياً لأمهاتهم ، فالعادة
أن يكونوا شديدي الارتباط بهن . وبواعز من الكراهية والارتباط معاً
يتجهون إلى الرجال من أمثالهم . والأمل الوحيد في إنقاذهم هم الآباء
الأقوياء الذين يقفون أمامهم مثلاً للقدوة الحسنة . ويتعاملون منهم كيف
تكون الرجولة العامة بالقوة . . لكن « هارلو » لم يمتح له ذلك بسبب
ضعف أبيه وخذلانه ودأبه على الهرب من جو أسرته ومشاكلها بالابتعاد
عن بيته . .

ولقد كان هارلو يحب بعقله الواعي أباه لكونه هادئ الطبع طيب
القلب . ولكنه يكرهه بعقله الباطن لضعفه وخذلانه وعجزه عن مواجهة
زوجته الصارمة المستبادة . .

وكان الموقف بالعكس مع أمه فهو يكرهها بعقله الواعي لسيطرتها
وجبروتها ، لكنه يحبها بعقله الباطن لتحليلها بكافة الصفات التي افتقدها
في أبيه . لذلك قتل الأثنين ، متصوراً أنه بقضائه على أمه يريح العالم
من شرورها . وبقضائه على أبيه يحرره من عذاب الانقياد لها . .

ويختم نخبيب نفسه تقريره عن هارلو بأنه كئيبه أن الشذوذ الجنسي في الرجال هو صرخة الاحتجاج على ما حرّموه في طمّولتهم من المقدّرة الخسنة لشخصية السوية . وعلى ما سلّبه منهم أممّاتهم من فرص ممارسة سيادة الرجل . . . لكنهم برغم رضاهم الخبي عن سلوكهم يعرفون في غمارة عقولهم الباطن أن العلاقة الطبيعية لا تكون بين أبناء الجنس الواحد . وأنهم بما يفعلونه يرتكبون خطأ يشير احتقار الناس لهم ويدفعهم هم أيضاً إلى احتقار أنفسهم . . الأمر الذي يربك تفكيرهم ويخلط مشاعرهم ويدفعهم إلى الجنون أو ارتكاب أبشع الجرائم . . فالذين يتصورون أن المصابين بالشذوذ الجنسي سعداء هم على خطأ فاحش ، فالحقيقة أن صدورهم مليئة بالعذاب ، ومن خائف واجهة العنف أو البطولة أو عدم المبالاة أو التحدى ، التي يحرصون دائماً على الاحتماء بها أمام مجتمعاتهم . يخشى الإنسان الخائف . . الإنسان المختل التعس . . الإنسان الذي يتخبط في عالم كله فراغ ووحدة ويأس . . :

أما « هارلو » فقد وضع بيده خاتمة حياته بعد فترة قصيرة من دخوله مستشفى الأمراض النفسية ، فلقد عثروا عليه صباح يوم ميتاً في فراشه ، وظهر من التشريح أنه انتحر بتعاطيه كمية ضخمة من الحبوب المنومة التي استطاع أن يحصل عليها سرّاً من زملائه المرضى الآخرين مقابل قطع من الحلوى وبعض اللذائذ التي يشتهونها ، ولا يجدون من يأتيهم بها . . ولقد ظل شهوراً يجمع الحبوب المنومة . فاما توافر له العدد الكافي تعاطاه دفعة واحدة ، فأراح بذلك نفسه من عذابها ، وأراح العالم من وجوده . .

فهرس

صفحة

٥	مقدمة
٩	جريمة أم
٢١	« سندرا » تبحث عن الانتفاء
٣٥	« ماريان » تواجه حقائق الحياة مبكراً
٥٣	« رينيه » تحن إلى ثدى أمها
٦٧	أستاذة الجامعة تحتقر نفسها
٨٣	« لورا » فى حرب مع الفراغ
٩٧	عندما ينقلب الأصدقاء أعداء
١٠٧	لمسة المرأة العجوز
١٢٥	« كارين » تسعى إلى الشقاء
١٤١	عندما ينقم الابن على أمه
١٥٧	عندما يحتقر الابن أباء
١٦٧	عندما تنكر الأم لأمومتها
١٨١	« سلقادور » يعلن الحرب على الظلم
١٩١	« بيل » ينتقم من أبيه
٢٠١	« كارولين » تنتقم لطفولتها
٢٢٣	جريمة ابن !

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية

تحت رقم ١٨١٧ / ١٩٧٥

مطابع دار المعارف بمصر - ١٩٧٥

١ / ٧٤ / ٤٠١